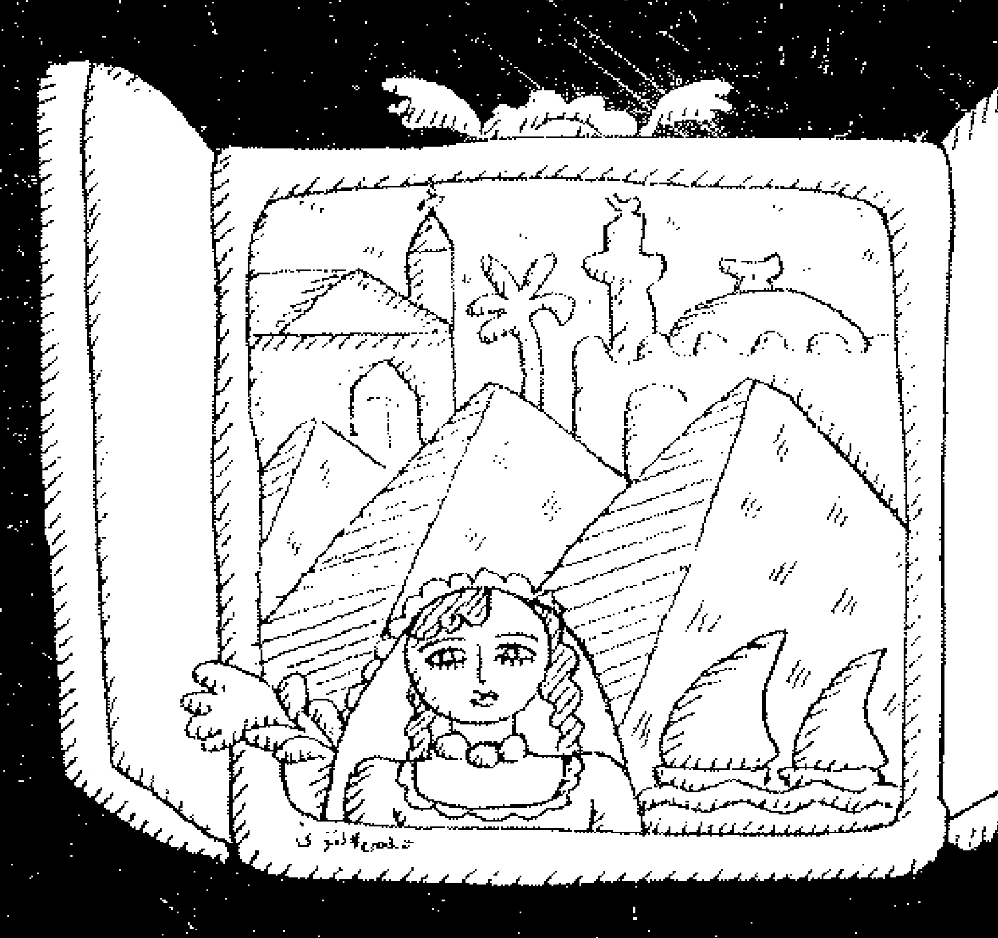
جمال بدوى



مصر
افذة التاريخ

(كان وأخواتها)

دار الشروق


من نافذة التاريخ

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

جمال بدوى



دار الشروق

إهـــــــداء

إلى روح الزعيـم

مصطفى النحاس

تحية عرفان من مصرى عاشق لوطنه ..

إلى روح الزعيم الذى أفنى عمره فى خدمة وطنه ..

ثم غادر الدنيا ـ كما دخلها ـ طاهرًا من الرجس .

هـذا الكتـاب
بقلم محمد فؤاد سراج الدين
رئيس الوفد

قرأت هذا الكتاب مرتين : المرة الأولى ، على حلقات أسبوعية فى باب «كان وأخواتها » ، فى صحيفة الوفد ، الذى يحرره الأستاذ جمال بدوى ، مؤلف هذا الكتاب ، وذلك على مدى خمسة وسبعين أسبوعًا متتالية . والمرة الثانية بعد أن جُمعت هذه الحلقات فى ملازم وأعدت للطبع . وكانت متعتى بالقراءة الثانية لا تقل عن متعتى الأولى بها ، وذلك لطرافة الموضوعات التى انتقاها المؤلف من تاريخ مصر الحديث ، بدءًا من عهد محمد على إلى عهد الثورة وكذلك للأسلوب الشيق الذى عرف به جمال بدوى .

وقد عالج المؤلف الموضوعات التى تناولها فى كتابه من زاوية جديدة لم تعرفها الصحف من قبل ، ونجح تماما فى أن يتلافى الجمود الذى يصاحب دائمًا الموضوعات التاريخية .

ولاشك أن هذا الكتاب قد أدى خدمة جليلة لشباب هذا الجيل ، إذ عرفه بالكثير من تاريخ بلاده وسير زعمائه ، الأمر الذى تعمد المسئولون تجهيله به فى معاهد العلم لأسباب سياسية معروفة .

إن ما اقترفه هؤلاء المسئولون فى حق الشباب المصرى ، يعتبر جريمة لا تغتفر لابد أن يحاسبوا عليها أشد الحساب .

لقد وفق الأستاذ جمال بدوى فى اختيار عنوان كتابه ، عندما وصفه بأنه «مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث» . كما وفق فى إعادة الحياة إلى هذه الأحداث القديمة ، التى مر عليها عشرات السنين ونسيها الناس ، وإن كان معظمهم يجهلونها أو يجهلون معظمها ، لأن أحدًا من الكُتاب ـ قبل جمال بدوى ـ لم يهتم بعرضها والتعليق عليها .

إن هذا الكتاب إثراء جديد للمكتبة المصرية كانت فى أشد الحاجة إليه ويذكر لصاحبه بالفضل ، ويزيد من فضله مواصلته لكتابة هذه الحلقات فالقارئ أيا كان شيخا أو شابا ، فى أشد الحاجة إليها . وإنى واثق بأن هذه الدراسات الشيقة ستؤدى غرضها فى تنوير المواطن المصرى بتاريخ بلاده وحياة العظماء من رجال مصر الأوفياء ، بعد أن أزال عنهم جمال بدوى غبار الجحود والتجهيل ، وكشف عن جهادهم النبيل فى سبيل مصر الخالدة .

مقدمة الطبعة الأولى
بين يدى القارئ

هذه مشاهد من تاريخ مصر الحديث ، يسعدنى أن أضعها بين يدى القارئ الكريم ، لكى ينتفع بها ، وتساعده على تفسير أمور كثيرة تجرى من حوله ، فأنا لم أكتبها بهدف تسلية القارئ أو الترويح عنه ، ولكن بهدف إزعاجه حتى يعرف نفسه، وعندما أمسكت بالقلم لأكتب هذه المشاهد فإننى ما تخيلت نفسى شاعرًا بربابة يحكى لرواد مقهاه أمجاد أبى زيد الهلالى ومغامرات الزناتى خليفة . . ولا تخيلت نفسى مدرسًا يلقن تلاميذه معلومات محفوظة عن عظمة خوفو وهو يبنى الهرم الأكبر. . أو شجاعة أحمس وهو يطارد الهكسوس فى قفار آسيا . . ولكننى عرفت نفسى واحدًا من أبناء هذا الشعب الطيب الصبور ، حمل على صدره أحجار الهرم وارتفع بها مِدْماكا فوق مدماك . وحمل على كتفه القوس والسهم والسيف والبندقية ، وسار خلف تحوتمس ورمسيس وصلاح الدين وقطز وبيبرس ومحمد على . . وأمسك الفأس ليشق ترع المحمودية والإبراهيمية والإسماعيلية ، ليعم الرخاء والنماء أرض مصر . . ثم حفر قناة السويس ليربط الغرب بالشرق دون أن يعى أنه سيكون هدفا للغرب والشرق .

لم يكن همى ، عند كتابة هذه المشاهد ، تسجيل أمجاد الملوك والخلفاء والولاة الذين حكموا مصر ، فكُتُبُ التاريخ تفيض ـ والحمد لله ـ بهذه

المعلومات ، ولكن كان همى هو البحث عن أثر هذه الأحداث القديمة فى المصريين المحدثين ، لإيمانى بأن تاريخ مصر حلقات طويلة متماسكة ، وأن أحداث اليوم هن بنات الأمس ، ولاقتناعى بأن أحداث التاريخ تجرى بقوة دفع مطرد . . فكل حادث يملك فى داخله عوامل ذاتية تدفع به إلى الأمام فيتولد منه حادث جديد مشابه له فى الشكل، ولكنه يخالفه المحتوى والمضمون . . وهكذا . . تسير ـ دوما ـ عجلة التاريخ ، ومن هنا تبطل المقولة الشائعة بأن التاريخ يعيد نفسه . . فهى مقولة تخالف طبيعة الأشياء وتناقض حركة الحياة التى تسير فى خط مطرد نحو الأمام . . ولو تخيلنا أنها تسير نحو الوراء ، لكان شأنها شأن عقارب الساعة إذا دارت فى عكس الاتجاه المتعارف عليه منذ اخترعت الساعة . .

وأنا حينما أنظر إلى الشقاء الذى عاناه أجدادنا المصريون وهم يحملون أحجار الهرم . فلا أقول إن التاريخ يعيد نفسه حين أراهم وهم يحفرون ترعة المحمودية أو قناة السويس رغم أن الشقاء واحد فى الحالين . ولكن الحالة النفسية التى كان عليها المصرى مختلفة : فهو فى الأولى تحرك بدافع العقيدة التى تتحدث إليه عن فكرة الخلود ، وقدسية الملك ، أما فى الثانية فقد تحرك بدافع من الكرباج ! فلو وصفت ذلك بمقولة إن التاريخ يعيد نفسه . لكان معنى ذلك أن الزمان ثابت لا يتحرك . . وأن المصريين متجمدون . . أو متحركون على إيقاع « محلك سر » ، وهو إيقاع يقضى على الكائن الحى بالضمور والانقراض . وهناك بالطبع ، شعوب تجمدت حركتها فانقرضت والتاريخ يدلنا على أمم لحقتها لعنة الفناء فباتت مجرد ذكرى . ولكن هذا السلوك لا ينطبق على المصريين الذين عاشوا على ضفاف النيل منذ آلاف السنين . واستطاعوا أن يقاوموا عناصر الفناء . ومن هنا نشأت خصيصة التواصل التاريخى عند المصريين . وهى خصيصة لا تتمتع بها أمم كثيرة

معاصرة ، فأنت حين تتحدث عن الجزر البريطانية أو فرنسا أو أسبانيا أو المجر . لا تستطيع أن تحقق وجود ظاهرة التواصل التاريخى فى تلك البلاد . . ولا تستطيع أن تقول إن الشعوب التى تعيش الآن فوق هذه الأراضى هى أحفاد الشعوب التى كانت موجودة قبل ميلاد المسيح ، ذلك أن هذه البلدان تعرضت لموجات هجرة عنيفة من جانب القبائل الجرمانية والمغولية ، فغلبت على الشعوب الأصلية حتى أزاحتها وقضت عليها .

● ولكن . . برغم الهجرات والغزوات العديدة التى تعرضت لها مصر فقد حافظ المصريون على تماسكهم وترابطهم ووحدتهم الاجتماعية والسياسية فالعقيدة قد تتغير ، ويتبدل الدين ، ويتحول اللسان . ولكن يبقى المصريون محافظين على نقاء سريرتهم ومعدنهم . . وعاداتهم وتقاليدهم . . ولا أقول نقاء عنصرهم ؛ لأن نظرية نقاء العنصر نظرية رجعية فاسدة ، وإذا صحت بالنسبة للشعوب المغلقة التى تعيش فى أدغال إفريقيا أو فيافى آسيا أو على حافة المحيط المتجمد . . فإنها لا يمكن أن تصح على شعب يشغل قلب العالم ، وتتفتح بحاره وصحاريه على كل الاتجاهات الأربعة . . فقد كان أمرًا مقضيًا أن يختلط بشعوب أخرى ، بل أقول إن هذا الاختلاط كان من عوامل بقائه ، فقد اكتسب العنصر المصرى - إن صح هذا التعبير - صفات وراثية قوية على النحو الذى يعرفه علماء الأجناس والسلالات ، وهذه الميزة حرمت منها العناصر المتعجرفة التى عاشت فى مصر أسيرة نقاء العنصر ، فذوت وضعفت حتى انقرضت ، وأنت تستطيع أن تجد ذلك ، إذا بحثت عن أحفاد العناصر التركية المتغطرسة التى استوطنت مصر ، ولكن انعزلت عن شعبها ، ولم يسمح لها غرورها واستعلاؤها بالتزاوج من الفلاحين المصريين ، فلن تجد لهم ذكرًا على عكس القبائل العربية التى اختلطت وامتزجت فكتبت لنفسها البقاء ودخلت فى مكونات السبيكة البشرية المصرية .

وهذه الخصيصة التى يتمتع بها التاريخ المصرى - خصيصة التواصل والاستمرار - هى التى جعلتنى أفسر أمورًا معاصرة بأحداث قديم، وخصوصًا عندما يتطرق الأمر إلى العلاقة الجدلية بين الحاكم والمحكومين ، عندئذ يكون من اليسير تفسير هذه القضية فى ضوء معطياتها المباشرة ، ويكون من الواجب تأصيلها تاريخيًا ، وربطها بالظروف العملية التى حتمت قيام سلطة مركزية تشرف على توزيع مياه الرى على زراع الأرض . . ثم احترام الزراع لهذه السلطة وخضوعهم لما تصدره من قوانين وأنظمة . . فنشأ عن ذلك مولد الحكومة المستبدة التى تفرض سلطانها بقوة القهر . ثم قبول الناس لهذا الاستبداد لأنه مرتبط باستمرار الحياة ودوام النماء . . وعلى هذا فإنه يصعب الفصل بين المشاهد والأحداث المتشابهة من تاريخ مصر ، حتى لو باعدت بينها آلاف السنين ، ورغم أننى أضع بين دفتى هذا الكتاب مشاهد متناثرة من تاريخ مصر الحديث ، إلا أننى أدعو القارئ الكريم إلى أن يكمل بنفسه بقية المشوار فينُقب فى بطون الكتب عن أصول هذه المشاهد وجذورها المدفونة فى تربة مصر ، منذ فجر التاريخ الإنسانى ، عندئذ سوف تكتمل أمامه أجزاء الصورة وتتصل حلقات السلسلة التى أشرت إليها فى صدر هذا الحديث . عندئذ يعرف المصرى نفسه . . ويجد الجواب عن كثير من الأسئلة الحائرة التى تتزاحم بها أحداث اليوم . . وهذا هو الهدف الرئيسى من إعداد هذا الكتاب .

تبقى بعد ذلك ملحوظة . . فسوف يجد القارئ الكريم أننى أهملت ذكر المصادر والمراجع ، وهى مسألة يهتم بها كُتَّاب التاريخ ، وكان من السهل أن أفعل ذلك . . ولكنى وجدت أن ذلك سيبدو عملاً مظهريا . فما أسهل أن أسجل أسماء مئات الكتب التى رجعت إليها . . ولكننى لم أفعل ؛ لأننى لا أكتب رسالة جامعية تحتم على ذكر مصدر الحدث . ولكنى أقدم تحليلاً للحدث نفسه . . ولذلك تغافلت عن ذكر المصدر ، إذا كان الأمر يتعلق

بالأحداث ، لأنها ملك للجميع ، وذكرها مشاع فى عديد من الكتب . ولكننى تعمدت ذكر المرجع ، حين كان الأمر يتعلق برأى أو وجهة نظر تفسر الحدث نفسه ، أو تستخلص منه نتيجة بعينها . . فهى ملك لصاحبها وحده .

وفـاء وعرفـان

وفى ختام هذا التقديم ، فإن واجب الوفاء يقتضينى أن أتقدم بالعرفان لكل المؤرخين والباحثين والكُتَّاب ، الذين رصدوا تاريخ مصر بعين فاحصة . فقد أفدت منهم وتعلمت على أيديهم الكثير .

كما أتقدم بخالص التقدير والاحترام ، للأستاذ الكبير محمد فؤاد سراج الدين زعيم حزب الوفد ، الذى جاء إصراره وجلده وإيمانه عاملاً مؤكدًا فى عودة حزب الوفد إلى الساحة السياسية بعد فترة ركود دامت ثلاثين عامًا . وكان ظهور جريدة « الوفد » فرصة ذهبية لظهور هذه المشاهد على صفحاتها الغراء . ومن ثم كانت مثار مناقشات مثمرة بينى وبين هذا الزعيم ، الذى يحفظ فى ذاكرته وعقله أدق الأسرار عن مرحلة زمنية تشغل نصف القرن .

ويسعدنى أن أقدم امتنانى ، إلى أخى وصديقى وزميلى مصطفى شردى رئيس تحرير « الوفد » ، الذى أتاح لهذا الباب التاريخى « كان وأخواتها » أن يحتل مكانا مرموقا على صفحاتها منذ عددها الأول . كما لا يفوتنى أن أشيد بملاحظات الأصدقاء والأخوة الذين لم يبخلوا على بعبارات التشجيع التى كان لها أبلغ الأثر فى تقويم هذه المشاهد وإظهارها فى أكمل صورة وأدعو الله تعالى أن يمدنى بعونه ، حتى أستطيع مواصلة الرسالة التى أحملها بين جنبى تجاه بنى وطنى . . إنه سميع مجيب .

جمال بدوى

مصر الجديدة أكتوبر ١٩٨٦

غرباء .. لكن أمراء

فى تاريخ مصر الإسلامية ، أسماء لامعة لحكام غرباء ، وثبوا إلى السلطة جهارًا نهارًا ، وأهلها صامتون مستسلمون لا يملكون غير الدعاء لولى الأمر بالصلاح والعز والتأييد . عندك ـ مثلاً ـ أحمد بن طولون ، الجندى التركستانى الذى جاء أبوه إلى بغداد أسيرًا ، فلم يلبث الابن أن شب فى حرس البلاط العباسى ، حيث تتهيأ الفرص أمام هؤلاء الجند المحظوظين لحكم الولايات الإسلامية ، وكانت مصر ـ أغنى الولايات وأعرقها ـ من نصيب أحمد ، فاستقل بها عن دولة الخلافة وأقام فيها إمبراطورية وصلت حدودها إلى الأناضول ، وهناك محمد بن طغج بن جف الإخشيد ، الذى ولد فى فرغانة من بلاد ما وراء النهر ، وسلك نفس الطريق الذى سلكه سلفه ، حين ألقت به الريح إلى أرض الكنانة ، وعندك كافور ، العبد الخصى ، الذى تولى الوصاية على أبناء سيده الإخشيد ، فأطاح بهم واستبد بالأمر وأصبح ملكا مرموقا يقصده العلماء والأدباء والشعراء ، ومنهم « المتنبى » الذى مدحه بأجمل الأوصاف طمعا فى أن يمن عليه بحكم أحد الأقاليم المصرية ، فلما خاب سعيه هرب من مصر فى ليلة عيد ، وهو يهجو كافورًا بأقذع الشتائم . وعندك بدر الجمالى ، المملوك الأرمنى ، الذى استقدمه الخليفة الفاطمى المستنصر من عكا لمعالجة الفوضى التى عمت البلاد بسبب الصراع بين زعماء فرق الجند المرتزقة ، فقطع رءوسهم وأعاد الاستقرار والأمن إلى ربوع مصر ، وأحاط القاهرة بسور حجرى سميك ، لا تزال بقاياه ماثلة فى أبواب الفتوح والنصر وزويلة ، وترك فى مصر سلالة الوزراء العظام ، وعندك شجرة الدر الجارية الحسناء ، التى قدمت مصر لقمة سائغة إلى بنى جنسها المماليك ليحكموها ٢٥٠ سنة أو يزيد .

وقائمة الحكام الغرباء ، الذين استولوا على مصر ، طويلة ومتشعبة ، وهى أشبه
سلة محكمة ، أحاطت برقاب المصريين وحالت بينهم وبين حكم أنفسهم .
ل أقرب هـؤلاء الحكام الغرباء إلى عصرنا ، محمد على تاجر الدخان الألبانى
ى جاء إلى مصر جنديا فى حملة عثمانية لإخراج الفرنسيين منها ، فوضع رجله فيها
يغادرها أبدا ، وأقام فيها إمبراطورية وأسرة ملكية . فأما الإمبراطورية فقد اندثرت
أن يموت ، ووقّع بيده شهادة وفاتها فى اتفاقية لندن ١٨٤٠ ، وأما الأسرة ، فقد
ت ١٥٠ سنة حتى أطاحت بها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

كيف استطاع هؤلاء الأفراد المغامرون ، أن يحكموا بلدًا قديماً عريقًا كمصر ، دون
يكون لأهلها رأى فى هذا الحكم ؟! هذا سؤال خطير ، ينبغى على كل مصرى أن
ر فيه جيدًا ، وأن يبحث عن الجواب بنفسه ، فى بطون الكتب وعلى جدران
حف ؛ لأن الجواب سيكشف له عن بعض أسرار الشخصية المصرية ، ويلقى
وء على سلوكياتها وعاداتها وتقاليدها ، وسيضع أيدينا على مفاتيح العلاقة الأزلية
المواطن والسلطة ونظرته إلى الحكومة ، ودرجة احترامه للنظام والقانون ، ومغزى
ثال الشعبية التى نحتها الوجدان المصرى من الواقع . .

وقبل أن نمضى فى رحلة البحث المضنى ، أرى من الأمانة أن أعرض عليك
ظًا ، يبديه بعض المؤرخين إزاء وصف أولئك الحكام بأنهم « غرباء » ؛ فهم
سون هذا الوصف ، وحجتهم فى ذلك أن هؤلاء الحكام ما وصلوا إلى قمة السلطة
فى ظل الإسلام ، الذى يرفض تقسيم الناس عرقيا أو قوميا أو جنسيا أو وطنيًا
، ثم فهو يفتح الباب أمام أى إنسان أمين تتوفر فيه مؤهلات الحكم ، لكى يصل
القمة ولو كان عبدًا حبشيًا . . وما يهم الإسلام هو أن يلتزم الحاكم بمبادئ
ـل والإحسان والمساواة والشورى . . . وبعدها يكون على الناس السمع
لاعة . فأرجو أن تضع هذا المفهوم فى اعتبارك ، وأن تبحث عن الجواب .

الصعلوكة
على عرش فرعون

من كان يصدق أن ترتقى هذه « الصعلوكة » فى سلم المجد والعظمة ، حتى تتربع على عرش فرعون . . ويكون لها فى تاريخ مصر والعالم الإسلامى مكان مرموق . . ؟ فتاة جميلة ، أشبه بزهرة متوحشة ، نبتت بين الصخور فى الهضاب الآسيوية ، ثم طوحت بها الريح إلى هذا البلد العجيب ـ مصر ـ الذى يحنو على كل غريب ، ويحتضن كل وافد . . فإذا بالزهرة البرية تثبت جذورها فى الطين ، وتسفر عن شجرة باسقة القوام . . تطاول السحاب . . وتصمد للأعاصير، ويئول إليها زمام الأمر فى الديار المصرية ، فى لحظة من لحظات التاريخ الفاصلة . . فالصليبيون قد احتلوا دمياط . . ويمموا زحفا نحو القاهرة . . والدولة كلها ، بسلطانها وجيشها وشيوخها وشبابها ، تمركزت فى المنصورة استعدادًا لمعركة المصير . . وفى تلك اللحظة الحرجة مات السلطان فى معسكره . . ولك أن تتصور وقع الخبر على المقاتلين ، وهم يتهيئون للزحف . . ولكن الجارية الحسناء ، شجرة الدر ـ أو شجر الدر كما ورد فى بعض المصادر ـ تكتمت الخبر . . وأدارت الأمور بكفاءة يعجز عنها الرجال . . حتى تحقق النصر الساحق الماحق . . واندحر الفرنسيس ، وبات ملكهم ـ لويس التاسع ـ أسيرًا فى دار ابن لقمان ، تحت حراسة الطواشى صبيح . . وبذلك انفتح الباب على مصراعيه ، أمام شجرة الدر لتجلس على عرش خوفو وتحتمس وكيلوباترا والمعز لدين الله وصلاح الدين الأيوبى . .

* كيف حدث ذلك . . ؟

وكيف استطاعت هذه المرأة ، باهرة الحسن ، أن تبلغ القمة التى قصرت دونها

ناق الرجال ، وأن تملك العرش الذى يتصارع من حوله أمراء البيت المالك يُوبى ، وصناديد الجيش المملوكى ؟

لم تكن « شجرة الدر » ، تحمل فى يدها سيفا ولا رمحا . . ولا تقود من ورائها يشا يدفع بها إلى القمة بقوة القهر أو بحق الفتح . . ثم إنها لم تكن من سليلات يت الأيوبى ، حتى تطالب بوراثة العرش ، لم تكن تملك شيئًا من مسوغات التعيين هذا المنصب الرفيع . . فضلا عن كونها أنثى فى بلد مسلم يأبى حكم النساء . . كنها كانت تطوى جوانحها على إرادة حديدية تتواضع أمامها عزائم الرجال . . لك ذكاء خارقًا ، ودهاء فائقًا ، ومقدرة فذة على التدبير ، ومن يملك هذه سُلحة فى دنيا السياسة ، لم تكن به حاجة إلى تكديس السلاح أو تحريك يوش . . وفوق ذلك كانت تعرف كيف تتعامل مع هذا الصنف من الرجال لهم طامع فى العرش . . وكلهم يحمل فى قلبه بذرة الضعف أمام زهوة الحكم ريق السلطة . أما هى . . فكانت تتعفف وتتعزز وتتمنع . . فكانت بذلك أقوى هم أجمعين . . حتى جاءوا إليها طائعين يحملون إليها عرش مصر على طبق من ضة . . !!

من أين جاءت هذه الزهرة الوحشية . . ؟ كيف نبتت وترعرعت قبل أن تحتل ب سيدها ومولاها ، الملك الصالح نجم الدين أيوب ، آخر الملوك الأيوبيين فى صر ؟

إن مصادر التاريخ لا تقدم لنا معلومات دقيقة عن المراحل الأولى من حياة شجرة ر ، شأنها فى ذلك شأن كل الصعاليك الذين أصبحوا من المشاهير ، بعد أن تازوا صدر الشباب . . ومتى كان التاريخ يهتم بالحشائش الطفيلية التى تنبت ى حواف الترع وسفوح الجبال . . ؟!

وشجرة الدر ، واحدة من ملايين المشردين ، الذين هاموا على وجوههم فى لرقات هربا من زحف المغول ، فتداولتها أيدى النخاسين ، يبيعونها لمن يدفع فلا اد تستقر فى بلد ، حتى ينهار ويستسلم . فإلى أية شجرة إنسانية تنتسب الفتاة ؟ أحد يعرف ! فالبعض يقول إنها أرمنية . . والبعض يزعم أنها تركية . . وآخرون

يؤكدون أنها شركسية من القوقاز . . أما هى فلا تتكلم . . ولا تفصح عن ماضيها . . ولا تكشف عن شيء من حياتها الأولى . . كأنما تريد أن تضع على الماضى ستارًا كثيفًا . . وإزاء هذا الصمت المريب ، تطوع المؤرخون ـ أدام الله عزهم ـ فصنعوا لها تاريخًا مجيدًا ، واختلقوا شجرة عريقة الجذور ، ثم جعلوا منها ثمرة زكية لهذا المنبت الأصيل ، فزعموا أن أباها هو السلطان أزبك البهلوان ملك تبريز ـ من بلاد العجم ـ أما أمها فقالوا إنها الأميرة السلجوقية الشهيرة فاطمة خاتون .

ويبدو أن هذا « البهلوان » كان اسما على مسمى ، فلم يكد يسمع باقتراب المغول من مملكته ، حتى ترك الجمل بما حمل ، وتخلى عن شعبه وأسرته ، ومضى إلى معسكر الأعداء ذليلاً خائرًا يعمل فى ركابهم ، ويساعدهم على تدمير الممالك الإسلامية المجاورة ، فلما علمت فاطمة خاتون بجريمة زوجها ، أعلنت أنها طالق منه . وحملت طفلتها ، ورحلت إلى بلاط السلطان جلال الدين ، آخر ملوك خوارزم ، وطلبت منه أن يتزوجها ، وأخذت تشد أزره حتى يصمد أمام جحافل المغول ، ولكن الإعصار المغولى كان أقوى من الجميع ، فاكتسح مملكة خوارزم ، وفر جلال الدين ليلفظ أنفاسه فى جزيرة معزولة فى بحر قزوين ، ثم لحقت به فاطمة خاتون . أما الطفلة الصغيرة شجرة الدر ، فقد ضاعت فى زحام الحياة ، حتى التقطها النخاسون . وظلت الأيدى تتداولها ، إلى أن وقعت فى حوزة الأمير الأيوبى المصرى نجم الدين ، وكان يعيش يومئذ منفيا فى حصن « كيفا » ، على مشارف العراق . . ولما علمت أنها وضعت قدميها على عتبات العز والمجد ، لم تلبث أن صارت سيدة القصر وصاحبة الأمر والنهى . لقد دخلت قلب سيدها الأمير ، ولم تخرج منه حتى النفس الأخير الذى لفظه فى المنصورة . وما إن وارته التراب ، حتى جلست بعده على عرش مصر المحروسة ، وتقبل المصريون الأمر الواقع باستسلام وطواعية ، ولم تظهر عليهم بادرة تمرد أو سخط ، لأنهم كانوا قد فقدوا القدرة على التمرد والسخط منذ حكمهم الغرباء قبل ٢٥٠٠ سنة ، ولم يشعروا بالدهشة ، إذ تحكمهم جارية مجهولة الهوية . ولكن ـ بعد ٨٠ يوما من التسلط ـ أزيحت السلطانة عن العرش لأسباب خارجة عن إرادتها و إرادة الشعب المصرى .

فى الليلة الموعودة

كان من المستحيل أن تستقر شجرة الدر على عرش مصر لفترة طويلة ، بالرغم من تقبل المصريين لهذا الوضع الشاذ . . وبالرغم من رضاء زعماء المماليك ، الذين آلت إليهم مقاليد الأمور ، بعد خلع آخر سلاطين البيت الأيوبى الحاكم « توران شاه» ، وقتله فى فارسكور . . ولم يأت الرفض من جانب المحكومين . . ولا من جانب الحكام . . وإنما جاء من جانب الخلافة العباسية فى بغداد ، إذ أرسل الخليفة المستعصم رسالة تقريع وتأنيب إلى زعماء المماليك لأنهم ولوا عليهم امرأة . . وقال لهم إذا كان عنصر الرجال قد ندر عندكم ، فأبلغونا نرسل إليكم . . رجلا . . !!

وفعلت الرسالة فعلها ، واستجاب المماليك لتعليمات الخليفة بالرغم من أن الخلافة كانت فى مرحلة الأفول والاحتضار ، ذلك أن قادة المماليك ـ وهم عبيد مشترون بالمال ـ كانوا يشعرون فى أعماقهم بدناءة أصلهم ، وافتقارهم إلى سند شرعى يخول لهم حكم مصر ، ولم يكن سكوت المصريين عن استبدادهم بالأمر ، دليلا على الشرعية . . كذلك فإن الانتصار العظيم الذى حققوه على الصليبيين فى المنصورة ، لم يكن مبررًا كافيًا لاستيلائهم على شئون مصر .

وبعد مشاورات ومداولات للخروج من الورطة ، استقر رأى الحكام الجدد على تزويج السلطانة شجرة الدر من أحد أركان النظام الجديد ، « عز الدين أيبك » فيصبح للحكم واجهة « رجالى » ترضى غرور الخلافة وتحوز بركاتها . ومن ناحية أخرى ، يمكن الحفاظ على مكانة السيدة التى يرجع الفضل إليها فى انتقال السلطة من البيت الأيوبى إلى بنى جنسها المغامرين القادمين من فيافى القوقاز .

وقبلت شجرة الدر هذا الحل ، الذى يمكنها من الاستمرار فى حكم مصر من

تحت ذقن زوجها . وكان من الممكن أن تستمر اللعبة طويلاً ، لولا أن دخلها عنصر العاطفة النسوية ، وهو عنصر مدمر لا يقيم اعتبارًا لقواعد السياسة وأصول الحكم. فقد أقدم أيبك على خطوة جريئة ، حين تجرأ على الزواج بسيدة أخرى اسمها أم على . ..ولم تتخيل شجرة الدر ، التى ذاقت لذة الاستبداد والتفرد ، أن تصبح «ضرة» لامرأة أخرى تشاركها قلب زوجها ، واقتنعت بأن أيبك قد خرج على أصول اللعبة المتفق عليها ، فحق عليه العقاب . وفى الليلة الموعودة ، مضى المسكين إلى مخدع شجرة الدر ، حيث تقيم بالقلعة ، فاستقبلته وهى فى أبهى زينتها ، وأظهرت له من مفاتن أنوثتها ولواعج حبها ، ما لم يلمسه من قبل . فلما ذهب إلى الحمام وألقى بجسده فى المغطس ، تكالب عليه غلمان السلطانة ، وهم يشهرون بأيديهم القباقيب الخشبية ، وانهالوا على رأسه وهو يصيح بزوجته مستغيثا . . ضارعا . . ولكن صرخاته ذهبت أدراج الرياح . . ولم تجد ضراعاته صدى فى قلبها الذى قد من صخر الجبال .

وبعد أيام ، لقيت شجرة الدر حتفها ، بنفس السلاح الحقير الذى قتلت به زوجها ، على يد ضرتها الست أم على ، ثم ألقى الغلمان بجثمانها من فوق أسوار القلعة لتنهشه الكلاب والضوارى . . وبعد ثلاثة أيام ، تطوع بعض أهل الخير بجمع ما تبقى من رفاتها ، ودفنوه فى المسجد الفخم الذى أقامته لنفسها بالقرب من ضريح السيدة نفيسة . . وانتهت مأساة امرأة لم تفلح أبهة الملك وعظمة السلطان وزهوة الطغيان ، فى أن تنسيها أنها امرأة .

عنزة السيدة نفيسة

بات المجتمع المصرى ، خلال العصرين المملوكى والعثمانى ، نهبا للخرافات والخزعبلات ، والأساطير التى كانت عقول خبيثة تنسجها ، مستغلة سذاجة الناس وضحالة وعيهم ، ومستنزفة ما فى جيوبهم . وقد استيقظت القاهرة ، ذات صباح على قصة خرافية تزعم أن عنزة صعدت فوق مئذنة مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وأخذت تكلم الناس ، وتحضهم على فعل الخيرات ، وتحذرهم من ارتكاب الموبقات . وتطورت القصة ، بعد أن تناقلتها ألسنة العوام ، فأضافوا إليها بعض التوابل والمشهيات ، واكتملت لها عناصر الإثارة والتشويق ، واستقرت القصة فى الشارع المصرى ، على النحو التالى ، كما رواها الجبرتى .

كان بعض الجند المصريين ، قد وقعوا أسرى الحرب فى بلاد الفرنجة . وذات يوم ، اشتروا عنزة ليذبحوها فى مجلس الذكر الذى عقدوه ، قربانا إلى الله ، كى يفك أسرهم ويعيدهم إلى ديارهم ، ولكن الحارس القائم على أمرهم ، أبى عليهم ذلك واستولى على العنزة ومضى بها إلى بيته . فلما أوى إلى فراشه ، رأى فى منامه رؤيا مزعجة ، فأدرك على الفور أن العنزة مباركة ، فلما أشرق الصباح ، أعاد العنزة إلى الجند ، ثم أطلق سراحهم ، وزودهم ببعض المال كى يستعينوا به على الرحيل إلى بلادهم ، فاستقلوا مركبا إلى مصر ، ومعهم العنزة المباركة . فلما بلغوا القاهرة ، ذهبوا من فورهم إلى مسجد السيدة نفيسة ، وقضوا ليلتهم بجوار ضريحها . وفى الصباح وجدوا العنزة قد اعتلت المنارة ، وسمعوها تكلم الناس . وكان للمسجد خادم ذكى اسمه الشيخ عبد اللطيف ، أدرك الفائدة العظمى التى ستعود عليه من ترويج قصة العنزة ، فأشاع بين رواد المسجد أن السيدة نفيسة خاطبته من مقصورتها وأوصته

بالعنزة خيرا ، وذاعت الخرافة بين أهل القاهرة ، فتوافدوا على المسجد لرؤية العنزة والتبرك بها ، والتبرع لها بما تجود به أريحيتهم . وانفتح باب الرزق الرغيد أمام الشيخ عبد اللطيف ، فوضع تسعيرة محددة لكل درجة من درجات القرب من العنزة أدناها الرؤية المجردة ، وأعلاها المسح على جسمها ، والحصول على بركاتها وانهالت الهدايا والنذور على الشيخ عبد اللطيف ، فكان يخبرهم بأن العنزة لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، ولا تشرب إلا ماء الورد المحلى بالسكر المكرر . فيحمل الناس إليه أطنانا من هذا وذاك ، حتى تكدست لديه أكوام من أطايب الطعام والشراب . وبلغت القصة مسامع الأميرات وزوجات الكبراء والقادة ، فكن يتسابقن إلى صنع القلائد الذهبية والأقراط والأساور ، ويبعثن بها إلى الشيخ عبد اللطيف ، ليزين بها جسد العنزة المباركة .

* * *

وكان الأمير عبد الرحمن كتخدا ، من أشد الأمراء حزما وحسما ، وأكثرهم وعيا ورفضا لهذه الخزعبلات . فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يرجوه أن يتعطف بزيارته فى قصره ، وبصحبته العنزة ، حتى يتمكن أهل بيته من رؤيتها والتماس البركة منها . وسعد الشيخ عبد اللطيف ، بهذه الدعوة التى ستفتح أمامه قصور الأمراء والكبراء . . وحدد يوما لهذه الرحلة الميمونة ، فتجمع أرباب الطرق الصوفية فى موكب مهيب ، لمصاحبته من مسجد السيدة نفيسة إلى قصر الأمير كتخدا ، المجاور لمسجد أحمد بن طولون . وامتطى الشيخ عبد اللطيف بغلته ، وحمل العنزة فى حجره ، تحيط به الأعلام والبيارق ، وتتقدمه الطبول والزمور . . وتهادى الموكب عبر شوارع الصليبة وسوق السلاح ، والناس يتجمعون من كل أنحاء القاهرة لرؤية العنزة المباركة ، وهى تتربع فى دهشة من هذا الحشد الغريب ، ولا تدرى شيئًا مما يدور حولها ، حتى إذا بلغ الموكب باب القصر ، نهض الأمير هو وضيوفه من العظماء والوجهاء لاستقبال العنزة المباركة ، واستأذن الأمير فى أن تمضى العنزة إلى جناح الحريم ، فرحب الشيخ عبد اللطيف ، وأعطاه العنزة ، فحملها الخدم إلى المطبخ حيث انهالت عليها سكين الجزار ، فذبحتها وسلختها وتسابق الطباخون إلى سلقها وتحميرها ، بينما اتخذ الشيخ عبد اللطيف مكانه فى صدر المجلس ، يروى للأمراء مزيدًا من الخرافات عن كرامات العنزة .

وحان موعد الغداء ، فأمر كتخدا بمد السماط ، فدخل الخدم يحملون أطباق الفتة تعلوها هبر من اللحم الشهى . . وانهالت أيدى الأمير وضيوفه تنهش أطايب اللحم . . وبين الحين والحين كان الأمير يحث الشيخ عبد اللطيف على تناول المزيد من اللحم قائلا : كل ياشيخ عبد اللطيف هذه القطعة السمينة . . فيلتهمها الرجل ممتنا . . والأمراء من حوله يتغامزون ، ويكتمون ضحكاتهم ، حتى فرغوا من الطعام وشرب القهوة ، فنهض الشيخ عبد اللطيف مستأذنا فى الانصراف ومعه العنزة . فقال له الأمير عبد الرحمن . . أى عنزة تقصد ؟؟

فقال خادم المسجد : العنزة المباركة التى دخلت جناح الحريم !

فقال الأمير : العنزة لم تدخل جناح الحريم مطلقا . . ولكنها دخلت بطنك ياكاذب . . يافاجر . . ياأفاق . . وهذا دليل على ضلالك المبين .

* * *

وبهت الرجل ، من هول المفاجأة ، التى وقعت على رأسه كالصاعقة . . وحاول الإفلات بجلده . . ولكن الأمير أمسك بخناقه وأمر مماليكه بضربه ستين عصا على رجليه . . ثم أمر بجلد العنزة فطرحه على عمامته ، وطاف به الجند شوارع القاهرة ليكون عبرة لغيره من الأفاقين والنصابين الذين يحتالون على الناس بالأساطير التى تستغل عواطفهم الدينية . . والدين منها براء .

يا خفى الألطاف

فى الثانى والعشرين من أكتوبر ١٧٩٨ ، انطلقت أول قنبلة من المدافع الفرنسية المثبتة فى حصون القلعة . فسقطت فى صحن الأزهر ، وتناثرت شظاياها ، ففتكت بالجموع التى احتشدت فيه . ثم توالى سقوط القنابل ، حتى أوشكت جدران الجامع أن تتداعى على الأشلاء الممزقة والجثث المتراكمة . وكان وابل القنابل يتساقط من أعالى القلعة ، فيدمر الأحياء المجاورة للجامع العتيق ، ويحيلها ركاما ، وكان الأزهر فى حد ذاته هدفا مطلوبا ، فمنه انطلقت جذوة الثورة على الحملة الفرنسية . وإلى رحابه لجأ الثائرون . فأصبح بؤرة للوطنية المتأججة ، إلى جانب كونه معقلاً للعلم والدين .

وكانت القلعة ، منذ بناها صلاح الدين الأيوبى ، على التلال المشرفة على العاصمة ، حصنا عسكريا منيعا ، هدفه حماية القاهرة من تهديدات الغزو الصليبى على الحدود الشرقية ، وربطها بحزام من الأسوار والأبواب الضخمة التى لا تزال بقاياها قائمة عند بوابة الفتوح وبوابة المتولى وباب النصر وفم الخليج . . ولكن القلعة لم تستخدم أبدا فى تحقيق الهدف العسكرى الذى أنشئت من أجله ، ولم تفلح القلعة مرة واحدة فى صد الغزاة الذين توافدوا على مصر ، بدءًا بالجيش العثمانى ومرورا بالحملة الفرنسية ، وانتهاء بالقوات البريطانية التى زحفت على القاهرة بعد إخماد الثورة العرابية ، وهزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير . . !! فيم إذن فائدة القلعة ؟!

* * *

لقد استقر فى عرف المؤرخين الذين رصدوا تاريخ القلعة ، أنها لم تكن أكثر من

حصن منيع لحماية حكام مصر ، وقمع الشعب إذا فكر فى التمرد أوالعصيان . . فالقاهرة بحكم موقعها على رأس الصعيد وعند مفترق الدلتا ، هى مفتاح الحكم فى مصر ، من يملكها يملك مصر كلها . ومن يملك القلعة يملك القاهرة . وكانت الفجوة القائمة بين القلعة والقاهرة ، على اتساع الفجوة القائمة بين الحكام الغرباء والمحكومين المغلوبين على أمرهم . فالقلعة تقف فى عليائها وقفة الشموخ والتحدى . . بينما العاصمة ترقد فى سلامة وطمأنينة على ضفة النيل ، وبين أحضان الروابى الخضر التى تحيط بها . . تكد وتكدح ثم تنام ملء جفونها وحكامها لا ينامون . . عيونهم دائما مفتوحة على المجهول . . وترصد كل ما يجرى فى الأزقة والحوارى المكدسة تحسبًا لما يخبئه الغد .

ولقد أدت القلعة الغرض الحقيقى منها . . ووفرت عنصر الأمان لحكام مصر على تعاقب الأجيال . . منذ الأيوبيين والمماليك والعثمانيين حتى أبناء محمد على . . كلهم عاش فى حصونها . . واحتمى بقلاعها . . واستعلى على شعبها . . فلا يهبط إلى المدينة إلا مضطرًا . . وكان أول الهابطين هو الخديو إسماعيل ، بعد أن بنى قصر عابدين وجعله مقرا رسميا للحكم . أما نابليون ، فقد أدرك المهمة الحقيقية للقلعة فمنذ دخوله القاهرة ، بدأ فى ترميم أبراجها ، وتدعيم حصونها استعدادًا لليوم الموعود . .

* * *

ولقد أتى اليوم المرتقب ، عندما ثارت القاهرة على الفرنسيس ، فلم يتورع نابليون عن صب نيرانه الحامية على الجامع الأزهر وما جاوره من أحياء مكتظة بالأهالى . . يقول الجبرتى فى وصف هذه المذبحة : « فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه . نادوا ياسلام من هذه الآلام ، ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف . وهربوا من كل سوق ، ودخلوا فى الشقوق . وتتابع الرمى من القلعة والكيمان ، حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ونزل فى البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل . . وبعد هجعة من الليل ، دخل الفرنج المدينة كالسيل ، ومروا فى الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانعا . ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا

بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب ، وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواصيه ، وكل من صادفوه به عروه ، ومن ثيابه أخرجوه . . وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون ، وللنجاة بأنفسهم يطلبون ، وانتهكت حرمة تلك البقعة ، بعد أن كانت أشرف البقاع . وكثير من الناس ذبحوهم . وفى بحر النيل قذفوهم ، ومات فى هذين اليومين ، أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله » .

سنوات الحيرة

كانت السنوات الخمس ، التى تلت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، من أروع حلقات التاريخ المصرى كفاحًا ونضالاً وحركة وحيوية . . ولكنها تبقى ـ مع ذلك ـ أشد هذه الحلقات مدعاة للدهشة والحيرة . . كانت هذه السنوات بمثابة لحظة إشراق بعد ليل طويل حالك السواد ، وكان المتوقع أن يسفر الفجر الوليد عن حركة تحرير كبرى يتخلص فيها الشعب المصرى من أغلال النظام القديم ، ويتحرر من رق الترك والمماليك . . ولكن الثمرة الناضجة ، وضعت على طبق من الفضة وقدمها السيد عمر مكرم بالهناء والشفاء ، إلى الضابط الألبانى المغامر محمد على ليحكم مصر مع أبنائه وأحفاده قرنا ونصف قرن بالتمام والكمال . . وكأننا يابدر لا رحنا . . ولا جينا . . !

والأمر المؤكد ، أن المصريين أفادوا من الحملة الفرنسية ، برغم النكبات والكوارث التى سببتها لهم ، فالحملة التى ضمت كتيبة من العلماء ، وحملت مع المدفع المطبعة والصحيفة والمعمل ، تركت بصماتها على العقل المصرى . وتسامع المصريون بأفكار الثورة الفرنسية التى هزت عروش أوروبا ، وترددت بينهم أسماء فولتير وروسو ومونتسكيو ، وأضرابهم من آباء الفكر الليبرالى ودعاة الحرية والمساواة ، وحق الشعوب فى التمرد على الطغاة والمتجبرين . ولاشك أن المصريين شاهدوا ولمسوا وتأثروا بالنمط السياسى الجديد ، والتقاليد الجديدة التى جاء بها الفرنسيون . فلما غادروا مصر كانت الشراذم التركية والمملوكية تتهيأ لاستعادة مجدها الغابر . . كانت تمسك فى يدها الأغلال والأصفاد ، لتضعها فى عنق الشعب المصرى مرة أخرى ، ولم يكن من المعقول أن يتم لهم ما أرادوا بعد أن تجلى جبنهم وخورهم وتخاذلهم أمام الفرنسيين ، لقد هربوا جميعا من الساحة كالفئران المذعورة ، وتركوا المصريين وجها

لوجه أمام قدرهم . . وأثبت المصريون أنهم رجال ، من خلال الثورات والهبّات التى قاموا بها ضد الاحتلال الفرنسى ، ودفعوا ثمن الحرية بالدم والعرق والدموع . . أفليس من حقهم بعد ذلك أن يستمتعوا بالحرية . . ؟ أليس من حقهم أن يتطلعوا إلى عصر جديد ، تتحدد فيه العلاقة بين الحاكم والمحكومين على أسس جديدة ومفاهيم جديدة تختلف عن تلك التى كانت قائمة فى العصر الوسيط . . ؟

* ولكن أى تحرر كان المصريون يريدونه . . ؟

* وما هو مفهوم الحرية الذى ينشدون . . ؟

هذا هو السؤال الصعب الذى تحار فى فهمه العقول . . ولكى نكون منصفين مع آبائنا وأجدادنا ، ولكيلا نقسو فى أحكامنا عليهم ، يجب أن نضع فى اعتبارنا اختلاف المفاهيم بين عصرنا وعصرهم ، إذ من الخطأ الكبير أن نحكم على عصرهم بآراء عصرنا . . ومن الظلم والإجحاف أن نحاسبهم بتقاليد عصرنا ، التى تضع اعتبار الاستقلال الوطنى فوق كل اعتبار ، ولم تكن مثل هذه المفاهيم شائعة أو مطروقة فى زمانهم ، ولعل أوضح دليل ، هو تصرف الزعيم عمر مكرم الذى حمل لواء الثورة . . ولكنه انتهى بها إلى أحضان السيادة العثمانية ، وكان فى كل ما فعل منسجما مع أفكار عصره . . معبرًا عن آراء مواطنيه التى لا ترى الأمان إلا فى ظلال السلطان ، ولا تتصور الانفصال عنه .

وإذا كان الأستاذ الرافعى ، قد ارتفع بالشعور القومى المصرى فى ذلك العصر إلى مرتبة نظيره فى فرنسا ، وما أحدثه من ثورة استقلالية كبرى ، فإن الدكتور حسين مؤنس يحذرنا من الإسراف فى هذا التقدير ، لأن المصريين لم يكونوا يطلبون الحرية والاستقلال كما نفهمها الآن . ولم يكن عمر مكرم نفسه يفهم الحرية بأكثر من أنها رفع المظالم وتخفيض الضرائب .

ويرى الدكتور مؤنس أن عمر مكرم ، لم يكن فريدًا فى فهمه هذا . . بل كان مثله فيه ، كمثل كل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة من أهل البلاد ، فمهما بلغت مطامعهم ، لم يكن أحد منهم يفكر فى أن يتولى بنفسه حكومة البلاد . بل كان أقصى أمانيهم أن يتقربوا إلى أولى الأمر ، وأن يحظوا منهم بالعطف والرعاية ، وتلك

نتيجة طبيعية للوضع السياسى الذى وجد الشعب المصرى نفسه عليه ، فى ظل الحكومات التى توالت عليه من قديم الزمان ، إذ أضعف فيه ثقته بنفسه . وجعله يخشى المسئولية ولا يقتدر على أعباء الحكم ، فيكتفى بأن يَكِلَه إلى الأجانب ويتولى هو المعاونة والمساعدة ، وهذا ما فعله عمر مكرم . . فقد ترك الأمر طواعية لمحمد على ، وسلمه كل مقومات الحكم ، كأنه كان يشعر فى نفسه بأنه غير كفء له .

تحريم التجنيد

كيف سكت المصريون ـ وهم أبناء المجد القديم والحضارة العريقة ـ على استبداد المماليك بهم، وانفرادهم بالحكم دونهم ؟ وقد عرفنا أن المماليك كانوا صبية يباعون فى أسواق الرقيق ، فأكثر الحكام الأيوبيون من شرائهم ، وجعلوهم جنودا فى الجيش . فلم يلبثوا أن قوضوا عرش سادتهم ، وأصبحوا هم ملوك مصر وشكلت منهم أرستقراطية عسكرية تستأثر بخيرات البلاد ، ولا تترك لأصحابها غير الفتات . . !!

كيف تقبل المصريون هذا الوضع المهين واستسلموا له كأنه قدر لا فكاك منه ؟ هذا السؤال يجب أن يطرحه كل مصرى على نفسه ، ويبحث عن الجواب ، كى يتعلم أن التهاون فى أداء الواجب القومى لابد أن يؤدى إلى التسيب والانحلال وضياع الاستقلال ، وإهدار العزة الوطنية ، وليس أقدس من الدفاع عن الوطن واجبا تبذل من أجله المهج والأرواح ، فإذا تخلى أبناء البلاد عن هذا الواجب المقدس وحمله عنهم الغرباء ، فقد حق لهؤلاء أن يقبضوا ثمن عرقهم ، ومن يبذل الدم من حقه أن يجنى الشهد .

ولو تتبعت تاريخ العسكرية المصرية ، على مدى ألفى عام أو تزيد ، فسوف تكتشف أن عبء الدفاع عن البلاد ، قد انتقل من كاهل أبنائها إلى أيدى الأجناد الأجنبية : الإغريق والرومان والعرب والأكراد والمغاربة والسودان والترك والأرمن والشركس والبلغار . . إلخ . منهم كانت تتألف كتائب الجيش ، وفى المعارك التى تسمع عنها فى حطين والمنصورة وعين جالوت ومرج دابق والريدانية . . فاعلم أن المحاربين كانوا من خارج العائلة المصرية ، ولم يكن للمصريين فى هذه الملاحم غير المساندة المعنوية وخدمة الجيش .

من المسئول عن تجريد المصريين من السلاح وإبعادهم عن حقل التجنيد . . ؟ إن الجواب عن هذا السؤال سيجعلنا منصفين فى تقويم تاريخنا . . وحتى لا نسرف فى تعذيب أنفسنا ؛ فالواقع أن عملية إبعاد المصريين عن الجيش ، كانت عملية مدبرة حرص حكام مصر ـ وكلهم من الغرباء ـ على توارثها وتنفيذها بدقة . كانوا يخافون اليوم ، الذى يتخلى فيه الفلاح المصرى عن الفأس ويحمل السيف أو البندقية . كانوا على ثقة بأن أول عمل سيقوم به هذا الفلاح ، هو أن يستدير ليسدد فوهة بندقيته نحو صدور الذين أذلوه وأهانوه وسرقوا عرقه ، و « قطموا » وسطه من كثرة الضرائب . . « وهذا ما فعله أحمد عرابى » . لذلك لم يفكروا قط فى تجنيد المصريين ، وفضلوا عليهم المرتزقة والصعاليك والمغامرين . . ولك أن تتصور عمق الألم النفسى الذى كان ينتاب المواطن ، وهو يرى نفسه محروما من شرف الدفاع عن وطنه ، ويبقى حبيس الحقل والمعمل والورشة ، مثل ربات الخدور . . !!

* * *

ولك أن تقول : ولماذا لم يتطوع المصريون لأداء واجب الدفاع عن وطنهم دون انتظار للنفير . ؟ وأقول لك إن الانخراط فى سلك الجندية لم يكن تطوعيا ، ولكن كان يخضع لأنظمة وقيود لا يتصورها العقل الحديث ، وفى العصر المملوكى ، كانت العسكرية حرفة لها أصول وقواعد ، ونظم وطقوس ، يخضع لها الجندى من الحياة حتى المات . . وكان أول شروط الجندية ، أن يكون الجندى صبيا « مملوكا » دون الحادية عشرة . ومعنى ذلك حرمان المصريين الأحرار من التجنيد ، لأنهم يفتقدون شرط « العبودية » الذى فصله المماليك على مقاسهم . . حتى أبناء المماليك بعد أن يتحرروا من الرق ـ لم يكن من حقهم دخول الجيش ، وكانوا يسمون « أولاد الناس » ويمارسون أعمالا راقية خارج النطاق العسكرى .

إلى هذا الحد ضاقت سبل التجنيد أمام المصريين ، حتى فى الأوقات التى جفت فيها ينابيع المماليك والمرتزقة ، واحتاجت البلاد إلى سواعد بنيها ، لم يكن الحكام يجرءون على تجنيد المصريين ويبحثون عن البديل فى شتى الأسواق . ويحدثنا التاريخ عن ذلك الوالى العثمانى ـ واسمه أويس باشا ـ وقد فكر يوما فى تجنيد المصريين ، فلم يكن من الجنود الانكشارية إلا أن تآمروا عليه وقتلوه حتى يسدوا الباب أمام أى

حاكم يفكر فى الاستعانة بالفلاح المصرى . وكان معنى عزل المصريين عن الجيش عزلهم عن شئون الحكم . . وفى خلال عشرين قرنا ، لم يظهر حاكم مصرى واحد ! ! ألم يكن بين المصريين من يصلح ليجلس على عرش مصر ؟ !

إنه سؤال غريب حقا . . يحتاج إلى تفكير . .

كـذاب زفـة

قبيل مجيء الحملة الفرنسية ، كانت مصر تخضع لسيطرة زعيمين من شيوخ المنسر ، عكفا على مص دماء المصريين ، قطرة بعد قطرة حتى جفت عروقهم وذوى عودهم ، وانهد حيلهم ، وخربت ديارهم . وكان المصريون يتحملون هذا البلاء بحجة أن هؤلاء المماليك يحملون عنهم عبء الدفاع العسكرى ، ويذودون عن حياض الوطن ، ويردون عنه كيد المغيرين . . إلى آخر هذه الحجج الواهية التى يشيعها المؤرخون ، لتبرير عجز المصريين وسكوتهم عن الضيم والذل والعبودية .

كان هذان المملوكان الغاصبان ـ إبراهيم بك ومراد بك ـ يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء ، فهما أسدان جسوران على الشعب المصرى المسالم المستكين ، ولا يتورعان عن حرق القرى ، وتدمير المزروعات ، وهتك الأعراض ، وسبى النساء وسفك الدماء ، وتشريد الناس فى الفلوات ، من أجل حفنة ريالات . . ولكنهما كانا أرنبين هزيلين فى ساحة الوغى . . فما إن يبدأ وطيس القتال ، حتى يطلقا سيقانهما للريح ، تاركين المصريين العزل ، كالأيتام على مائدة اللئام . . فإذا زال الخطر ، وانقشع العدو . . عاد المماليك ليستأنفوا مظالمهم وجبروتهم ، بعد أن يقسموا بأغلظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولى . . والمؤسف أن المصريين كانوا يصدقونهم ، فيسلمون إليهم رقابهم مرة أخرى !!!

كان إبراهيم بك أكثرهما دهاء ومكرا ، ولذلك لم يورط نفسه فى معركة غير محسوبة . أما مراد بك فكان كما وصفه الجبرتى « يغلب على طبعه الخوف والجبن ، مع التهور والطيش والتورط فى الإقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر فى

حرب باشرها أبدا ، على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور» .

ولقد دلت جميع الأحداث ، على أن هذا الأمير المتسلط ، كان مغرورًا إلى حد البلاهة . . (همباكا) إلى درجة العبط . . (جعجاعا) فى تقدير بطولته وقدرته على سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه . فإذا حانت ساعة الجد ، واستشعر العين الحمراء فى خصمه ، ولى مدبرًا ولم يعقب ، ولا يكف عن الجرى حتى يطمئن على أنه لا يزال حيا . . ولذلك تشاءم المصريون ، عندما علموا أنه سوف يتصدى لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه على القاهرة قادمًا من الإسكندرية ، لأنهم كانوا يعرفون أن قائدهم (كذاب زفة) ، ولن يصمد طويلاً فى المعركة . . وكان مراد بك قد صرح قبل خروجه إلى المعمعة بأن الفرنسيين مثل حبات الفستق . . لا يصلحون إلا للكسر والأكل .

* * *

وصدق المصريون فى حدسهم . . وكانت معركة إمبابة مهزلة انكسرت لها نفوسهم وكرامتهم . . وكانت الجموع الغفيرة من أهل القاهرة تقف على ساحل بولاق خلف الجناح الآخر من فرسان المماليك بقيادة إبراهيم بك . . ووقف الجميع يرقبون تطور المعارك على الضفة الغربية للنيل ، وسجل مؤرخنا الجليل عبد الرحمن الجبرتى وقائع الهزيمة فى هذا التقرير الموجز :

فى يوم الجمعة ، التاسع والعشرين من شهر المحرم ١٢١٣ هـ ، التقى العسكر المصرى مع الفرنسيس ، فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه . ولم يقع قتال صحيح ، إنما هى مناوشة من طلائع العسكريين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين ، واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية وعلقت نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود فاشتعلت جميعها بالنار ، واحترق المركب بما فيه من المحاربين وتطايروا فى الهواء . فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزما ، وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره . ونزلت المشاة فى المراكب ، ورجعوا طالبين مصر . ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر ، فاشتد انزعاج

الناس ، وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق ، وحضر الباشا (الوالى العثمانى) والعلماء ورءوس الناس ، وأعملوا رأيهم فى هذا الحادث العظيم ، فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا . . وفى يوم الإثنين حضر مراد بك إلى بر إمبابة وشرع فى عمل المتاريس ، وأحضر المراكب الكبار والغلايين التى أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل إمبابة وشحنها بالعساكر والمدافع ، فصار البران الشرقى والغربى مملوءين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة . وفى يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق . وصعد السيد عمر أفندى مكرم إلى القلعة ، فأنزل منها بيرقا كبيرا ، سمته العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق ، وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى ، يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وأما مصر (القاهرة) فكانت خالية الطرق ، لا تجد بها أحدا سوى النساء والأطفال وضعفاء الرجال ، والأسواق مقفرة . وكثرت الإشاعات بقرب وصول الفرنسيس إلى مصر ، وتختلف الناس فى الجهة التى يقصدون المجيء منها ، وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم بالقتال ، قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء مصر . بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه، لا ينتقل عنه ، ينتظر ما يفعل بهم ، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل . وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو .

ولما كان يوم الجمعة ، وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود ، وأصبح السبت فوصلوا إلى أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين ولكن الأجناد (المماليك) متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى رئيسهم ، محتقرون شأن عدوهم . ولما كان وقت القائلة ، ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا ناحية بشتيل ، فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس ، فكروا عليهم بالخيول ، فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة . ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع . فلما سمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العامة والغوغاء بالصياح : يارب ، ويالطيف ، ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم

وجليتهم . فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ، ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب ، وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح .

أما طابور الفرنسيس الذى تقدم لقتال مراد بك ، فقد انقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب ، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطًا بالعسكر وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح ، وانعقد الغبار ، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح ، وصُمّت الأسماع من توالى الضرب ، بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسمـاء سقطت ، واستمر الحرب والقتـال نحو ثلاثة أرباع ساعة ثم كانت الهزيمة على المعسكر الغربى (جيش مراد بك) فغرق الكثير من الخيالة فى البحر (النيل) ، والبعض وقع أسيرًا فى أيدى الفرنسيس ، وملكوا المتاريس ، وفر مراد بك ومن معه إلى الجيزة ، فصعد إلى قصره ، وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع ساعة ، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية (الصعيد) ، وبقيت القتلى والثياب والأسلحة ملقاة على أرض إمبابة تحت الأرجل . . » .

هذا هو كذاب الزفة الذى فر كالفأر المذعور ، أمام جحافل الفرنسيس ، بينما كان يمارس دور الغضنفر على الشعب المغلوب على أمره .

الشـيخ نابليـون

لم تكن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ، عام ١٧٩٨ م ، تحمل الصبغة الصليبية التى كانت للحملات السابقة التى اجتاحت الشرق الإسلامى ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . بل يمكن وصف حملة نابليون ، بأنها كانت (لا دينية) ، إذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع ، الذى قاد الحملة الصليبية السابعة ، واحتل دمياط ، ثم أسره المصريون فى المنصورة عام ١٢٥٠ م ، وبعدها رفعته الكنيسة إلى مرتبة القديسين ، مكافأة له على نضاله المستميت ضد العالم الإسلامى . وكانت الظروف الدينية والمنطلقات العدائية التى تحركت منها الحملات القديمة ، تختلف عن الظروف السياسية والتقلبات الأوروبية ، التى كانت وراء حملة بونابرت .

لقد جاء نابليون إلى مصر ، باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين ، والتى ثارت فى وجه الكنيسة ورجالها ، بنفس العنف الذى واجهت به طبقة النبلاء والإقطاع . بل لم تتورع جيوش الثورة عن مهـاجمة البابا ـ رأس الكنيسة الكاثوليكية فى عقر داره ، واغتصاب أجزاء من ممتلكاته ، لإقامة أول جمهورية حديثة فى الأراضى الإيطالية على مبادئ الثورة . وظن نابليون أن رصيده العدائى للكنيسة ورجالها سيكون مدخلا إلى قلوب المصريين ، وكسب ولائهم . وشراء سكوتهم على احتلال أراضيهم . وحرص نابليون ـ وهو يخاطب المصريين ، ويلعب بعواطفهم الدينية على أن يبدو أمامهم فى صورة المنتقم الجبار ، الذى قام بتخريب كرسى البابوية وإهانة صاحبه « الذى كان يحض النصارى على محاربة المسلمين . . » ، ظنا منه بأن ذلك يرضى المصريين ، ثم يمضى نابليون فى استخفافه بعقولهم فيقول لهم إن

الفرنسيين مسلمون مخلصون وإنه شخصيا يعبد الله سبحانه وتعالى ويحترم نبيه والقرآن العظيم . . !!

ونحن نعلم الظروف الداخلية ، التى دفعت بحكومة الإدارة فى فرنسا ، إلى إيفاد نابليون إلى مصر على رأس حملته المشهورة ، كوسيلة عملية لإبعاده عن مسرح الأحداث بعد أن بدأ نجمه فى الصعود ، وأصبح فارس الحلبة المرشح لاعتلاء عرش الدماء ، بعد أن أكلت الصراعات الدموية وحملات التصفية الإرهابية قادة الثورة الأوائل . وكان نابليون ـ المغامر الطموح ـ يعلم أن الثمرة لم تنضج تماما لتسقط فى حجره سهلة سائغة ، ومن ثم قبل التكليف استجابة لأمر حكومة الإدارة فى الظاهر وتلبية لنداء غامض كان يهتف فى باطنه لإقامة إمبراطورية شرقية المظهر أوربية الجوهر ، على غرار الإمبراطورية الهلينية العظمى التى أقامها الإسكندر الأكبر على أساس التعاليم الفلسفية التى خلفها آباء الفكر الإغريقى .

جاء المغامر الكورسيكى إلى مصر ، وهو يحمل فى صدره طموحات هائلة وآمالا عريضة ، فى بناء دولة كبرى تتنفس سحر الشرق وعبقه ، وتنبض بتعاليم الثورة الفرنسية . ولم يكن هناك ـ غير مصر ـ بموقعها الفريد بين القارات الثلاث ، تصلح لتحقيق الدولة الحلم ، والانطلاق منها إلى الهند ليحطم كبرياء الإمبراطورية البريطانية ، التى استعصت عليه فى مكمنها المنعزل فى الجزر . . فلا بأس من أن يصيبها فى درتها الغالية . . الهند .

وكانت غاية آمال نابليون ، أن يتم له الاستيلاء على مصر فى صمت وهدوء ودون اللجوء إلى ارتكاب فظائع دموية تفسد العلاقات الودية المرجوة بينه وبين الشعب المصرى . فكان حريصا على كسب عواطف المصريين ، والادعاء بأنه مسلم غيور ، فيحضر احتفالاتهم الدينية ، ويرتدى الجبة والقفطان والعمامة ، ويتزلف إلى علمائهم ، وقد تعجب إذا قرأت المنشور الأول الذى وزعه على أهل مصر واستفتحه (باسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ولا شريك فى ملكه) . . «ويأيها المصريون قد قيل لكم إننى ما نزلت أرضكم إلا بقصد إزالة دينكم . . فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإننى أكثر من المماليك ، أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم

نبيه والقرآن العظيم . . ويأيها العلماء والفضلاء والمشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين » . . وفي ختام منشوره يعلن بونابرت إلى المشايخ والعلماء « أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل واحد من أهالى البلد أن يبقى في مسكنه، مطمئنًا ، وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغى عليهم أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال : أدام الله إجلال السلطان العثماني . . أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى . . لعن الله المماليك . . وأصلح حال الأمة المصرية » .

فهل أتى هذا المنشور البليغ ثمرته ؟ وهل أفلح في إقناع المصريين بوداعة نابليون وحبه للإسلام ؟ إن مجرى الأحداث يكشف لنا في صراحة ووضوح ، عن عدم قبول الشعب المصري لكل الادعاءات الكاذبة ، التي حاول نابليون عن طريقها ، أن يضحك على عقول المصريين . وجاءت الثورتان ، اللتان قام بهما المصريون ، أصدق دليل على رفضهم للوجود الفرنسي ، وعدم تصديقهم لمزاعم نابليون بأن الفرنسيس (يحبون المسلمين) . ويعبر مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أصدق تعبير عن تشكك المصريين في الأفكار والوعود التي أذاعها بونابرت بالرغم من تملقه للإسلام وطعنه في الكنيسة الكاثوليكية والتطاول على رئيسها . ويعزو المؤرخ الكبير صلاح العقاد الرفض المصري ، إلى أن القضية في نظر المصريين لم تكن مجرد موقف ديني أو لا ديني . . بل إن الاختلاف في التراث الحضاري والعادات والتقاليد جعل من المستحيل على المصريين أن يصدقوا دجل نابليون . . والحجة التي احتج بها ، بأنه حارب البابا وأطاح بهيبة الكنيسة . . ما كان من شأنها أن تؤثر في مجتمع متدين كالمجتمع المصري ، يفضل لنابليون أن يكون منتميا إلى دين . . وليس خارجا على الدين .

ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط ، الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدى كذبه . . وكانوا يسخرون

منه ، وهو عاكف على ظهر الأسطول ، يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلى المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية . وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحرى (جوبير) إلى وزير بحرية فرنسا والتى يقول فيها : لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرءون هذا المنشور الإسلامى الذى وضعه قائدنا الأعلى . . ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور . .

بل إن نابليون نفسه ، اعترف فى أخريات أيامه ، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل . . (ولكنه دجل من أعلى طراز) . . وعندما كان يجتر ذكرياته ، وهو سجين فى سانت هيلانة ، اعترف لأحد أخصائه بما فعل ، وبرر سلوكه بأن « على الإنسان أن يصطنع الدجل فى هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلى النجاح » .

وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب . . ولا يدركون الحقيقة ، إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمدا .

عمدة الإسكندرية

قبل ٢٤ ساعة ، من وصول نابليون بونابرت إلى مياه الإسكندرية ، كان الأسطول الإنجليزى بقيادة الأميرال نيلسون ، قد وقف قبالة الساحل السكندرى ، يتحسس أخبار الأسطول الفرنسى الذى غادر بلاده تحت جنح الظلام إلى جهة غير معلومة وكانت البوارج الإنجليزية قد خرجت تتعقب غريمها اللدود ، لتغرقه فى مياه البحر الأبيض المتوسط . وكان مشهد المطاردة يبلغ فى بعض الأوقات درجة الإثارة ، عندما كانت المسافة بين الأسطولين لا تتجاوز مدى البصر ، وشاء القدر للأسطول الفرنسى ، أن يفلت من المطاردة فى عرض البحر لتكون نهايته المأساوية فى خليج أبى قير .

وكانت أنباء الحملة الفرنسية ، قد وصلت إلى الإسكندرية عن طريق بعض القباطنة ، الذين شاهدوا مراكب نابليون فى مالطة ، وعلموا من بحارتها أن محطتهم الأخيرة فى الإسكندرية . . عندئذ ثارت خواطر أهل الثغر ، وبدءوا يستعدون لملاقاة الفرنجة وينفضون عن أنفسهم غبار الكسل الذى تراكم عليهم سنوات طويلة صدئت خلالها بنادقهم ، وشاخت مدافعهم ، وتهدمت الطوابى والأسوار من طول الرقاد .

وبهذه الروح المتوترة ، استقبل السيد محمد كريم عمدة الإسكندرية ، وفد الأسطول الإنجليزى الذى هبط إلى الساحل ليحذر أهلها من مداهمة نابليون لهم وعرض على العمدة أن يسمح لهم بالبقاء فى البحر للدفاع عن المدينة ، على أن يبيع لهم الماء والزاد بثمنه ، ولكن العمدة الغيور رفض العرض ، وقال للإنجليز : هذه بلاد السلطان . . ولن نسمح للفرنسيين ولا لغيرهم باحتلالها .

ولم يشأ الإنجليز أن يطول الجدل بينهم وبين حاكم الإسكندرية ، فقد كان همهم

الأكبر تعقب أسطول نابليون ، فغادروا المياه المصرية فى اتجاه السواحل الفلسطينية يوم ٢٩ يونية ١٧٩٨ ، وفى اليوم التالى مباشرة ، كانت السفن الفرنسية تحط رجالها فى مياه الإسكندرية ، واقتربت إحدى السفن من الشاطئ ، لتحمل قنصل فرنسا الذى أبلغ نابليون بما كان من أمر الأسطول الإنجليزى مع عمدة الإسكندرية ، وقدم إليه تقريرًا عن حالة الهياج التى عمت الأهالى منذ علموا باقتراب الحملة الفرنسية وكيف إن أهل المدينة والعربان يحملون السلاح دفاعًا عنها . . وسارع السيد محمد كريم إلى إبلاغ حاكمى القاهرة ـ مراد بك وإبراهيم بك ـ بنبأ القوات الفرنسية التى نزلت على الساحل فى اتجاه العجمى ، طالبا أقصى ما يمكن من النجدة لمواجهة الأعداء ، ولكن الأمراء المماليك ، الذين بعد العهد بينهم وبين المعارك ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، ولم يردوا على استغاثات حاكم الإسكندرية وتركوه مع أهلها يواجهون البوارج والمدافع الحديثة بأسلحة هزيلة ، وضرب أهل الثغر أروع أمثلة البطولة ، وهم يحاربون الغزاة من بيت لبيت ، حتى أذلوا كبرياء العسكرية الأوربية الصاعدة ، وبلغت المقاومة الوطنية عنفوانها ، عندما حاول نابليون أن يقتحم شوارع المدينة ، فأصابته رصاصة قاتلة أفلت منها بأعجوبة ، فلجأ إلى حارة ضيقة لا تكاد تتسع لشخصين يمران جنبا لجنب ، وكان يرافقه سكرتيره (بوريين) الذى يصف هذا المشهد العصيب قائلاً : وانهالت علينا طلقات الرصاص من إحدى نوافذ البيوت ، فتقدم الحرس ، واقتحموا البيت ، فوجدوا رجلا وامرأة قابعين خلف النافذة وهما مستمران فى إطلاق النار ، فقتلهما الحرس .

أما عمدة المدينة السيد محمد كريم ، فقد ظل معتصما بقلعة قايتباى على رأس فريق من المقاتلين الشجعان حتى كلت قواهم ، ونفدت ذخيرتهم ، ورأى العمدة أن المقاومة أصبحت غير مجدية ، فكف عن القتال وسلم القلعة ، فكانت بسالته مثار إعجاب نابليون ، فتلقاه لقاء كريما ، وأبقاه فى منصبه حاكما على الإسكندرية ، على أمل أن يتعاون مع قوات الاحتلال ، ولكن آماله فيه خابت ، بعد أن رفض إرغام أهل الثغر على دفع قرض إجبارى لسلطات الاحتلال ، فأسرها الجنرال كليبر ـ حاكم الثغر العسكرى ـ فى نفسه ، وانتهز فرصة قيام أهالى البحيرة بصد كتيبة فرنسية واتهم السيد محمد كريم بتحريضهم ، ثم ألقى القبض عليه وأودعه سفينة القيادة (لوريان) ، وبعث إلى نابليون فى القاهرة يخبره بما فعل ، فبارك نابليون تصرف كليبر

خصوصا وقد عثر فى قصر مراد بك ـ المملوك الهارب ـ على الرسائل التى كان حاكم الإسكندرية قد كتبها ليستنهض همم الحكام على صد الفرنسيين ، وطلب منه أن يرسل إليه الرجل مقيدًا فى أغلاله ، وغادر محمد كريم سفينة الأسطول فى مركب صغير أقله إلى رشيد ومنها إلى القاهرة ، وفى اليوم التالى مباشرة ، غرق الأسطول الفرنسى فى مياه أبى قير بفعل الحمم التى صبها عليه أسطول نيلسون ، وكأنما شاء القدر لحاكم الإسكندرية ، أن يفلت من مذبحة الأسطول ، ليلقى مصيره فى مذبحة أخرى أعدها له نابليون ، عقابا له على شجاعته وصلابته ورفضه التعاون مع الاحتلال .

وأعدت للبطل محمد كريم محاكمة صورية ، انتهت بصدور الحكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص ، وصدق نابليون على الحكم ، ولكنه كتب له تذييلا قال فيه : يمكن للرجل أن يفتدى نفسه ، إذا دفع مبلغ ثلاثين ألف ريال خلال أربع وعشرين ساعة . . (!) مما يكشف عن حالة الإفلاس التى اعترت الحملة الفرنسية بعد غرق الأسطول ، ودفعت نابليون إلى البحث عن المال بأى ثمن وبأى وسيلة . وكان المشاع عن السيد محمد كريم ، أنه يختزن ثروة طائلة من الذهب فى صفائح مدفونة تحت الأرض ، وظن نابليون أن الرجل سيهرع إلى شراء حياته بالذهب . . ولكن خاب فأله . . وأظهر السيد محمد كريم تعففا عن المساومة على حياته ، وأظهر جلدا وشجاعة عندما سمع الحكم عليه بالإعدام . ويروى المسيو (بوريين) الذى شهد المحاكمة أن المستشرق الفرنسى (فانتور) الذى تولى الترجمة . . نصح محمد كريم بأن يفتدى حياته بدفع الغرامة ، فما كان من الرجل إلا أن قال قولا يكشف عن عمق إيمانه : « إذا كان مقدورا على أن أموت ، فلن يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ . . وإذا كان مقدورًا لى الحياة فعلام أدفعه ؟! » وظل الرجل على إصراره إلى أن نفذ فيه الإعدام رميا بالرصاص فى ميدان الرميلة يوم ٦ سبتمبر ١٧٩٨ .

وقد روى الجبرتى رواية غريبة ، عن السيد محمد كريم ، فقال إنه بعد سماعه الحكم ، أرسل إلى المشايخ والتجار ، فحضر إليه بعضهم فترجاهم واستغاث بهم لكى يجمعوا له الفدية ، وصار يقول : « اشترونى يامسلمين ، ولكنهم لم يغيثوه فقد كان كل إنسان مشغولا بنفسه » .

ورواية الجبرتى عن مسلك السيد محمد كريم ، تختلف عن رواية المؤرخين الفرنسيين التى يرجحها الرافعى على رواية الجبرتى ، لأن رواية الجبرتى لو كانت صحيحة لما فات الفرنسيين أن يذكروها ، ولما ذكروا رواية تشرف خصما لهم حكموا بإعدامه . هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فإن رواية (بوريين) رواية شاهد عيان ، ولم يكن الجبرتى شاهدا لهذه المحاكمة ، بل يغلب على الظن أنه كان منزويا فى بيته بالصنادقية فى ذلك اليوم العصيب .

الشـيخ صـادومـة

عاش المجتمع المصرى ، أواخر العصر العثمانى المملوكى ، أسوأ فترات حياته الثقافية والعقلية ، فقد انحطت الأخلاق ، واندثرت العلوم ، وفشا الجهل ، وسادت الخرافات والخزعبلات ، وخيم الركود على العقول والأفهام ، وفقد العلماء روح الابتكار والتجديد ؛ وتجمدوا فى إطار التقليد والنقل عن الأسلاف ، وانطفأت الجذوة الخلاقة التى دفعت المسلمين الأوائل إلى ارتياد آفاق العلوم واكتشاف أسرار الكون . واقتصر الإنتاج العقلى على القشور ، والإغراق فى التنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر والشعوذة . حدث هذا فى الوقت الذى قطعت فيه الشعوب الأوربية شوطا بعيد فى مجال الصحوة العقلية والثقافية والعلمية ، منذ عصر النهضة الإيطالية، فى القرن الخامس عشر إلى عصر الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر . وشهدت هذه القرون الأربعة حركة إحياء الحضارة الإنسانية العالمية بقدر ما كانت ديجورا حالكا للشعوب الشرقية ، فعاشت بمعزل عن تيار النهضة ، حتى فاجأتهم حملة نابليون وهم رقود ، فأيقظتهم من سباتهم ، ونقلتهم من ظلام العصور الوسطى إلى عتبات العصر الحديث .

وكان حظ المصريين من ركام الجهل والتخلف . . فادحا . فقد سيطرت عليهم عصبة من الأفاقين والمشعوذين ، راحوا ينفثون سمومهم ويتحكمون فى مصيرهم عن طريق الخرافات . والشعب يبتلع هذه السموم ويصدقها ، ويظنها من الدين بعد أن فقد القدرة على التمييز بين الحق والضلال . وحدث أن أشاع هؤلاء المبطلون أنهم توصلوا ، عن طريق التنجيم ، إلى معرفة موعد قيام القيامة . وبلغ من فجورهم أن حددوا موعدها « بعد يومين » وصدق الناس الفرية ، وأخذوا يتهيئون لاستقبال

القيامة حسب مواقفهم الخلقية ، فالصالحون منهم انكبوا على العبادة والتوبة والابتهال ، والفاسقون انغمسوا فى العبث والمجون ، ليستمتعوا بالساعات القليلة المتبقية لهم فى هذه الدنيا الفانية . . فلما مر الموعد المحدد دون أن يتحقق زيفهم راحوا يزعمون أن كبار الأولياء تشفعوا عند الله ليؤجل القيامة . . وقبل الله شفاعتهم . . !!

ويحكى الجبرتى هذه الواقعة تحت عنوان (من الحوادث الغريبة) : ففى يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة عام ١١٤٧) ، أشيع فى الناس بمصر ، أن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشر ذى الحجة ، وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضا . ويقول الإنسان لرفيقه : بقى من عمرنا يومان ، وخرج الكثير من الناس والمخاليع إلى الغيطان والمتنزهات . ويقول بعضهم لبعض : دعونا نعمل حظا ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة ، وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا . . وصاروا يغتسلون فى البحر (النيل) . ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم . ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلى واعتقدوا ذلك ، ووقع صدقه فى نفوسهم ، ومن قال خلاف ذلك أو قال : هذا كذب ! لا يلتفتون لقوله ، ويقولون : هذا صحيح . . وقاله فلان اليهودى وفلان القبطى ، وهما يعرفان فى الجفور والزايرجات (التنجيم) ولا يكذبان فى شىء يقولانه ، وقد أخبر فلان منهما على خروج الريح الذى خرج فى يوم كذا ، وفلان ذهب إلى الأمير الفلانى وأخبره بذلك ، وقال له احبسنى إلى يوم الجمعة ، وإن لم تقم القيامة فاقتلنى ، ونحو ذلك من وساوسهم ، وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المعين المذكور ، فلم يقع شىء ، وأصبح يوم السبت ، فانتقلوا يقولون : فلان العالم قال : إن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم ، فيقول الآخر : اللهم انفعنا بهم ، فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا . . وشارعون نعمل حظا . . ونحو ذلك من الهذيانات . .

* * *

ولم يرد اسما البدوى والدسوقى فى هذه الخرافة عفوا . . وإنما جاءا بقصد التلاعب بعقول الناس وعواطفهم ، وإيهامهم بسطوة الأولياء وقدرتهم على التحكم

فى مصير الكون والتدخل لتأجيل القيامة !! فما بالك بمصائر الغلابة من بنى البشر الذين يتطلعون فى كل لحظة إلى قوة قاهرة تخلصهم من الضنك والفاقة وجور النظام الحاكم . وكانت خيوط هذه القوة المزعومة فى أيدى الأفاقين من أدعياء التصوف الذين لبسوا المسوح والخرق ، وتظاهروا بالتقشف والزهد وساروا فى الأسواق يهذون بعبارات غامضة ، يعجز العقل السليم عن فهمها ، ويزعمون أنها من الأسرار الخاصة بأهل الوجد والوصول . وفى هذا المناخ المسموم راجت البدع والأباطيل تحت اسم الكرامات ، فلا يمر يوم دون أن يسمع أهل القاهرة عن ولى طار بلا جناحين أو شيخ طاف حول العالم فى غمضة عين . وبلغ من سفه هؤلاء المشعوذين أنهم نسبوا إلى بعض الأولياء أنهم يطلعون على اللوح المحفوظ ، ويحكى الجبرتى عن أحدهم وهو الشيخ محمود الكردى الخلوتى أنه « كان كثير المرأى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قل ما تمر به ليلة إلا ويراه فيها ، وكثيرًا ما يرى رب العزة فى المنام ، ورآه مرة يقول له : يامحمود إنى أحبك وأحب من يحبك ، فكان رضى الله عنه يقول : « من أحبنى دخل الجنة » .

وإذا كان الجبرتى ، العالم المتدين الذى ولد فى أحضان التصوف ، يبدو مباركا ومصدقا لكرامات الأولياء ، إلا أنه اتخذ موقف الاستنكار للمنحرفين الذين تاجروا بالتصوف ، وخرجوا به من دائرة السلوك القويم إلى مجال الدروشة والعبث والمجون وقدم لنا صورا وصفية ساخرة لهؤلاء البهلوانات الذين كانوا يسيرون فى شوارع القاهرة، وهم عرايا وخلفهم جموع من الصبية والحرافيش والزعر ، وهم يحاولون الاقتداء بحركاتهم من حيث انتزاع الملابس و « التحنجل » فى المشى ، والهذيان بفاحش القول . والمؤسف أن هؤلاء الأدعياء نجحوا فى السيطرة على عقول العوام بل إن تأثيرهم امتد إلى بعض العلماء .

ويقدم لنا الجبرتى نموذجا لهؤلاء المفسدين ، ممثلا فى الشيخ أحمد صادومة «وكان رجلا مسنا ذا شيبة وهيبة ، وأصله من سمنود ، وله شهرة عظيمة ، وباع طويل فى الروحانيات وتحريك الجمادات وكشف الحجب ومخاطبة الجن مشافهة ويظهر لهم بالعيان » . وكان من أكبر أتباعه الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى إفتاء الشافعية ، فأخذ يزعم أن الشيخ صادومة من الأولياء وأرباب الأحوال

والمكاشفات . . وراح يروج له عند الأمراء والحكام . . ومع ذلك جاءت نهاية الشيخ صادومة على يد أحد هؤلاء الأمراء . . وهو الأمير يوسف بك الكبير . فقد كان من أشد الناقمين على أصحاب البدع والأباطيل ، وحدث أن اختلى هذا الأمير بإحدى جواريه ، فاكتشف وجود كتابة على مكمن العفة من جسمها ، فأصابه الذهول فلما سألها عن ذلك وهددها بالقتل . . . اعترفت له بأن إحدى السيدات ذهبت بها إلى الشيخ صادومة ، فكتب لها هذه الكلمات ليحببها إلى سيدها !! فما كان من الأمير إلا أن ارتدى ملابسه ، وهو يشتعل غيظًا ، ومضى من فوره إلى بيت الشيخ صادومة ، وما زال يضربه حتى مات . . ثم أخذ فى تفتيش منزله وأخرج منه أدوات السحر والدجل ، ومن بينها تماثيل مخزية ، وهو يصيح فى الناس الذين تجمعوا . . ويقول لهم : انظروا أفاعيل المشايخ . . !!

مؤرخ الشعب

لم يكن عبد الرحمن الجبرتى مؤرخا حكوميًا ، يكتب ما يرضى الحاكم ، ولكنه كان مؤرخا شعبيا من الطراز الأول ، يسجل ما يراه فى أمانة ودقة ، دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفا من سخطها ، ومثل هذا المسلك الأخلاقى ، لم يكن مما يعجب الحكام ، لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له ، أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات ، ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجدا ، ومن سوءاته عزا . . فإن لم يفعلوا ، سخط عليهم وعصف بهم . . وهذا ما فعله محمد على الكبير ، عندما نمى إلى علمه ما كتبه الجبرتى عنه ، فى صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدى الناس فلم يرحم شيخوخته . . وأوعز إلى أعوانه فاغتالوا ابنه (خليل) أثناء سيره فى شارع شبرا ، وارتاع الرجل وهو يتلقى جثمان ابنه الصريع . . وفهم بذكائه دوافع الجريمة فامتلأت نفسه هما وكمدا ، وظل البقية الباقية من أيامه ، يبكى ابنه حتى أبيضت عيناه من الحزن ، فكف بصره ، كما كفت يده عن الكتابة ، إلى أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزينًا مكلوما عام ١٨٢٥ .

لقد عاصر الجبرتى صعود نجم محمد على خطوة بخطوة . . رآه جنديا مغمورًا يغشى مجالس العلماء . . يتملق مشايخ الأزهر ويصانعهم . . ويتظاهر بالتقوى والورع . . ثم يتقرب من زعيم شعب القاهرة ، الطيب العفيف ، عمر مكرم . . ويقسم أمامه بأغلظ الإيمان أن يكون العادل الشفوق إذا آل إليه أمر مصر ، ثم رآه وهو يتلقى الأمانة من أربابها ، ويتربع على عرش البلاد بإرادة أبنائها ومشايخها وأولى الأمر فيها ، ثم رآه مرة ثالثة ، وهو يتنكر لأيمانه وعهوده ومواثيقه ، ويتحول من حمل وديع ، إلى نمر هصور يبطش بكل الذين أعانوه ، فأمر بنفى عمر مكرم إلى دمياط

وأوعز بقتل حجاج الخضرى الزعيم الشعبى ، الذى قاد شعب القاهرة ليهتف باسم محمد على فى القلعة ، حتى خلصت له مصر من دون الآخرين . ثم رآه مرة رابعة وقد أصبح الحاكم الفرد الذى لا ينازعه فى سلطانه أحد ، ولا يشاركه فى حكمه مشارك ، وباتت مصر المحروسة ضيعة خاصة يتصرف فى شئونها تصرف المالك فى ملكه !

* ماذا يفعل المؤرخ الأمين ، وهو يرى هذه التحولات الجسيمة تتلاحق أمام ناظريه فى سرعة مذهلة ؟ ماذا يفعل وهو يرى آماله فى « العدل » قد تحطمت على يد هذا الجندى الألبانى المغامر ؟ هل كان عليه أن ينافق ويداهن ويساير الحكم الجديد، كما فعل المنافقون والأفاقون وخدام السلطة ؟!

لم يكن الجبرتى يستطيع أن يسلك هذا المسلك المشين ، فى مسايرة الطغاة ، لأنه يتعارض مع خلقه أولا . . ويتعارض ثانيا مع منهجه فى كتابة التاريخ . وقد أعلن منذ السطور الأولى فى كتابه (عجائب الآثار) ، أنه لم يقصد بكتاباته خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير . . « ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسانى أو غرض جسمانى » . . ولذلك تصدى الجبرتى لكل تصرفات محمد على غير هياب . . ينقده ويدمغه ، ويصدر عليه أحكامه من منطلق إيمانه بفكرة « العدل » ، كما جاء بها الإسلام ، وبمعناها العريض الذى يتسع ليشمل «حدود الله » التى تحرم الجور والظلم والاعتداء على حرمات الأنفس والأموال والأعراض .

* * *

لقد ساء الجبرتى أن يرى محمد على ، وقد تملكته نزعة الشره إلى الأموال فيصادرها دون سند من الشريعة ، ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل ، حتى لو تطلب الأمر شراء المحاصيل من الفلاحين بأسعار زهيدة ، وفرضها على الناس بأسعار باهظة ، وساء الجبرتى أن يرى الحاكم الجديد ، ينهج نهج كل جبار طاغية فى كره النقد ، وإبعاد النصحاء الصادقين ، وتقريب المتزلفين المنافقين ، وإسناد الوظائف الرئيسة إلى شذاذ الآفاق من الغرباء الذين تكالبوا على فتات مائدته . . انظر إليه ، وهو يصف محمد على فى جرأة محمودة فيقول : إن ولى الأمر اعتدى على

مساتير الناس ، وأغلق البيوت المفتوحة ، لأن فى طبعه داء الحقد والشره والطمع والتطلع إلى ما فى أيدى الناس وأرزاقهم ، ولم يكن له من الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته ، فى تحصيل المال والمكاسب ، وقطع أرزاق المسترزقين ، والحجر والاحتكار لجميع الأسباب .

ويتحدث الجبرتى عن أسلوب محمد على فى تقريب المنافقين وإبعاد كل من يتجاسر على نصحه : « ولا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراداته ومقاصده ، ومن كان خلاف ذلك ، فلا حظ له معه مطلقا ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ـ ولو على سبيل التشفع ـ حقد عليه ، وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبدًا » .

ثم يعطينا الجبرتى صورة عن أخلاق وطباع محمد على السياسية ، فيقول : «وعرفت طباعه وأخلاقه فى دائرته وبطانته ، فلم يمكنهم إلا الموافقة فى المساعدة فى مشروعاته : إما رهبة وخوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم ، وإما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة ، وهو الأكثر ـ وخصوصا أعداء الملة من نصارى الأرمن وأمثالهم الذين هم الآن أخصاء لحضرته ومجالسه ، وهم شركاؤه فى أنواع المتاجرة وهم أصحاب الرأى والمشورة ، وليس لهم شغل ودرس إلا فيما يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدومهم » .

وساء الجبرتى أن يستخدم محمد على المكر والغدر والخديعة للإيقاع بالمماليك وذبحهم فى القلعة ، رغم مقت الجبرتى لهم بسبب المظالم التى أنزلوها بالرعية ، ورغم أنه لم يخف شماتته فيهم حين دحرتهم جيوش نابليون . إلا أنه لم يستطع مسايرة محمد على فى الفتك بهم ، كما لم يستطع تأييد محمد على ، وهو يوفد جيشا من أراذل الترك ليهدم الدرعية على رءوس أصحابها من أتباع محمد بن عبد الوهاب . . وكم حز فى نفسه أن تقوم هذه الحرب الطاحنة بين المسلمين ، وحز فى نفسه أكثر من ذلك ، أن يشهد موكب الأمراء السعوديين يطاف بهم فى شوارع القاهرة مصفدين فى الأغلال . فيغضب قائلاً : كيف تقتلون أناسا يقولون لا إله إلا الله . . !!

** هل كان الجبرتى متحاملا فى أحكامه على محمد على ؟!

إن معظم الباحثين الذين كتبوا عن الجبرتى ، لا يبرئونه من شبهة الضغينة ضد محمد على ، بسبب الإجراءات الصارمة التى اتخذها الوالى الجديد ضد الفئات الثرية فى المجتمع المصرى ، ولما كان الجبرتى ينتمى إلى هذه الفئات ، فقد أصابه بعض ما أصابها من جور وظلم . . فامتلأت نفسه مرارة وحقدا . . ولكن الأمانة تقتضى مناقشة هذا الرأى فى إطار من الموضوعية والحياد .

العدل أساس الملك ..

كانت الأحكام القاسية ، التى أصدرها الجبرتى ضد الوالى محمد على ، انعكاسا أمينا لمفهومه لوظيفة الولاية وواجباتها كنظام للحكم . . وكان الجبرتى ، بحكم تكوينه الدينى وثقافته الإسلامية ، يفهم الولاية على أنها عدل ورحمة ورفق بالرعية قبل أى شىء آخر ، فإذا انتفى العدل من الدولة ، فقدت موجبات قيامها ، ولا يقبل فى ذلك عذرًا بأن يقال إن الحاكم اضطر إلى تأجيل العدل بعض الوقت لكى يتمكن من إقامة المشروعات العمرانية الكبرى ، التى يتطلب قيامها مصادرة الحريات والأموال وحمل الرعية على الجادة ، حتى يزداد الإنتاج ، ويعم الرخاء .

كان الجبرتى لا يفهم هذه الأعذار ، التى يطلقها بعض الباحثين عند حديثهم عن قسوة الجبرتى فى معاملة محمد على . فيقولون إن الجبرتى ، عاصر بواكير عصر محمد على ، وهى فترة الانتقال من عهد إلى عهد ، فكان طبيعيًا أن يقع فيها من الظلم والقهر والعنف ما وقع ، حيث كان الوالى مضطرًا إلى هدم أركان النظام القديم، وإقامة الدولة العصرية على أسس جديدة ، تستلزم تصفية الامتيازات الطبقية ، والسيطرة على اقتصاد البلاد ، واحتكار زراعتها وتجارتها ، وتسخير أهلها وإرهاقهم فى إقامة مشروعات جبارة تعود عليهم بالنفع فيما بعد . . ثم يقولون إن الجبرتى مات عام (١٨٢٥) قبل أن تؤتى هذه المشروعات ثمارها . وربما لو امتد به الأجل ـ وشهد آثار هذه المشروعات ، لكان أكثر رفقا بمؤسس مصر الحديثة . ولجاءت أحكامه عليه أقل تحاملاً وأكثر رشدًا .

ولقد كان من الممكن قبول هذا الافتراض ، لو كانت أحكام الجبرتى على محمد على تتسم بالعمومية والشمول ، فيدمغ عهده كله ولا يرى فيه إلا النقائص والعيوب

ولكن الواقع كان خلاف ذلك ، فالجبرتى لم يتجاهل الإشادة ببعض الأعمال الجليلة التى عاصرها فى دولة محمد على ، ولم يغض النظر عن بعض الصفات الحميدة التى كان الرجل يتحلى بها ، فكان يصفه بالحركة والنشاط ، (بحيث لا يقر له قرار) ويقول إنه كان فى أيامه الأولى دائم الخروج إلى نواحى القاهرة وزيارة شيوخ الأزهر (وكان كثير الانفراد بالسيد عمر مكرم) . . ولا يخفى الجبرتى إعجابه بالمشروعات العمرانية التى أقامها محمد على ، مثل بناء سد الفرعونية الذى حال دون طغيان ماء البحر المالح على الأراضى الزراعية ، وإصلاح بوغاز رشيد ، وحفر ترعة المحمودية . وتعمير مدينة الإسكندرية . . ووصف هذه الأعمال بأنها (من همم الملوك) ، وقال عن صاحبها إنه (كانت له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان ، ولو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والثقافة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه ، وفريد أوانه) .

لم يكن الجبرتى إذن ناقما على الوالى على طول الخط ، ولا كان راضيا عن كل تصرفاته أو مبررًا لكل فعل من فعاله ، كما يسلك المؤرخون الحكوميون ، وإنما عبر عن رضائه عنه أو سخطه عليه فى المواقع التى تستحق هذا أو ذاك ، وكان مقياس الرضا والسخط عنده توفر شرط العدالة ، فإذا تحقق هلل وكبر ، وإذا انتفى سخط وضجر ، ولقد طبق مؤرخنا هذا المقياس الموضوعى على مؤسس مصر الحديثة ، كما طبقه على كل الحكام الذين عاصرهم وما أكثرهم .

لقد عايش الجبرتى الحكم العثمانى طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر وشهد حركة على بك الكبير ـ ثم إخفاقها . . وشهد الصراعات الدامية التى وقعت بعدها بين الأمراء المماليك ، وجعلت من مصر دويلات متناحرة ، وشهد مقدم الحملة الفرنسية ثم رحيلها ، وشهد عودة الشراذم العثمانية التى أشاعت الفوضى والإرهاب فى أنحاء البلاد ، والتى انتهت بانفراد محمد على بالسلطة ، وهو فى كل هذه التقلبات يرى الحال تسير من سيئ إلى أسوأ ، فيتمثل قول الشاعر :

رب يوم بكيت منه ، فلما   صرت فى غيره ، بكيت عليه

وعلى هذا ، يجب أن نفهم سر تباكيه على أيام المماليك ، وهو يرى الفساد والفجور والانحلال فى ظل الفرنسيين ، ثم نراه يتباكى على أيام الفرنسيين ، وهو يرى جحافل الإنكشارية والوجاقلية والدلاة والأرنئوط يستحلون حرمات البلاد ، وقد دخلوها بعد رحيل الفرنسيين ، فاعتبروا مصر أرضا مفتوحة ، من حقهم أن يستعبدوا رجالها ، ويسبوا نساءها ، ويهتكوا أعراض بناتها وغلمانها . . فإذا اشتكى المصريون إلى الباشا أو وكيله قال لهم : (أناس قاتلوا وجاهدوا أشهرا وأياما ، وقاسوا ما قاسوه فى الحر والبرد والطل ، حتى طردوا عنكم الكفار وأجلوهم عن بلادكم أفلا تسعونهم فى السكن ؟!) وحين سئل القاضى التركى فى شأن هذه الأعمال الإجرامية ، أفتى بأن مصر جميعها أصبحت (دار حرب) ، وقد آلت ملكيتها جميعها إلى السلطان (بحق الفتح) ، بعد طرد الفرنسيين منها . . ولكن الجبرتى - المسلم المثقف ، الذى يفهم الشريعة فهما صحيحا خاليا من الخزعبلات والأباطيل - يرفض هذه الحجج الهابطة ، التى تحاول أن تقنن الفساد ، وتبحث له عن ذريعة فى إطار الدين . ولم ينخدع الجبرتى بالشعارات التى كانت تتحرك تحتها هذه الفيالق المتوحشة ، وإنما جاء حكمه عليها موضوعيا نابعا من إيمانه بأن الإسلام يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وأن الخروج على هذه القيم هو خروج على الدين . وكان يرى أن هؤلاء الوحوش لا يؤمنون بالإسلام . . (ولا يتدينون بدين ، ولا ينتحلون مذهبا ، وكانت تصحبهم صناديق المسكرات ولا يسمع فى معسكرهم أذان ، ولا تقام فيه فريضة ، ولا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين) .

ويصف الأرنئوط بأنهم شر من مشى على الأرض . . وأن الواعظ منهم ، لو رجع إلى بلاده لرجع إلى حالته التى كان عليها فى السابق ، (فى الخدم الممتهنة والاحتطاب فى الجبل ، والتكسب بالصنائع الدنيئة ببيع الأسقاط والكروش والمؤاجرة فى حمل الأمتعة) .

فإذا استتب الأمر لمحمد على ، واستطاع أن يستأصل هذه الوحوش الكاسرة بالقتل حينا ، وبالنفى حينا . . ألم يكن ذلك شفيعا له عند الجبرتى ، فيخفف من غلوائه فى الحكم عليه ؟! خصوصا وقد عاش مؤرخنا خمسة عشر عاما فقط ، من

بداية دولة محمد على ، ظهرت خلالها ملامح الدولة العصرية ، وتشكل الجيش المصرى الحديث على أنقاض الفرق المرتزقة ؟ هل كان عسيرا على مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى أن يتجاوز نطاق مفاهيمه الراسخة ، يتعاون مع النظام الجديد لتحقيق أهدافه الكبرى ، والنهوض بمصر من أكفان القرون الوسطى إلى أعتاب العصر الحديث ؟!

وجهـا لوجـه . . !

كان الصراع بين مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى ، ومؤسس مصر الحديثة محمد على باشا ، صراعا حتميا لا يمكن تلافيه . . إنه الصراع الأزلى بين أنصار الحق والعدالة والحرية واحترام الكرامة الإنسانية ، وأرباب القوة الغاشمة ، الذين يستبيحون الحريات ويمتهنون العدل ، ويبطشون بالحقوق العامة من أجل بناء الدولة القوية . . ثم لا يلبث البنيان أن ينهار وتتقوض أركانه ، لأنه خلا من اللبنة الأساسية: قوة الإنسان الفرد التى تتجلى فى مناخ الحرية والإحساس بالعدل وتنكمش ثم تزول تحت نير الاستعباد والقهر والاستبداد . .

تلك هى عبرة التاريخ على مدى العصور منذ وجد حكام مستبدون ومحكومون ضعاف ، وذلك هو جوهر الصراع بين مؤرخنا المستنير ، وحاكمنا الطاغية . .

لقد عايش الجبرتى عهود الظلم ، ممثلة فى المماليك والعثمانيين والفرنسيين ، ولقد داعبه الأمل فى زوال هذه الصفحة الكئيبة بعد أن يختار المصريون حاكمهم بإرادتهم وراودت خواطره أحلام وردية فى عهد جديد ، يسلك فى الرعية مسلك العدل والرفق . . وربما خدعته الوعود التى سكبها الثعلب الألبانى فى أذن زعيم الشعب الطيب عمر مكرم ، وليس من المؤكد أن الجبرتى كان واحدًا من أهل الحل والعقد الذين صعدوا إلى القلعة فى مايو ١٨٠٥ ، ليثبتوا محمد على على عرش مصر ، ولكن المؤكد أنه كان واحدًا من جمهرة العلماء الذين أحسنوا الظن بالعهد الجديد ، وانتعشت آمالهم فى حكم جديد يغاير النظم السابقة التى أسرفت فى الظلم والطغيان . .

*** ولكن . . كم كانت خيبة الأمل عنيفة مدمرة . . وهم يرون أحلامهم فى العدل تتبدد !! فالحاكم الجديد لم يكن سوى نسخة معدلة من الطغاة السابقين . .

يسلك نفس مسلكهم فى البطش . بل يفوقهم فى سعة الحيلة والدهاء والخبث . . شيئًا فشيئًا أصبح هو المالك الوحيد لكل مقدرات مصر . . بدءًا من رقاب البشر . . وانتهاء بالدراهم الشحيحة التى تدخل جيوبهم بعد شقاء النهار الطويل . . واكتشف الفلاحون أنهم لم يتحرروا من ذل العبودية القديم ، وأن نتاج كدهم وتعبهم هو حق مسلوب لحساب الحاكم ، فماذا يفعلون ؟! هربوا . . تركوا الأرض قاحلة وهاجروا إلى المدن ليعملوا فى المهن الحقيرة . . فلما تعقبهم كرباج الحكومة ، زحفوا إلى الشام فى هجرة جماعية ، كانت سببا فى حملة عسكرية شنها محمد على ، لتعود بالفلاحين الهاربين ومعهم والى عكا ـ أحمد الجزار ـ عقابا له على إيوائه لهذه الجحافل الجائعة . .

كان محمد على يريد إنشاء دولة حديثة قوية . . ووضع خطة طموحة لإقامة العديد من المشروعات الكبرى ، مثل شق الترع والمصارف وبناء السدود والقناطر . . ولكنه لم يبذل أدنى اهتمام بالإنسان المصرى الذى يقوم بتنفيذ هذه المشروعات . . كان الوالى يستخدم السخرة والكرباج فى إجبار المصريين على العمل فى ظروف بالغة القسوة . . كان الآلاف يهلكون جوعا وضنكا وإعياء !! . . فما قيمة المشروعات إذا أهدرت آدمية المواطن ؟! وكان محمد على يسعى إلى إنشاء جيش قوى من الفلاحين المصريين . . وهذا هدف قومى جليل . . ولكن كيف يمكن الفصل بين الهدف والوسيلة ؟ وكيف يمكن الاطمئنان إلى الروح المعنوية لهذا الجندى ، ونحن نعلم الوسائل الوحشية التى كان محمد على يسلكها فى تجنيد الفلاحين ؟ وكيف كانت قواته الكاسرة تهبط على القرية كالإعصار المدمر فتأسر كل من يقع فى يديها من رجال وشيوخ ونساء وأطفال ، ثم تسوق الجميع فى حبال غليظة إلى مراكز التجنيد قسرا . . ؟!! وكان محمد على فى حاجة إلى المال ، فلم يترك سبيلا من سبل التحايل إلا سلكه ، حتى جعل من نفسه شريكا لكل صاحب حرفة مهما بلغت دناءتها وتلفت المصريون فوجدوا أنفسهم فى غاية الضيق والفاقة ، فلما ذهب العلماء ـ أهل الحل والعقد ـ ليذكروا الحاكم بوعوده السابقة ، لم يجدوا منه سوى الازدراء الذى تحول بعد قليل إلى حركة رجعية لإخماد كل صوت معارض ، وتقريب كل منافق جهول من أجلاف الأرمن والترك واليهود .

عندئذ صاح الجبرتى ، على لسان الأمير الشهير محمد بك الألفى وهو يلقى سلاحه الأخير ، ويودع الحياة مقهورًا ، فخرج إلى ربوة عالية على مشارف شبراخيت، وتلفت إلى الأفق الدامى قائلاً : « يا مصر . انظرى إلى أولادك وهم حولك مشتتون ، متباعدون ، مشـردون ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنئود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » !! ولم يزل الألفى يردد هذه المرثية حتى تحرك به خلط دموى . . ثم تقيأ دما . . فكانت آخر كلماته : « قضى الأمر . . وخلصت مصر لمحمد على . . وما ثم من ينازعه ويغلبه . . » .

** ماذا كان موقف الجبرتى ، وهو يرى آماله فى النظام الجديد قد خابت ؟ هل كان عسيرًا عليه أن يساوم . . أو يداهن . . أو يجارى الحاكم المستبد الذى يرتكب الظلم بحجة بناء الدولة القوية ؟!

أجل . . كان عسيرا على الجبرتى ، الحالم دائمًا بأطياف العدل ، والكاره أبدا لكابوس الظلم ، أن يساوم على مبادئه . فكانت القطيعة النهائية بين قطبين متنافرين ـ على حد وصف المؤرخ الكبير أحمد خاكى ـ أحدهما يمثل أسمى ما وصلت إليه فكرة العدل فى الإسلام . . بل فى تاريخ الأمم ، لدرجة أنه كان يرى أن ما نزل بعشيرته وأهله المصريين من بلاء « إنما سببه أنهم لم يرعوا حدود الله ، ولم يقفوا فى وجه الجبارين . فلقوا جزاء ما قدمت أيديهم . . وما ربك بظلام للعبيد » . أما القطب الآخر فيمثل « القوة » بمعناها الغشوم : قوة السلاح والدهاء والخبث ، وهى القوة التى آلت إلى العناصر التركية التى سيطرت على دار الإسلام ، منذ عصر الخلافة العباسية ، ولم يكن لها مصلحة سوى استنزاف موارد البلاد ؛ فهى قوة لا تعرف الرحمة أو الشفقة بالرعية . وكان محمد على آخر العنقود فى هذه السلسلة الحديدية .

وفى ضوء هذا التنافر ، ينصحنا الأستاذ خاكى بأن ننظر إلى الرجلين كممثلين للحضارة الإسلامية ، الأول يمثل خير ما خلص له من الشريعة فى سياسة الناس والثانى يمثل أكثر الوسائل فعالية ـ فى نظره ـ لحكم شعب لا حول له ولا قوة .

وسوف نلاحظ أن هذه القطيعة بين الحاكم المستبد ، والمحكومين الضعاف الجهلة ستسري فى تاريخ مصر طوال القرن التاسع عشر وما بعده ، حيث كان المصريون ـ على حد وصف سعد زغلول ـ ينظرون إلى الحكومة نظرة الطائر إلى صائده . . لا نظرة الجندى إلى قائده . .

الأفندية فى باريس

كان محمد على الكبير ، رائد الاستنارة العقلية والثقافية لمصر الحديثة ، رغم أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . . فهو الذى وضع بيده البذرة الأولى ، التى أينعت وأثمرت تلك الشجرة الفيحاء ، التى أفاءت على مصر ظلال العلم والعرفان . وهو الذى شيد صرح التعليم الحديث ، ممثلا فى مئات المدارس الابتدائية والتجهيزية (الثانوية) والعالية ، وتكونت من خريجيها طليعة الطبقة المثقفة التى صنعت مجد مصر . ولا ننكر أن محمد على هو الذى حرر أولاد الفلاحين المصريين ، من ظلام الجهل الذى ضرب عليهم قرونا طويلة ، وهو الذى بعث بهم إلى جامعات أوربا لينهلوا من منابع العلوم الحديثة ، وهو الذى ساقهم ـ بالترغيب حينا وبالترهيب حينا آخر ـ إلى المدارس العالية ، ليتعلموا فنون الهندسة والطب والزراعة والميكانيكا والطباعة والحفر والطبيعة والكيمياء . . بعد أن كان قصارى حظهم من التعليم أن يترددوا على الكتاتيب ليحفظوا القرآن الكريم ، ويتلقنوا مبادئ الكتابة والحساب . . ثم لا يلبثوا أن يرتدوا إلى ظلام الأمية بعد حين . أما من أسعده الحظ منهم بالمجاورة فى الأزهر ، فكان جل حصيلته قشورًا من العلوم الشرعية ، لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ولا تفلح فى صناعة عالم .

أدرك محمد على ـ هذا الجندى المغامر ـ أنه لا سبيل أمامه لبناء مصر الحديثة ، إلا بالاعتماد على سواعد أبنائها ، بعد أن خذله الترك وتآمر عليه المماليك ، وأدرك أن السبيل الوحيد لنهضة المصريين ، هو خلق طبقة من أبنائهم تتعلم أسرار التقدم . فانتقى النوابغ من خريجى المدارس ، وبعث بهم إلى أوربا ليكتشفوا هذا العالم الذى تحرك من حولهم وهم قعود ، ثم عادوا ليكونوا نواة الطبقة المثقفة التى قادت حركة التنوير .

وبلغ من اهتمام محمد على ، بأعضاء البعثات ، أنه كان يتقصى أخبارهم ويتتبع سلوكهم وتصرفاتهم وهم فى بلاد الغربة ، ويواليهم بالنصائح والإرشادات ، مثلما يفعل الأب الحريص على مستقبل أولاده . ويكتب إليهم بين الحين والحين رسائل يستحثهم فيها على الاجتهاد والتفرغ للتحصيل ، حتى يعودوا إلى وطنهم وهم على أحسن حال . وهذه رسالة أوردها رفاعة رافع الطهطاوى ـ الرائد الدينى للبعثة الأولى ـ فى كتابه المشهور « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » وتلمس فيها قلق الأب الذى ينتظر عودة ابنه وعلى رأسه تاج العلوم :

« قدوة الأماثل الكرام ، الأفندية المقيمين فى باريس ، لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ، ننهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم « ثلاثة أشهر » مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئًا ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم . وهذا الأمر غمنا كثيرًا ، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئًا من ثمار شغله وآثار مهارته . فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم إلى مصر بعد قراءة الكتب ، فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون ، فإن ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة ، رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه، فبناء على ذلك ، إنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا ، وتوجهنا إليكم لتتميزوا بين أمثالكم . فإذا أردتم أن تكتسبوا رضاءنا ، فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم ، وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ويكتب فى كل شهر ما يتعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وإن قصرتم

فى الاجتهاد والغيرة ، فاكتبوا لنا سببه . وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم. وأى تشويش لكم : هل هو طبيعى أو عارض ، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرءوا هذا الأمر مجتمعين ، وافهموا مقصود هذه الإرادة ، وقد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى الإسكندرية بمنة الله تعالى » .

نابغة الطب المصرى

كان الدكتور محمد على البقلى باشا ، أنبغ جراح وأشهر طبيب عيون ، أنجبته مدرسة الطب المصرية التى أنشأها كلوت بك لحساب سيده محمد على باشا الكبير لتخريج أطباء يخدمون فى الجيش المصرى . وبعد رحيل كلوت بك ، تولى البقلى باشا الإشراف على مدرسة الطب ، وأصبح كبير أطباء وجراحى مستشفى قصر العينى . وقد كبر على الأطباء الأجانب أن يصل طبيب مصرى إلى هذا المركز الرفيع فنقموا عليه ، ونجحوا فى تنحيته عن منصبه فى عهد عباس الأول ، فعين طبيبا فى أحد مستشفيات القاهرة ، فانتقلت معه شهرته ، وأصبح مستشفاه قبلة الجماهير من كل أنحاء مصر ، وكان مستواه الخلقى ، لا يقل عن مستواه العلمى ، إذ كان دائب العطف على الفقراء ، ويعفيهم من أجر العلاج ، إذا استشعر فيهم عجزا وفاقة أما عن نبوغه العلمى ، فتشهد عليه مؤلفاته التى كانت أولى المرجع بالعربية لطلبة الطب ، ومن أشهرها كتابه عن الجراحة الصغيرة وسماه « روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى » ، وطبع عام ١٨٤٣ ، وكتاب « غرر النجاح فى أعمال الجراح » عام ١٨٤٦ ، وكتاب « نشر الكلام فى جراحة الأقسام » ، وكتاب فى العمليات الجراحية الكبرى فى مجلدين ، وسماه « غاية الفلاح فى أعمال الجراح » . كما شارك فى عام ١٨٦٥ ، فى إصدار أول مجلة طبية عربية فى مصر ، وهى مجلة «يعسوب الطب » . وقد وصفه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ، بالعالم النحرير والعلم الشهير .

* * *

ولد محمد على البقلى سنة ١٨١٥ ، فى قرية من قرى المنوفية اسمها زاوية البقلى

اشتهرت بتخريج العديد من النوابغ ، فقال عنها على باشا مبارك « إن هذه القرية وإن كانت صغيرة ، لكنها اختصت دون غيرها بمزية كثرة من ترقى منها فى الوظائف السنية والخدمات الميرية ، من علماء الشريعة والرياضة والحكمة والطبيعة . . » .

وتلقى محمد على البقلى علومه الأولى ، فى كتاب القرية . فلما بلغ التاسعة انتقل إلى كتاب أبى زعبل ، حيث أتم تجويد القرآن الكريم ، وانتقل بعدها إلى مدرسة أبى زعبل التجهيزية التى كانت فى مستوى المدارس الثانوية ، وهناك ظهرت عليه علامات النجابة ، فكان أول فرقته فدخل مدرسة الطب ، وتتلمذ على كلوت بك الذى اكتشف فيه استعدادًا طبيا لدراسة الطب فاق مستوى أقرانه ، فلما أتم دراسة الطب اختاره كلوت بك ضمن البعثة التى أرسلت إلى فرنسا للتخصص فى العلوم الطبية ، فالتحق بمدرسة الطب بباريس ، وانصرف إلى تحصيل العلم وأبدى من مخايل النبوغ ما جعله يتفوق على دفعته رغم كونه أصغرهم سنا ، وشهد له جميع أساتذته بالعبقرية وتوقعوا له مستقبلاً باهرًا .

وعاش الشاب محمد على البقلى فى باريس ، دون أن ينسى أهله فى زاوية البقلى . فكان يترك لأمه خمسين قرشا من جملة الراتب الشهرى المخصص لطالب البعثة وقدره مائة وخمسون قرشا ، ويكتفى بجنيه واحد يعيش به فى باريس . ولما فرغ من دراسة الطب ، قدم رسالته الجامعية عن الرمد الصديدى فى مصر ، وبعد حصوله على الدبلوم فى عام ١٨٣٨ ، عاد إلى وطنه فعين مدرسا للجراحة والتشريح بمدرسة الطب ، وكبيرا لجراحى المستشفى . ونال رتبه (صاغ) فى الجيش ، وفى عهد عباس الأول تعرض للاضطهاد من جانب الأطباء الأوروبيين ، فنجحوا فى زحزحته عن مركزه المرموق فى مستشفى قصر العينى . وفى عهد سعيد رقى إلى رتبة القائمقام ، وعين كبيرًا لأطباء الجيش ، ثم عاد إلى منصبه كبير جراحى قصر العينى ، ووكيلا لمدرسة الطب ، وأنعم عليه سعيد برتبة أميرالاى وجعله طبيبه الخاص بالإضافة إلى مناصبه العلمية . فلما تولى الخديو إسماعيل عينه ناظرًا لمدرسة الطب ، ورئيسًا لمستشفى قصر العينى ، وشجعه على إصدار مؤلفاته العلمية لتكون مرجعا لدارسى الطب .

* * *

ولقد كان من المفترض أن تمضى حياة هذا الرائد المصرى الكبير ـ وقد بلغ سن

الشيخوخة ـ إلى نهايتها فى هدوء وسكينة ، كما تمضى حياة أى عالم معطاء ، لولا السياسة الخرقاء التى سلكها إسماعيل فى التوسع الخارجى ، وتحميل خزانة مصر المرهقة أعباء مالية هائلة للإنفاق على حروب ارتجالية ، ليس لها من هدف سوى إظهار الخديو ـ فى نظر الأوربيين ـ بمظهر فرعون صاحب الذراع الطويلة التى تصل إلى أقاصى الدنيا .

وكانت حملة الحبشة ، هى ذروة الخبال الذى أصاب إسماعيل ، ورغم الهزائم المتوالية التى منيت بها الجيوش المصرية على الحدود الحبشية ، فقد زين له مستشارو السوء والمنتفعون من خيراته ، أهمية غزو الحبشة لإعادة الهيبة المصرية إلى نفوس الأوربيين ، وإذلال النجاشى الذى تصدى للطلائع المصرية ولم يسمح لها بالتوغل فى أراضيه . وانساق إسماعيل وراء هذه الأوهام والخزعبلات ، وجهز حملة أوكل قيادتها إلى ضابط شركسى هو راتب باشا ، وعهد بقيادة الأركان إلى ضابط أمريكى اسمه « لورنج » ، وضمت الحملة خليطا من شتى الأجناس والملل من الضباط المرتزقة ، وكلهم طامع فى المرتبات الخيالية ، التى كان إسماعيل يدفعها ، ويكفى أن تعلم أن السفينة (الدقهلية) التى أقلت الحملة من السويس إلى مصوع ، كانت أشبه بهيئة أمم بحرية . وتدور على ظهرها اللغات : العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والنرويجية ، على ما يذكر المؤرخ إلياس الأيوبى ، ولم يكن بينهم أى إحساس مشترك بجدية الهدف الذى يمضون إليه سوى الاغتراف من خزانة مصر .

* * *

وطلب الخديو من الدكتور محمد على البقلى باشا ، أن يرافق الحملة ، فلم يسعه سوى القبول والطاعة ، وشاء قدره أن يشهد المذبحة الدموية الرهيبة عندما أحاط الأحباش بالقوات المصرية ، وانساحوا عليها من التلال كالجراد المنتشر ، وأعملوا السيوف والحراب فى الجنود المصريين حتى أبادوهم ، وقادوا من بقى منهم على قيد الحياة إلى معسكرات للاعتقال لاقوا فيها من صنوف الهوان والذل ما يندى له الجبين . ويكفى أن تعرف من جرائم الأحباش أنهم كانوا (يخصون) الأسرى قبل تسليمهم . ووقع الدكتور البقلى ، ومعه جندى سودانى ، فى أسر جندى حبشى قادهما سيرا على

الأقدام إلى معسكر الأسرى ، وكان يقع على مسافة بعيدة ، وكان طبيعيا أن يعجز الدكتور البقلى باشا ـ وهو الشيخ الفانى ـ عن الهرولة ، فما كان من الجندى الحبشى إلا أن أمر الجندى السودانى بقتل رفيقه لكى يتخلص من بطئه ومن اضطراره إلى إطعامه ، وأذعن الجندى السودانى لتعليمات آسره . . فأزهق روحه . . ثم تركا جثته فى العراء وواصلا المسير . .

نجم الزعامة المصرية

كان السيد عمر مكرم ، أقوى شخصية مصرية ، ظهرت على المسرح السياسى فى مطلع القرن التاسع عشر . ومع ذلك لم يفكر فى تنصيب نفسه حاكما على مصر . والعلماء الذين صعدوا معه إلى القلعة فى مايو ١٨٠٥ لخلع الوالى العثمانى خورشيد باشا ، لم يخطر ببالهم أن يضعوا الصولجان فى يد ذلك الزعيم الصعيدى الأسيوطى الأزهرى ، ووضعوه فى يد الضابط المقدونى المولد ، العثمانى النشأة : محمد على فضيعوا على مصر فرصة العمر . وحكموا عليها بأن ترزخ قرنا ونصف قرن ، تحت نير أسرة أجنبية تضاف إلى سلسلة الأسر التى حكمت مصر من قلاوونية وأيوبية وفاطمية وإخشيدية وطولونية . . وقبل كل هؤلاء ، كان حكم الرومان ، وقبل الرومان كانت الأسر البطلمية الإغريقية التى استوطنت مصر بعد فتح الإسكندر لمصر عام ٣٣٣ قبل الميلاد ، وبين المقدونى الأول والمقدونى الحديث ، واحد وعشرون قرنا عاشتها مصر تحت حكم الأجانب . ولم يستطع زعيم مصرى أن يخترق الستار الحديدى ويجلس على عرش بلاده .

إياك أن تقع فى شرك الذين يعلقون هذه الظاهرة على مشجب الإسلام ، بحجة أنه يجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية فى شخص الحاكم ، وأن الرعية عليها أن تسمع وتطيع بصرف النظر عن جنسية الحاكم ولونه . . وأقول لك إن الإسلام برىء من هذه الأكاذيب التى روجها المرجفون لإخضاع الشعوب وتطويعها لحكم الجبابرة والطغاة . . والإسلام لم يقل إن حكم مصر حلال لكافور الإخشيدى وابن طولون المنغولى وخوش قدم الألمانى الأصل . . وحرام على أبنائها . . !!

لو تتبعت تاريخ هذه الأسرات والدول . فسوف تكتشف بينها فجوات ضعف وانحلال ، كان من الممكن أن يسدها مصري أصيل ، مثلما حدث فى أعقاب جلاء الفرنسيين عن مصر ، وعودة الأتراك إلى حكمها ، وما حدث من صراع دموى بينهم وبين المماليك . . فى هذه الفترة المضطربة ، ظهر نجم الزعامة المصرية ممثلا فى شخص السيد عمر مكرم . . ومع ذلك لم يفكر المصريون فى تنصيبه حاكما عليهم . . الأمر الذى يشكل علامة استفهام كبيرة . . ؟؟

ولقد حاولت أن أتلمس الجواب فى كتابات الباحثين والمؤرخين ، فلم أجد عند الأستاذ الرافعي ما يشفى الغليل . وهو برغم إعجابه الشديد بالسيد عمر مكرم وبرغم مبالغته فى تقدير حجم الشعور القومى الذى بزغ أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر ، فإنه لم يشرح لنا سر انصراف الحركة الوطنية الوليدة عن ابنها البار التقى النقى . . وإقبالها على الضابط المقدونى المجهول الأصل . . !

الدكتورة نعمات أحمد فؤاد . فى كتابها القيّم « شخصية مصر » حاولت أن تقدم تفسيرا ، خلاصته أن الموقف السياسى فى تلك الفترة الدقيقة ، كان يتطلب معرفة القوى الموجودة فى الساحة ووزنها بميزان دقيق ، كما يتطلب مهارة فى اللعب بها ومعها وقد عرف التاجر المقدونى من أين تؤكل الكتف ، ولم يكن علم هذا عند ابن البلد الطيب عمر مكرم . . وتضيف إلى ذلك انبهارنا التقليدى بالغريب . .

أما الدكتور عبد العزيز الشناوى أستاذ التاريخ الإسلامى . . فيقدم لنا فى كتابه عن عمر مكرم تفسيرًا من خلال الظروف الثقافية والفكرية التى كانت تسود المجتمع المصرى يومئذ ، فالمجتمع كان مجتمعا دينيا ، ولم يكن ينظر إلى السلطان العثمانى على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر . بل نظر إليه على أنه سلطان الإسلام . وكان سلطان تركيا سعيدًا جدا بهذه النظرة المقدسة . فجعل من الدين ستارا يخفى وراءه أغراضا استعمارية ، والدين منها براء . وكان الشعب المصرى متشبعا بفكرة الوطن الإسلامى أكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومى ، وبعبارة أخرى كانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية ، بحيث يصعب الفصل بينهما ، وكانت السياسة العليا للدولة العثمانية منذ غزو مصر فى عام ١٥١٧ تقضى بأن يكون والى مصر عثمانيا صرفا ، بمعنى أن يكون عثمانى المولد والنشأة واللسان والعقلية ، فإذا تم

اختيار عمر مكرم أو غيره من زعماء البلاد واليا لمصر ، لكان معنى ذلك ـ فى ضوء مفاهيم المجتمع الدينى ـ ثورة على النظام الذى أخذت به الدولة . ونقضًا لمبدأ أساسى وضعه سلطان الإسلام وخروجا على طاعته . .

* * *

وكان من الممكن أن يكون هذا التفسير مقبولا ، لو أن الشعوب التى حكمتها الإمبراطورية قد استسلمت نهائيًا . واستنامت لتلك المفاهيم التى أشار إليها الأستاذ الفاضل . ولكن الذى حدث أن الشعوب العربية لم تكف عن الشغب والتمرد والعصيان فى مصر وسوريا ولبنان . . وثورة الدروز فى القرن السابع عشر معروفة . . وفى مصر وجدنا فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر من يقود جيشا ليضم سوريا، ويعلن الانفصال عن الإمبراطورية . وأعنى بذلك حركة على بك الكبير فالخروج على سلطان الدولة العثمانية كان أمرا شائعًا . . بل إن محمد على نفسه لم يكد يستقر على عرش مصر ، حتى شق عصا الطاعة على سادته . وقاد جيشا مصريا وأسطولا مصريا ليدك بهما عرش الآستانة . . فما المانع من عصيان الدولة العلية ونقض مبادئها بتعيين مصرى على عرش مصر . . ؟؟

مهرجان الـدم

تحدد يوم أول مارس ١٨١١ موعدًا لسفر الحملة المصرية بقيادة الأمير طوسون لإخماد الحركة الوهابية فى الحجاز ، وخرج شعب القاهرة كعادته فى هذه المناسبات إلى الشوارع المحيطة بالقلعة لتوديع الجيش وسط أهازيج الفرح ودقات الطبول ولكن صيحات الفرح تحولت إلى صرخات استغاثة ، وطغى صوت الرصاص على دقات الطبول ، وتحول الموكب السعيد إلى مهرجان للدم .

فى صباح ذلك اليوم تَصَدَّر محمد على قاعة الاستقبال الكبرى فى قصره بالقلعة وتوافد عليه العظماء مهنئين مباركين ، وانتهزها المماليك فرصة لإظهار ولائهم للعهد الجديد ، فقد خمدت الحروب الطاحنة التى دارت رحاها فى صعيد مصر بين فلولهم وقوات محمد على . ويئس المماليك من إحراز نصر حاسم ، فهبطت عزيمتهم وأعربوا عن رغبتهم فى إلقاء السلاح ، وتظاهر محمد على بقبول الصلح فأعطاهم الأمان . وسمح لهم بالعودة إلى القاهرة ليعيشوا فى قصورهم بين حريمهم وغلمانهم حياة الرغد واللهو والفجور . ولم يقنع المستبد الدخيل بهذا الاستسلام ورأى أن الحل الوحيد هو استئصالهم من الجذور ، حتى لا تبقى أمامه قوة مناوئة تصرفه عن الهدف الأكبر ، وهو الانفراد بحكم مصر .

* * *

ذهب البكوات المماليك إلى القلعة يرفلون فى ثيابهم المزركشة الفضفاضة ، وقد تمنطقوا بالسيوف الذهبية البراقة دون البنادق . واستقبلهم محمد على بالبشر والترحاب ، وأبدى لهم من طرف لسانه حلاوة أسكرتهم ونزعت من نفوسهم كل

ريبة ، وهم الذين تربوا منذ نعومة أظافرهم على الشك والمكر والخداع ، ولكنهم فى هذا المضمار كانوا مجرد تلاميذ فى حضرة الداهية الأعظم الذى قرءوا عليه يوما صفحات من كتاب ميكافيللى فسخر منه وقال : أنا أعرف أكثر منه . . !

ودوى النفير إيذانا بتحرك الجيش ، فانتصب محمد على واقفًا ، ونهض الأمراء المماليك يستأذنونه فى الانصراف ، فأوحى إليهم أنه سيكون أكثر حبورًا ، لو أنهم شاركوا فى المهرجان كى يراهم شعب القاهرة وهم فى صحبة الجيش ، وتلقف المماليك الطعم شاكرين ، واعتبروا مطلبه زيادة فى الكرم وحسن النيات . وبدأ الموكب سيره حسب الخطة المرسومة : فى المقدمة جوق الطبول والموسيقى ، ثم طليعة الفرسان . وبعدها كتيبة الجنود الألبان بقيادة صالح قوش ، أحد أربعة رجال اشتركوا مع محمد على فى تدبير المؤامرة . وبعدهم جموع البكوات المماليك على صهوات جيادهم المطهمة ، وتهادى الموكب من باب القصر ، ثم انحرف يسارًا ليجتاز طريقا ضيقا وعرا منحوتا فى الصخور ويتدرج فى الانحدار حتى باب العزب الذى يفضى إلى ميدان الرميلة (صلاح الدين حاليا) . وعبرت الفرق الأولى باب العزب ، ثم انغلق الباب غلقا محكما . وفى سرعة خاطفة تسلق الألبان بأسلحتهم النارية قمم الصخور المتاخمة للطريق . بينما كانت جموع المماليك تتقدم نحو الباب ، ولا يدرون شيئا مما يجرى حولهم ، وفى نفس الوقت كانت صفوفهم الخلفية تواصل سيرها ، حتى إذا اكتمل عددهم ، انغلق الباب الذى دخلوا منه فباتوا محصورين فى هذا الخندق الصخرى الضيق . .

* * *

وفجأة . . دوت طلقة نارية فكانت إشارة بدء المذبحة ، وبعدها انفتحت أفواه البنادق كالسيل المنهمر ، يحصدهم حصدًا ، فلا يستطيعون فكاكا . وصدمتهم المفاجأة ، وانسدت فى وجوههم أبواب النجاة من هذا الجحيم المستعر ، وتلاطمت خيولهم وساعد دوى الرصاص على إثارتها فازدادت هياجا كأنها حُمُر مستنفرة فرت من قسورة . . وأخذت الخيل تلفظ سادتها عن ظهورها وتدكهم بأقدامها دكا وكأنها تنفذ دورا مرسوما لها فى المؤامرة . ومن حاول منهم تسلق الصخور ، عاجلته رصاصة

يهوى بعدها إلى الحفرة صريعا أو جريحا فتدهسه الخيل النافرة ، أما الوحيد الذى نجا بحياته فهو أمين بك الذى كان فى مؤخرة الركب ، فما إن سمع دوى الراص ، حتى ركض بجواده نحو أسوار القلعة ثم لكز الحصان بقوة فهوى به إلى الوادى السحيق وتهشم الجواد ونهض الأمير فأطلق ساقيه للريح فى صحراء المقطم ، ولم يكف عن الجَرى حتى وصل لبنان لائذا بأميرها بشير الشهابى .

على موائد اللئام

لم تكن مذبحة القلعة ، هى فصل الختام فى المأساة المروعة التى خطط لها محمد على بإتقان . فالبكوات المماليك ، الذين ذهبوا إلى احتفال القلعة وحصدهم رصاص الألبان ، كانوا ٤٠٥ فقط ، أما بقية المماليك فكانوا ـ وقت المذبحة ـ آمنين فى قصورهم المنبثة فى الجمالية والأزبكية والناصرية ، ولا يدرون شيئا مما جرى لزعمائهم . فما إن سكن غبار المذبحة ، حتى انقض الجند الألبان على قلب القاهرة ، يذبحون المماليك فى عقر دورهم ، ويستبيحون نساءهم ، وينهبون أموالهم . كانت تعليمات الإبادة صريحة حتى لا يبقى على ظهر الأرض من المماليك ديار ، ولقد نفذ الألبان المهمة الموكولة إليهم ، وقد تملكتهم شهوة السلب والانتقام من أعدائهم الألداء حتى باتت القاهرة فى ذلك اليوم المشئوم أشبه بمدينة مفتوحة أمام غزوة تترية . وعاث الجند فسادًا فى المدينة الآمنة ، ولم يسلم المصريون من هذه المحنة القاسية فأصابهم بعض ما أصاب المماليك من عمليات النهب والسلب وهتك الأعراض ورغم أن أهل القاهرة سارعوا إلى إغلاق حوانيتهم ولجئوا إلى بيوتهم بمجرد سماعهم نبأ المذبحة ، إلا أن الوحوش الكاسرة لم تفرق بين قصور المماليك وبيوت المصريين فاستباحوا كل ما تصل إليه أيديهم ، واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها ، ولم تتوقف إلا بعد أن نزل محمد على بنفسه إلى شوارع المدينة ، وتمكن من كبح جماح جنوده وأعاد الانضباط إلى المدينة التعيسة .

وفى نفس الوقت الذى دارت فيه عمليات الإبادة فى القاهرة ، كانت هناك عمليات مماثلة فى الإسكندرية وبقية المدن التى يوجد فيها المماليك ، ولم يفلت منهم إلا من أسعده القدر بالهروب إلى الصحراء بحثا عن كهف مظلم أو قبر مهجور يأوى إليه .

وانطوت ، إلى الأبد من تاريخ مصر ، صفحة المماليك بعد خمسة قرون أو تزيد عاشوها فى أحضان مصر المحروسة ، يتقلبون فى أعطاف نعيمها وينهلون من رضاب نيلها ، أولئك هم الصعاليك الذين جاءوا إلى مصر غلمانا يباعون فى أسواق النخاسة ، فما هى إلا عشية وضحاها حتى أصبحوا ملوكا يدين الناس بالطاعة لهم ويدعون لهم بالنصر والعز والتأييد . وفن الدعاء للحاكم ـ إن لم تكن تعلم ـ فن مصرى قديم اتقنه المصريون منذ دالت دولتهم ، وخبا عزهم ، وأصبحوا غرباء فى ديارهم ، ثم باتوا كالأيتام على موائد اللئام . . ولكن هؤلاء اللئام لم تكن صفحة حياتهم خالية من ومضات المجد والعظمة ، فهم الذين دافعوا عن مصر والشرق الإسلامى ، يوم أطبقت عليهما جحافل المغول من الشرق ، وجيوش الصليبيين من الغرب ، وهم الذين فتنوا بجمال العمارة ، وتلك آثارهم تدل عليهم فى المساجد والمدارس والأضرحة والأسبلة . ولو سرت يوما فى قاهرة المعز ، فاعلم أن كل ما تقع عليه عينك من أثر عظيم ـ بما فيها الأزهر نفسه ـ إنما من وحى عشقهم للعمران والتشييد .

* * *

فوارحتاه على أولئك الصناديد الذين تربوا على صهوات الجياد ، وانصهروا فى غبار المعارك ، ولم يعرفوا إلا لغة الحرب ، فأذلوا كبرياء هولاكو فى عين جالوت وأسروا لويس التاسع فى المنصورة ، وحرروا القدس من دنس الصليبيين . وأزالوا آخر قلاعهم فى عكا . ومسحوا وجودهم عن خريطة الشرق الأوسط .

ووا أسفاه عليهم حين خلدوا إلى النعيم واللهو ، والمجون ، وانحبسوا فى مخادع الحريم والغلمان . فلانت قناتهم ، وذابت صلابتهم ، وانطفأ وهجهم وصدئت سيوفهم من طول ما نامت فى أغمادها ، ففقدوا مبرر وجودهم ، ولم يبق منهم سوى ثياب مزركشة مضحكة ، وخيول مطهمة ، وسيوف مطعمة بالماس والزمرد ، وكلها أشياء تصلح للعرض فى المتاحف ولا تصلح لمواجهة تطورات العصر الحديث .

وقبل أن يفنى المماليك على يد محمد على . كانت عوامل الفناء الذاتى قد حكمت عليهم بالموت البطىء . لقد ظنوا أن العالم سوف يتوقف عند اللحظة التى شهدت

أمجادهم ، وتقوقعوا داخل شرنقة الغرور والاستعلاء والجهل ، وما دروا أنهم صنعوا أكفانهم بأيديهم ، ودخلوا مرحلة الفناء البطىء ، حين تجاهلوا حركة التاريخ . . فلما أجهز عليهم محمد على ، لم يجدوا أحدا يبكى عليهم أو يأسف على مأساتهم .

إنها عبرة التاريخ لمن يريد أن يعتبر .

عبد مأمور

كان محمد بك الدفتردار ، أحد السواعد القوية التى اعتمد عليها محمد على فى تثبيت حكمه ، وتشديد قبضته على الشعب المصرى ، وقام فى هذا السبيل بدور لا يقل كفاءة عن الأدوار التى قام بها إبراهيم باشا أكبر أبناء الوالى ، والكتخدار محمد لاظوغلى نائب الوالى ، وصالح قوش بطل مذبحة القلعة ، وغيرهم من أركان النظام الجديد ، وكلهم جاءوا برفقة محمد على ، جنودا فى جيش الاحتلال العثمانى الذى وصل مصر فى فترة الفوضى التى أعقبت خروج الحملة الفرنسية ، ولكنهم لم يخرجوا من مصر أبدًا . . وأصبحوا سادة البلاد والمتحكمين فى مصيرها على مدى قرن ونصف قرن من الزمان .

وكان محمد الدفتردار وحشا كاسرا ، يحمل بين جنبيه قلبا صخريا ، لا تعرف الرحمة أو الشفقة سبيلا إليه ، كان عاشقا للدماء . يطرب لمشهد الرءوس وهى تطير فى الهواء . ولا يتورع عن ارتكاب أبشع المذابح لأوهى الأسباب ، فكان مجرد ذكر اسمه يثير الفزع والرعب فى نفوس سامعيه . وكان محمد على يستخدم هذا النوع من البشر ، لفرض سيطرته وإحكام قبضته على ربوع مصر ، ومنع المصريين من التمرد على نزعته الاستبدادية ، فجعله من خاصته المقربين ، ولكى يضمن ولاءه إلى الأبد زوجه ابنته زهرة هانم ، فأصبح واحدا من أعضاء الأسرة المالكة .

وحدث أن كان الدفتردار يطوف على بعض القرى ، عندما تقدم منه فلاح بائس عارضا شكواه ، فقال : لقد تأخرت عن سداد الضريبة المستحقة على وقدرها ستون قرشا ، ولكن ناظر الأرض أبى إلا الدفع ، فاستولى على بقرتى الوحيدة ، وأمر جزار القرية بذبحها ثم قسمها ستين جزءا وأمر بتوزيعها على الفلاحين بواقع قرش واحد للجزء ، وأعطى الجزار رأس البقرة لقاء عمله ، وبعد أن جمع المبلغ ، مضى وتركنى

دون أن أتذوق حتى ولو قطعة واحدة من لحم البقرة التى كنت أعتمد عليها فى زراعتى . . وكانت تساوى ضعف المبلغ الذى جمعه .

فلما فرغ الفلاح من قصته ، مضى الدفتردار إلى القرية ، وأطلق المنادى يطلب من أهلها التجمع فى الجرن . والتف الفلاحون فى شبه حلقة . بينما بعث الدفتردار فى استدعاء الناظر والجزار الذى ذبح البقرة ، ثم أمر الجند بتكبيل الناظر بالحبال وإلقائه فى وسط الحلقة ، وتوجه بالحديث إلى الجزار قائلا : كيف سمح لك ضميرك بذبح بقرة هذا الفلاح المسكين وهى كل ما يملك من حطام الدنيا ؟! فارتعد الجزار ولكنه تمالك نفسه وقال للدفتردار : إنى يامولاى ، عبد مأمور . . ولم أفعل سوى ما أمرنى به الناظر . . فسكت الدفتردار برهة كأنها دهر ، وألقى بسهام نظراته النارية على الناظر المطروح أرضا . وقال للجزار : لو أمرتك بأن تذبح الناظر مثلما ذبحت البقرة . . فهل تفعل . . ؟ فقال الجزار على الفور : لقد قلت ياMولاى إنى عبد مأمور . أطيع الأوامر التى تصدر إلى من سادتى . . عندئذ انتصب الدفتردار واقفا وصرخ فى وجه الجزار : إذن فإنى آمرك أن تذبح هذا الوغد . . فخف الجزار مسرعا وأخرج السكين من جيبه ، وانقض على رقبة الناظر ، فحزها حتى فصل رأسه عن جسده . . وساد الوجوم أهل القرية . . وجمدت الدماء فى عروقهم ، وظلوا واقفين مذهولين أمام هذا المشهد الرهيب . . وبعد أن فرغ الجزار من مهمته ، نهض منتظرًا باقى الأوامر . فقال له الدفتردار : والآن آمرك أن تقطع جثته ستين إربا . . ما عدا الرأس . . ومضى الجزار فى تنفيذ الأمر بهمة ونشاط حتى فرغ من تقطيع الجثة ستين إربا . . وهنا التفت الدفتردار نحو أهالى القرية صارخا : على كل منكم أن يشترى قطعة ويدفع قرشين . . وصدع الأهالى بالأمر . . أخذ كل منهم قطعة من لحم الناظر ، ووضع قرشين . فلما تجمع مبلغ مائة وعشرين قرشا ، تناولها الدفتردار. ودفع بها إلى الفلاح المنكوب ليشترى لنفسه بقرة جديدة . . ثم التفت إلى الجزار وقال : « كما أنك أخذت رأس البقرة جزاء لك على تعبك ، خذ بالمثل رأس الناظر جزاء لك على تعبك فى ذبحه وتقطيعه . . وانطلقت منه ضحكات قطيعة كأنها زلزال مدمر . . ثم نهض وغادر القرية ، ومن خلفه جنوده . . بينما أهل القرية ذاهلون . . وكأنهم يشهدون كابوسا كريها . .

لقد ظن هذا الوحش البشرى ، أنه أقام عدلا ، ومحا ظلما . . !! وما درى أن العدل الذى يتحقق عن طريق الإرهاب والعنف هو عين الظلم .

سياسة بلا أخـلاق

كان أمير البحر ، أحمد فوزى باشا ، قائدًا للأسطول التركى ، فى الوقت الذى بلغ الصدام فيه ذروته بين مصر وتركيا . كان محمد على قد أذاق الجيوش التركية مرارة الهزائم المتوالية فى الشام والأناضول . وباتت القوات المصرية على مرمى حجر من عاصمة الإمبراطورية العثمانية ، فزلزلت دعائمها وهددت بزوالها . وفى هذا الوقت الحرج مات السلطان محمود ـ سلطان الأتراك ـ وخلفه غلام فى السابعة عشرة ، اسمه عبد المجيد ، أسلم زمام الدولة إلى خسرو وعينه صدرا أعظم . والمصريون يذكرون هذا الرجل ، الذى جاء إلى مصر واليا من قبل الدولة العلية ، مع بداية ظهور محمد على ، ولكنه فشل فى اقتلاعه من مصر ، فعاد إلى بلاده خائبًا وهو يقطر حقدًا على محمد على .

وكما جرت عليه العادة فى دول الشرق منذ القدم ، فإن فترات الانتقال من حاكم إلى حاكم تكون نعمة على البعض ، مثلما هى نكبة على البعض الآخر ممن لا يكون هواهم مع النظام الجديد . فتعمل الدسائس والمؤامرات عملها فى الإيقاع بهم وتصفيتهم جسديا وسياسيا . وكان القبودان أحمد فوزى باشا من هؤلاء الذين يتوقعون الشر من جانب خسرو باشا بسبب (خصومة) قديمة بينهما . لذلك لم يكد فوزى باشا يتلقى أمر استدعائه إلى الآستانة حتى أوجس فى نفسه خيفة ، وأدرك أنه إما مقتول وإما معزول . فأشار عليه بعض أعوانه بفكرة اللجوء إلى مصر وتسليم الأسطول التركى إلى محمد على غنيمة خالصة ، فينال حظوته ويضمن لنفسه موقعا أثيرا فى دولة النجم الصاعد . واستحسن الرجل الفكرة فأقلع بالأسطول الضخم سرا من مياه الدردنيل إلى الإسكندرية ، وعلى ظهره أكثر من ٢١ ألف بحار وجندى .

واستقبل محمد على الأسطول التركى بالحفاوة والترحاب ، فبانضمامه إلى البحرية المصرية أصبحت مصر أقوى دولة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط . ولقى فوزى باشا عند سيده الجديد الحظوة التى كان يتوقعها .

ولكن الرياح لم تجر بما كان يشتهى أمير البحر التركى ، ولا بما كان يتمنى محمد على ، فقد لعبت الدول الأوربية ـ بزعامة إنجلترا ـ لعبتها المعروفة لإجهاض نهضة محمد على وقصقصة أجنحته التى امتدت إلى الحجاز وفلسطين وسوريا والمورة والأناضول ، وأسفرت المؤامرة الأوربية عن إبرام معاهدة لندن التى أعادت الجيوش المصرية إلى معاقلها الأصلية . وبعدها أصدر السلطان العثمانى فرمانا ينظم شكل العلاقة الجديدة بين مصر ودولة الخلافة . وكان من بين بنوده إعادة الأسطول التركى والعفو عن جميع رجاله باستثناء القبودان أحمد فوزى باشا . فكان لابد من تسليمه حتى يلقى جزاء خيانته .

وأسقط فى يد محمد على ، فلا هو يستطيع مقاومة أمر السلطان ومن خلفه الدول الأوربية المتحفزة ، ولا هو يستطيع تسليم الرجل الذى التجأ إليه فتضيع هيبته أمام أتباعه ، ومعظمهم من الترك . وشعر السلطان بحرج موقف محمد على ، وأراد أن يسهل عليه الأمر ويخرجه من المأزق ، فبعث إليه بأنه ليس من الضرورى تسليم القبودان الخائن حيا . . فالمهم أن يدفع ثمن خيانته سواء فى مصر أو فى الآستانة . . فكلها بلاد السلطان . وفهم والى مصر مغزى الإشارة ، فنهض من فوره إلى خزانته الخاصة ، وأخرج منها قنينة سموم صغيرة ، واستدعى أحد خاصته وأعطاه القنينة وكلفه بمهمة التفاهم مع فوزى باشا لإخراج والى مصر من ورطته .

وذهب الرسول إلى قصر فوزى باشا ، وأخذ يلاطفه ويحدثه حديثا عن متاعب الحياة الدنيا وكيف أن متاعها زائل . . وأن النعيم الحقيقى فى الحياة الأخرة ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، وأنه يحسن بالمرء أن يكون مستعدا لمقابلة وجه ربه الكريم فى أية لحظة يشاء الله فيها أن يستدعيه إليه . وما أسهل الموت إذا جاء للإنسان فى جرعة ماء أو فنجان قهوة . . !! وفهم القبودان معنى الكلام ، فقام فتوضأ وصلى العصر وختم الصلاة بالدعاء والاستغفار . . ثم التفت إلى فنجان القهوة المسمومة فتجرعها فى صبر واستسلام وهو يهذى بالتركية : قسمت . . قسمت . . !!

شارع سليمان باشا

لا يُذكر تاريخ « الجهادية » المصرية ، إلا مقترنا باسم محمد على الكبير مؤسس مصر الحديثة ، ومعه سليمان باشا الفرنساوى ساعده الأيمن فى بناء أول جيش مصرى صميم ، منذ انحلت الفيالق المصرية فى أواخر عصر الفراعين ، وسقوط مصر تحت سنابك الغزاة .

ألفان من السنين عاشها المصريون محرومين من شرف الجندية ، لا يحملون سلاحا يدافعون به عن وطنهم ، فقد أراد لهم حكامهم أن يحملوا ـ فقط ـ الفئوس . حتى باتت كلمة ، فلاح ، مرادفة لكلمة « مصرى » فى قاموس الشراذم الأجنبية التى تكالبت على مصر كما تتكالب الأكلة على قصعتها . . !

بقى هذا الحال المهين إلى أن ظهر محمد على ، على مسرح الحياة المصرية ليحرك ركودها ، ويدفع الدماء الفتية فى عروقها التى تجمدت بفعل القهر والطغيان والجهل والانفلات . . ورأى هذا الثعلب العبقرى أن أول خطوة فى بناء دولة مصر العالمية إنما تبدأ من بناء جيش نظامى حديث على نمط الجيوش الأوربية التى تعالى صليلها خلال الحروب النابليونية . وجرب محمد على أن يجعل من (الباشبوزق) وهم أخلاط من الأرناءوط والشركس والدلاة ـ نواة الجيش النظامى . ولكن هل يستطيع من نشأ على الفوضى والشغب والتمرد والخيانة والغدر أن يخضع لأصول الطاعة والنظام والضبط والربط واحترام القيادة . . ؟!

مستحيل . . .

وفشلت التجربة فشلا كاد يطيح بمركز محمد على نفسه . . فاتجهت أنظاره إلى الفلاحين . .

هل استقرأ محمد على نبض التاريخ ، فتذكر أمجاد الجيش المصرى أيام كان يصول ويجول فى تخوم الشرق تحت رايات أحمس وتحوتمس ورمسيس . . ؟ !

لا أظن . . فلم يكن عزيز مصر من أولئك الحكام الذين يحبون الثقافة واستقراء التاريخ . ولكن من المؤكد أنه كان خبيرا فى كشف معادن الرجال . . فأدرك بفراسته أن هذا الفلاح الخامل سوف يأتى بالأعاجيب إذا تهيأت له الظروف الصالحة . .

وبدأ محمد على من نقطة الصفر . .

وساقت إليه الأقدار ضابطا فرنسيا من بقايا حروب نابليون ، اسمه الكولونيل (سيف) ، فعهد إليه العزيز بمهمة تكوين النواة الأولى من الضباط الذين سوف يعاونونه على تدريب الجنود المصريين . واختار له ٥٠٠ من خاصة مماليكه ليبدأ بهم، واختار له أسوان لتكون (وكرا) لهذه المهمة العويصة ، بعيدًا عن مؤامرات الباشبوزق ومقاومتهم لكل جديد . واستغرقت عملية التدريب ثلاث سنوات ذاق خلالها (سيف) الأمرين لتطويع هذه العناصر الفوضوية وتهذيبها . . واعتنق (سيف) الإسلام وأصبح اسمه (سليمان) فزال الحاجز النفسى بينه وبين تلاميذه الضباط ، وأظهر لهم من ضروب الشجاعة والصبر وسعة الصدر ما جعل حقدهم عليه ينقلب إلى حب واحترام وإجلال .

* * *

حدث مرة أن دبر تلاميذه مؤامرة لاغتياله ، أثناء التدريب على ضرب النار فأطلق أحدهم عليه رصاصة مست أذنه وأطاحت بقبعته ، وبدلا من أن ينتقم سليمان من القاتل ، أمسك بالبندقية واتخذ مكان القاتل فى الصف وأخذ يصوب الرصاص نحو الهدف وهو يردد : هكذا يكون التصويب ياغبى . . ! وكان من الطبيعى أن تترك هذه التصرفات النبيلة أثرها فى تلك النفوس الصخرية . فأذابت من جمودها وغرورها .

وبعد تكوين الدفعة الأولى من الضباط بدأت عملية البحث عن الجنود ، وكان من الطبيعى أن تلقى دعوة التجنيد نفورًا وكراهية من المصريين ، لبعد المسافة الزمنية بينهم وبين هذا الواجب الوطنى ، فضلا عن الطريقة البشعة التى سلكها زبانية

محمد على لجمع الفلاحين ؛ إذ كانوا ينقضون على القرى الآمنة كالوحوش الكاسرة ويأسرون كل من يقع فى أيديهم من الرجال والنساء والأطفال ، ويسوقونهم فى الحبال إلى معسكرات التجنيد فى المدن .

ولكن المشروع مضى فى طريقه المرسوم ، وبقى سليمان باشا الفرنساوى على رأس الجيش يعلم ويدرب وينظم وينشئ المدارس الحربية ويستدعى الخبراء من الخارج ويرسل البعوث إلى أوربا ، لتتخصص فى الفنون العسكرية ، ولم يكن سليمان باشا أقل من سيده إعجابا بالفلاح المصرى . ويؤثر عنه قوله « إن العرب (يريد المصريين) هم خير من رأيتهم من الجنود ، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب ، مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان . وهم بقليل من الخبز يسيرون طوال النهار يحدوهم الشدو والغناء . ولقد رأيتهم فى معركة (قونية) يبقون ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جاش تدعوان إلى الاعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية .

وظل سليمان باشا الفرنساوى يواصل مهمته الجليلة حتى عصر سعيد باشا . ودخل فى نسيج المجتمع المصرى . فتزوجت إحدى بناته بمحمد شريف باشا (أبو الدستور) ، فأنجب منها فتاة تزوجت عبد الرحيم صبرى باشا ، وأثمر هذا الزواج فتاة هى ملكة مصر السابقة (نازلى) أم الملك الراحل فاروق .

وتقديرا من المصريين لهذا الرجل الذى يرجع إليه الفضل فى بناء أول جيش مصرى صميم ، أقاموا له تمثالا فى الميدان المسمى باسمه ، وأطلقوا اسمه على أحد شوارع القاهرة ، فلما قامت ثورة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ أطاحت بالتمثال وألقت به فى ساحة المتحف الحربى . ونزعت اسمه من الميدان والشارع ، وأطلقت عليهما اسم طلعت حرب ، ومع ذلك لا يزال المصريون يفضلون استعمال اسم (شارع سليمان) ربما لأنه أسهل . . وربما وفاء منهم لذكرى هذا الرجل العظيم .

قتيل بنها العسل

كان عباس الأول أسوأ حكام أسرة محمد على ، بل أسوأ الحكام الذين توالوا على ملك مصر . . كان يجمع بين الجهل والغباء . . وتنطوى نفسه على شر دفين ، نحو كل الناس ، بمن فيهم أهله والمحيطون به ، حتى انفض من حوله معظم أفراد الأسرة العلوية هربا برقابهم من أن تنالها سيوف الوالى .

حكم عباس الأول مصر ست سنوات ، كانت ديجورا داكنا ، ليس فيه خيط نور . . وقد تولى الحكم فى حياة جده محمد على ، بعد وفاة عمه البطل المغوار إبراهيم باشا . . ورغم أن عمه سعيدًا كان من أولاد محمد على ـ إلا أن نظام الوراثة الذى فرضه الإنجليز والعثمانيون على محمد على بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، كان يقضى بأن يكون الحكم لأكبر أفراد الأسرة سنا . . وشاء الحظ العاثر أن يكون كبير القوم أجهلهم وأغباهم . . وهذا أكبر دليل على فساد نظام توريث الحكم . . فمن يضمن ألا يكون الوريث فاسدًا متلافا ، يبدد ثروة لم يتعب فى جمعها . ويهدم ما بناه أسلافه ؟! وهذا ما فعله عباس ، إذ أغلق المدارس والمصانع والمؤسسات التى بناها جده . واستدعى البعثات التى كانت تتلقى العلم فى أوربا . . واستدار نحو العلماء الذين رباهم محمد على ـ ومنهم رفاعة الطهطاوى ـ فشتت شملهم ، ونفاهم إلى أقاصى السودان ليأمن « علمهم » . . !

* * *

وكان عباس الأول مثل الخفافيش . . يكره النور . . ويستوحش من الناس . ولا يتحرك إلا فى الظلام . . فهجر القاهرة وأقام لنفسه عدة قصور فى بطون الصحراء . كان أضخمها قصرًا فى العباسية ـ وكانت فى ذلك الوقت صحراء موحشة ـ كما بنى قصرا فى صحراء السويس . وقصرا فى العطف . وقصرا على النيل فى بنها

العسل . . وهو القصر الذى لقى فيه مصـرعه . . وكان يأوى إلى تلك القصور ليبتعد عن الناس ، ولا يحيط به إلا شرذمة من العبيد والغلمان . .

وقد اختلفت الروايات فى مؤامرة مقتل عباس . فمن قائل إن عمته الأميرة زهرة ـ أرملة محمد بك الدفتردار ـ هى التى دبرت المؤامرة من منفاها فى تركيا وكانت تعرف شغف ابن أخيها بالغلمان ، فدست له غلامين جميلين كلفتهما بالسفر إلى مصر والتحايل على الالتحاق بخدمته وقتله . فلما جاء الغلامان إلى القاهرة ، عرضا نفسيهما فى سوق الرقيق . وكان لعباس وكيل متخصص فى شراء الغلمان المرد . فما إن وقع بصره عليهما حتى اشتراهما وألحقهما بخاصة الأمير . . وكان من عادة عباس أن ينام فى حراسة غلامين . فلما جاء الدور على هذين الغلامين ، انتظرا حتى غط فى النوم ، ثم دخلا عليه وأخمدا أنفاسه ، ثم أسرعا إلى الهرب إلى الإسكندرية ، ومنها إلى إستانبول ، قبل اكتشاف الجريمة . وهناك قبضا ثمن المهمة من عمة الأمير .

وهناك رواية أخرى ، تقول إن مقتل عباس ، كان جزءا من مؤامرة من مؤامرات القصور التى كانت شائعة فى ذلك العصر . وخلاصة القصة ، أن عباسا كان يصطفى بعض عبيده المقربين ، ويغرق عليهم الرتب العسكرية والأراضى الشاسعة على غير كفاءة يستحقونها . وكان على رأس هذه الشرذمة مملوك اسمه خليل بك درويش ، ولكنه ، بدافع الغطرسة والغرور ، أساء معاملة مرءوسيه ، فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة أنه كان جميلا صغير السن . فشكاهم إلى مولاه ، فأمر بجلدهم وتجريدهم من الوظائف العسكرية ، وألحقهم بخدمة الإسطبلات . ولجأ هؤلاء المنبوذون إلى مصطفى باشا ، أمين خزانة الأمير ، ليتوسط لهم عنده . فانتهز فرصة قدوم الوالى إلى قصر بنها ، ومعه أحمد يكن باشا وإبراهيم باشا الألفى محافظ القاهرة ، ورجاهما التوسـط لدى الوالى ليعفو عن أتباعه ، فاستجـاب عباس لهما وعفا عنهم وأعادهم إلى مناصبهم ، فجاءوا إلى بنها ليرفعوا له تشكراتهم وهم يضمرون قتله . فاتفـقوا مع غلامين من خاصـة عباس ، كانا يحرسانه وهو نائم ففتحا لهم الباب ودخلوا غرفة الأمير فشعر بهم وحاول المقاومة . . ولكنهم تكالبوا عليه حتى تمكنوا من خنقه ثم لاذوا بالفرار . . فلما كان الصباح ولم يستيقظ الوالى فى موعده ، دخل عليه يكن باشا والألفى باشا فوجداه مخنوقا فى فراشه . فكتما الخبر ثم نقلا جثمانه إلى القاهرة ، وهناك أعلن خبر قتله . فتنفس الناس الصعداء وأحسوا بارتياح شديد ، كأن كابوسا ثقيلا أنزاح من فوق صدورهم . . .

النبأ السعيد

لما اشتدت وطأة المرض على والى مصر محمد سعيد باشا ، نصحه أطباء أوربا بالعودة إلى بلاده ليلفظ فيها أنفاسه ، بدلا من البهدلة فى بلاد الفرنجة واستجاب سعيد لنصيحة أطبائه ، وعاد إلى قصره بالإسكندرية ينتظر ملك الموت بين لحظة وأخرى . ولم يكن إسماعيل ـ وريثه على العرش ـ أقل استعجالا لنهاية عمه ، حتى يستريح من الآلام المبرحة ، ويقفز هو إلى عرش المحروسة . وذاعت أخبار احتضار الوالى فى أنحاء البلاد . . وبدأت الأنظار تنصرف عن الشمس الغاربة فى مياه الإسكندرية ، وتتجه نحو قلعة القاهرة حيث يقيم الوالى المنتظر . وأخذت زرافات المتفعين والوصوليين ومحترفى السلطة تتحرك نحو القلعة ، ترقب النجم الصاعد . . وتحجز لنفسها مكانا فى دولة إسماعيل المقبلة .

* * *

وكان من عادة ذلك الزمان ، أن يتعطف الحاكم الجديد بالإنعام برتبة البكوية على أول شخص يحمل إليه نبأ الولاية ، أو برتبة الباشوية إن كان يحمل رتبة البكوية . . فضلا عن صرة من العملات الذهبية . وكان رئيس مكتب التلغراف بالقاهرة ـ ويدعى بسى بك ـ يعرف هذا التقليد فكان أشد الناس تحرقا إلى تلقى نبأ موت الوالى سعيد ، فيكون أول من يزف (النبأ السعيد) إلى إسماعيل . . وظل الرجل مرابطا فى مكتبه لا يغادره ليلا ولا نهارًا ، وبين الحين والآخر يتصل بزميله رئيس مكتب تلغراف الإسكندرية يستعجله الخبر . ومرت الأيام والليالى . والمسكين لا يذوق طعم النوم حتى أوشك على الانهيار . ثم خطر له أن يتمدد لبضع دقائق يختطف فيها قسطا من الراحة ، حتى يتمكن من مواصلة العمل . فاستدعى معاونه

ـ وكان رجلا خبيثا ـ وقال له : أنت تعرف طبعا ياعزيزى أهمية خبر وفاة الوالى وتعرف أنه سيعود علينا بالخير العميم .

قال المعاون فى بلاهة أجل أعرف ياسيدى . .

قال بسى بك : وتعلم أننى لم أذق طعم النوم منذ أيام .

قال المعاون : أجل أعلم . .

قال بسى بك : إذن سوف أدخل إلى مكتبى لأغفو قليلاً . . إذا جاء النبأ السعيد فما عليك إلا أن توقظنى فورًا . . وسيكون لك عندى مكافأة ٥٠٠ فرنك .

* * *

وقبل المعاون العرض . ودخل بسى بك إلى مكتبه ، وهو بملابس الشغل فاستلقى على أريكة جلدية قديمة . وراح فى سبات عميق . . وما هى إلا دقائق حتى تلقى المعاون نبأ موت الوالى سعيد . فأمسك بالبرقية وفتح باب غرفة رئيسه فوجده يغط فى النوم ، وأصوات شخيره تزلزل أركان الغرفة . . فأوصد عليه الباب وانطلق من فوره إلى القلعة . وكشف للحراس عن مهمته ، فذهبوا به إلى القصر وأدخله رجال البلاط إلى القاعة الرئيسة حيث كان إسماعيل يترقب وصول النبأ السعيد . . وتقدم الموظف جاثيا على ركبتيه ، وهو يرفع البرقية إلى الوالى الجديد . . فما إن قرأها إسماعيل حتى طفرت من عينيه دموع الفرح . . وسقطت البرقية من يده فالتقطها المعاون وهو لا يزال جاثيا فى انتظار المكافأة . . وأقبل رجال البلاط والحاشية يزفون التهانى إلى ولى النعم . . وتلفت إسماعيل ، فوجد الموظف لا يزال راكعا شاهرا البرقية فى يده . . فتبسم ضاحكا من إصراره وقال له : انهض يابك . . ونهض المعاون . . وقدم له أحد رجال القصر الصرة الذهبية فأخذها . . ثم غادر القصر عائدًا إلى مكتب التلغراف ، وتذكر المكافأة الموعودة من رئيسه . وبلغ به الجشع أن رفض التغاضى عنها ، بالرغم من أنه أصبح من حملة العملات الذهبية . فدخل على بسى بك وأيقظه من نومه ، وقدم إليه البرقية وكأنه تلقاها على التو . . ونهض الرجل وهو يهتز طربا . . وانهال على معاونه تقبيلا . . وهم بالخروج فى طريقه إلى القلعة ولكن المعاون ذكره بالمكافأة . . فأخرج المسكين كل ما فى جيبه من نقود مصرية وتركية وفرنسية ، ودسها فى جيب المعاون . . وانطلق من فوره إلى القلعة

والبرقية فى يده وهو يمنى نفسه برتبة الباشوية ، وبالصرة التى سترفعه من زمرة الموظفين التعساء إلى صف الموسرين السعداء . ولكن ما إن بلغ مشارف القلعة حتى سمع دوى المدافع ابتهاجا بتولية إسماعيل . وبهت المسكين ، واقترب من أحد رجال البلاد يستفسره النبأ ، فأبلغه بما حدث من معاونه . . وصعق الرجل من هول الخيانة التى ارتكبها مساعده ، وقفل عائدًا إلى مكتبه حزينًا كسيفا ، ناقما على الرجل الذى خدعه مرتين : مرة عندما انفرد بصرة الذهب . . ومرة عندما سلب منه المكافأة التى لا يستحقها . فلما بلغ المكتب ، وحاول تعنيف معاونه الخبيث . حذره الأخير من التطاول عليه باعتباره (زميل) ويحمل نفس الرتبة التى يحملها هو . . فقد تساوت الرءوس (ومفيش حد أحسن من حد) . . واستفاق الرجل من هول الصدمة . . وأخذ يلعن نفسه لأنه وضع ثقته بإنسان ليس أهلا للثقة .

حادث على النيل

كانت زيارة السلطان عبد العزيز ، خليفة المسلمين وإمبراطور الدولة العثمانية لمصر عام ١٨٦٣ حدثا جليلا ، لا تزال ذكراه ماثلة فى الشارع الذى يحمل اسم «عبد العزيز » والممتد بين ميدان العتبة وميدان عابدين ، وظل أحد أهم شرايين الحركة التجارية فى القاهرة ، حتى منتصف القرن الحالى . وكانت هذه أول زيارة يقوم بها سلطان عثمانى لمصر ، منذ افتتحها سليم الأول بقائم سيفه عام ١٥١٧ ، وتحولت مصر من يومها إلى إيالة تركية يحكمها وال قادم من الآستانة ، بعد أن كانت دولة مستقلة ذات نفوذ وسلطان يمتدان شمالا إلى حلب ، وجنوبا إلى منابع النيل ، وشرقا إلى اليمن والخليج .

وقد أراد الخديو إسماعيل أن يجعل من زيارة سيده الخليفة فرصة يشاهد خلالها معالم الحضارة المصرية الحديثة ، وفى طليعتها قطار السكة الحديدية ، الذى استقله السلطان هو وحاشيته من الإسكندرية إلى القاهرة ، فانبهر به انبهارًا عظيمًا ، إذ كانت المرة الأولى التى يرى فيها السلطان مثل هذه الأعجوبة التى تتحرك على قضبان من الحديد ، وتختصر المسافات ، وتطوى الزمن ، فى عصر كانت السيادة فيه للبغال والخيول . وأخذ السلطان هو وأمراء البيت العثمانى ، يتفقدون أجزاء القاطرة ويسألون عن كل صغيرة وكبيرة ، ويستمعون إلى شرح مفصل من مهندس القاطرة وسائقها ، عن كيفية حركتها ، وإيقافها ، ثم يستمعون فى شغف إلى صفارتها الحادة التى تنطلق لتنبه الناس إلى حركتها ، فيفسحوا لها الطريق .

فلما جاء موعد تحرك القطار ، استقل السلطان صالونه الخاص ، بينما جلس الخديو فى مقعد مجاور ، ليكون تحت إذنه فى أية لحظة . وركب باقى الأمراء العثمانيين

والمصريون فى عربات القطار الذى أخذ يقطع سهول الدلتا الممتدة عبر الأفق . وأخذ السلطان يرسل الطرف بعيدًا بعيدًا إلى الحقول الخضراء تتخللها الفنوات والترع . . والفلاحون المصريون أنصاف عرايا . وقد انحنت أصلابهم على الطين . . إنهم نفس الفلاحين الذين اجتاحتهم جيوش الإسكندر وقمبيز وقيصر ولويس التاسع وسليم الأول . فما نالت من صلابتهم ووداعتهم وارتباطهم الوثيق بالأرض التى خرجوا منها . . لقد اندثر الطغاة والمتجبرون ، أو ذابوا فى طين مصر بمن فيهم الاتراك . . وبقى المصريون يفلحون الأرض ويستخرجون السنابل وينشرون الأمن والسلام على العالم .

* * *

فلما بلغ القطار كوبرى كفر الزيات ، أبدى السلطان عبد العزيز هو وحاشيته إعجابهم ببنائه ، وأخذوا يعظمون من شأنه . ويبالغون فى تقدير نفقاته . ولكن إسماعيل قال للسلطان : إن تكاليف بنائه لم تتجاوز سبعة ملايين فرنك . . وأخذ البرنس حليم ، أصغر أنجال محمد على ، يروى للضيوف قصة نجاته من الغرق قبل خمس سنوات ، حين سقطت به العربة من الكوبرى حتى غاصت فى النيل . وكان يشاركه فيها الأمير أحمد رفعت ، ابن أخيه البطل الشهير إبراهيم باشا ، والوريث الشرعى للعرش بعد الوالى سعيد . ولكن رفعت لم يتمكن من الإفلات من العربة بسبب بدانته المفرطة ، فمات غريقا . وبذلك انتقلت وراثة العرش تلقائيًا إلى أكبر الأمراء سنا : إسماعيل . .

ومن المؤكد ، أن إسماعيل لم يكن مبتهجًا ، وهو يستمع إلى تفاصيل هذه المأساة التى كانت تثير الأقاويل حول دور إسماعيل فى تدبيرها ، كى ينفسح أمامه الطريق إلى العرش . وقد اختلفت الروايات بشأن تفسير هذا الحدث . فمن قائل إن الكوبرى ترك مفتوحا سهوا فلما بلغ القطار بداية الكوبرى لم يتمكن السائق من إيقافه ، فانزلق بركابه حتى غاص فى قاع النيل . ولكن إلياس الأيوبى ، المؤرخ المتخصص فى تاريخ عصر إسماعيل ، يرفض هذه القصة ، لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد تم إنجازه نهائيا وقت وقوع الحادث ويفضل الأخذ برواية بعض الكتاب الغربيين الذين أرخوا لهذا الحادث ، ومنهم « ماك كون » و « إدون دى ليون » .

وخلاصة القصة ، أن القطارات كانت فى ذلك الوقت تجتاز النيل عند كفر الزيات فوق معدية تنقل عرباتها ثلاثا ثلاثا . . وكانت مصلحة السكة الحديدية تترك للركاب حرية الاختيار بين النزول من العربات ، أثناء نقلها ، اتقاء للخطر ، أو العبور فيها . ولكن الأميرين حليم ورفعت ـ وكانا فى عربة واحدة ـ أبيا النزول من العربة وفضلا البقاء فيها أثناء العبور فوق المعدية . وبالغ العمال المكلفون بدفع العربة فى دفعها بقوة ، إظهارًا لنشاطهم وشهامتهم وغيرتهم . . فتدحرجت العربة وانزلقت ، وغرقت بمن فيها . وكان الأمير رفعت بدينا فلم يستطع الوثوب من نافذة العربة إلى الماء ، فأخرج منها ميتا مخنوقا . وأما حليم ، فكان خفيف الجسم ، فإنه وثب من النافذة إلى الماء واجتازه سباحة .

* * *

أما الشبهات التى تثور حول تآمر إسماعيل ، فمنشؤها أن إسماعيل كان من المفترض أن يشارك الأميرين مركبة الموت . . فقد كان الأمراء الثلاثة يقضون الليلة السابقة فى ضيافة الوالى سعيد باشا بالإسكندرية . وكان برنامج الرحلة يقضى بأن يعودوا معا للقاهرة بالقطار . ولكن إسماعيل تخلف فجأة عن مصاحبتهما ، وأعرب عن رغبته فى البقاء بالإسكندرية لبضعة أيام . . وكان تخلفه هذا مثيرًا للشكوك والظنون . . ولم يستطع إسماعيل أن يمحو هذه التهمة التى علقت به ، وكانت سببا فى حدوث القطيعة بينه وبين عمه حليم ، الذى خسر المعركة ، وأفلح إسماعيل فى نفيه من مصر . ولاشك أن هذه الشكوك شجعت إسماعيل على تغيير نظام وراثة العرش . فاستغل وجود السلطان فى ضيافته . وقدم إليه الرشا والهدايا الفاخرة حتى انتزع منه فرمانا يجعل ولاية العهد فى أكبر انجال الخديو . . فكان أغباهم وأضعفهم وأتعسهم . . محمد توفيق .

ثائر من الأزهر

وضع الخديو إسماعيل بعض مشايخ الأزهر ضمن علية المصريين ، الذين يتشرفون بالمثول أمام السلطان عبد العزيز ، خلال زيارته التاريخية لمصر المحروسة . ووقع الاختيار على أربعةمن أكابر العلماء ، لكى يستقبلهم السلطان فى قصر القلعة . ولا يتبادر إلى الذهن أن هذا اللقاء ، يعنى أن يجلس السلطان مع العلماء ويتبادل معهم الحوار فى شئون الإسلام والمسلمين ! لم يكن اللقاء يتضمن شيئا من ذلك ، لأن خليفة المسلمين لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة ، وإن المقابلة لم تكن تتعدى دخول العلماء القاعة السلطانية ، لإلقاء التحية على السلطان ، ثم يعودون من حيث أتوا وهم ركوع . . !

وكانت المشكلة التى أقلقت إسماعيل ، هى كيفية تعليم المشايخ الأربعة أصول وقواعد المثول بين يدى خاقان البرين وملك البحرين وخادم الحرمين الشريفين وكان البروتوكول التركى من التشدد بحيث يلزم الداخلين على السلطان ـ بمن فيهم شيوخ الإسلام ـ بالانحناء وتطويح الأيدى حتى تلامس الأرض ثم رفعها إلى مستوى الرأس . . ثم التقهقر نحو الباب ، وهم على هذه الحال المهينة . وطلب الخديو من قاضى القضاة التركى ، أن يتكفل بتدريب الشيوخ الأربعة على هذه الحركات البهلوانية . فأفهمهم فضيلته أن المقابلة ستكون فى قاعة يقف السلطان فى صدرها على منصة مرتفعة عن الأرض قليلاً . بينها وبين باقى القاعة حاجز مفتوح من وسطه ، وأنه ينبغى لهم إذا ما بلغوا الباب ووقعت أعينهم على جلالته أن ينحنوا انحناء عظيماً ، ويسلموا بكلتا اليدين حتى تمسا الأرض . ثم يتقدم كل منهم نحو فتحة الحاجز بخطوات موزونة حتى إذا صار أمامها كرر الانحناء والتسليم ووقف .

ويرد السلطان عليه تحيته . فيعيد حينئذ الانحناء والتسليم مرة أخرى ، ثم يرجع متقهقرًا ووجهه إلى السلطان ، إلى أن يبلغ باب الخروج ، فيكرر الانحناء والتسليم ثم ينصرف مثلما دخل حتى يتوارى عن نظر السلطان .

فلما استغرب العلماء أن تقتصر المقابلة على تلك الحركات من الانحناء والتسليم قال لهم القاضى التركى إن الأمر لكذلك . فقالوا « قد فهمنا » . فلما جاء دورهم فى المقابلات ، دخل ثلاثة منهم وفعل كل منهم ما علمه القاضى أن يفعل . وكان الخديو واقفا خلف السلطان وعينه تراقب تحركاتهم ، ويحمد الله أنهم أدوا أدوارهم بإتقان .

* * *

فلما جاء الدور على الشيخ العدوى ، دخل وانحنى عند الباب مثل السابقين ولكنه سرعان ما رفع قامته وأخذ يمشى نحو السلطان بخطى وئيدة ، وحذاؤه الثقيل يدك البلاط المرمرى ، ولم يعاود الانحناء أو التسليم . . وفزع إسماعيل من تصرف الشيخ الذى خرق البروتوكول ، وأخذ يبحث عمن ينقذ الموقف قبل أن يحدث ما يغضب السلطان ، ولكن الشيخ العدوى مضى فى طريقه نحو الخليفة ، حتى وصل إلى الحاجز فجاوزه . . وصعد إلى المنصة التى يقف عليها السلطان ـ وإسماعيل يتوارى ذعرًا ـ ونظر الشيخ العدوى إلى عبد العزيز بعين ثابتة وقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله » . فوثب قلب الخديو من جرأة الشيخ ، ولولا مهابة السلطان لركل الشيخ وطرده . . ولكن الخليفة ابتسم بلطف ، ورد على الشيخ السلام ، ثم انحنى أمامه انحناءة خفيفة . . حينئذ انطلق لسان الشيخ من عقاله وأخذ يخاطب السلطان فيما يجب عليه نحو رعاياه ، بصفته كبير الحكام وبصفته مسئولا عن شئون الرعية ، وأكد له أن ثوابه عند الله تعالى سيكون بمقدار ثقل المسئولية وحسن أدائه لها ، كما أن عقابه عند الله على قدر إهماله الأمانة .

عندئذ ، امتقع لون الخديو إسماعيل ، وأخذ يلعن الساعة التى اختار فيها هذا الشيخ (المجذوب) . . ويسب من أشار عليه باختياره . . وأخذ يتوقع أن يحاسبه السلطان على تصرف الشيخ العدوى حسابا عسيرا . . ولكن المفاجأة ، أن ملامح الارتياح بدت على وجه عبد العزيز . . فلما فرغ الشيخ من خطبته ، ختمها بالسلام

الذى بدأها به . . ثم انحنى أمام السلطان ، وأقفل عائدًا بوجهه لا بظهره ، كما فعل الآخرون . . وسبحته فى يمينه . . فلما خرج إلى البهو ، وجد زملاءه فى انتظاره وهم يتميزون غيظًا ، ويلومونه على فعلته ، وينذرونه بأوخم العواقب . فقال لهم «ولماذا أنتم منزعجون ؟ ! أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين . وأما أنتم فكأنكم قابلتم صنما وكأنكم عبدتم وثنًا . . » .

ثم التفت السلطان إلى إسماعيل يسأله : من الشيخ ؟ فبادر إسماعيل يعتذر ويقول : « إنه من أفاضل العلماء ، ولكنه أبله ومجذوب » . فقال السلطان : « لا . . إنه ليس مجذوبا . . وإنى لم أنشرح لمقابلة أحد انشراحى إلى مقابلته . . » وأمر للشيخ العدوى بخلعة سنية وألف جنيه جائزة . . !

* * *

ولقد كذب إسماعيل . وصدق عبد العزيز . فلم يكن الشيخ العدوى مجذوبا ولا مجنونا ، كما أراد إسماعيل أن يصفه . ولكنه كان عالما يعرف قدر نفسه ، وقدر العلم الذى يحمله بين جنبيه . وقدر الأمانة التى تفرض عليه أن يكون شجاعا فى حضرة أمير المؤمنين . . وهذه القصة التى نقلها المؤرخ إلياس الأيوبى عن السيد محمد عاشور الصدفى ، سبط الشيخ العدوى ، تؤكد صدق ما نزعم . . ولعل الموقف البطولى الذى اتخذه الشيخ العدوى أثناء الثورة العرابية ، كان أصدق دليل على شجاعته . لقد جرفته أحداث الثورة وشارك فى كل مراحلها مناوئا للظلم والاستبداد وبعد ضرب الإسكندرية وانحياز الخديو توفيق إلى الإنجليز ، كان العدوى أحد الشيوخ الذين أصدروا فتوى أعلنوا فيها مروق الخديو عن الدين لخروجه على الإجماع الوطنى ، ووقوفه فى صف الأعداء . . وبعد فشل الثورة ، عانى الشيخ العدوى ، مثلما عانى كل المخلصين الشجعان ، السجن والضرب والإهانات . . وعرفته غرف السجون والمعتقلات ، ثم قدم إلى المحاكمة ، فحكمت إحدى المحاكم بتجريده من جميع الرتب وعلامات الشرف والامتياز . . فخلعها الشيخ راضيا . . وبقيت له أعلى المراتب فى نفوس الناس . . وسيظل اسم الشيخ العدوى رمزًا لكرامة العلم وشجاعة العلماء فى كل عصر ومصر . .

أفـراح الأنجـال

كان الخديو إسماعيل مصابا بداء الفخفخة ، وحب الظهور ، وهو داء وبيل له مفعول القهار ، إذا تمكن من إنسان ، قضى عليه ودفعه إلى بيع ثيابه . وبرغم الأعمال المجيدة التى قام بها هذا العاهل المستنير ، فإن تصرفاته الخرقاء أكلت حسناته كما أكلت عرشه وألقت به طريدًا منبوذًا فى العواصم الأوربية ، مثل أى مدمن بدد ثروته من أجل المتعة القاتلة .

كان إسماعيل يستدين من الصعاليك والمرابين الأوربيين ، ليقيم حفلات فاخرة يبهر بها أنظار ضيوفه . ويخدعهم بثرائه الكاذب . وكان الأجانب أعلم الناس بحقيقة الوضع المالى للخديو المفلس . فكانوا يأكلون من خيره ويصبون عليه اللعنات لسفاهته وحمقه . وكان إسماعيل مشغوفا بإقامة الحفلات الأسطورية التى جعلت من ليالى ألف ليلة وليلة حقيقة لا خيالا . . وإذا كانت حفلات افتتاح قناة السويس أشهر مظاهر السفه الإسماعيلى . . إلا أن الحفلات التى أقامها بمناسبة «أفراح الأنجال» كانت أكثر بذخا وإسرافًا وأشد خطرًا على المسار الاقتصادى . فقد أقيمت فى وقت انكشفت فيه الخزانة العامة ، وأوشكت على الإفلاس . ولكن إسماعيل تجاهل هذه الحقيقة المؤلمة . وتمكن منه داء حب الظهور . فاستجاب لرغباته المجنونة ، وأخذ ينثر الأموال ذات اليمين وذات الشمال ، وكأنه قارون فى زمانه .

* * *

ففى منتصف يناير ١٨٧٣ ، قرر إسماعيل تزويج أربعة من أنجاله هم : توفيق «ولى العهد» وحسين وحسن وفاطمة ، وأراد أن يجعل من هذه المناسبة حدثا يتناقله

الرواة وتتحدث به الركبان ، ويفوق فى أبهته ونفقاته حادث زواج الأميرة قطر الندى بنت حاكم مصر خمارويه بن أحمد بن طولون ، بالخليفة العباسى فى بغداد . فقد دامت أفراح الأنجال أربعين ليلة كاملة ، بمعدل عشرة أيام لكل فرح . وطوال هذه الأيام تحولت القاهرة إلى مهرجان كبير تسطع فيه الأنوار ، حتى اختلط الليل بالنهار ولم يعد الناس يفرقون بين الصباح والمساء . . ! وتحولت القصور الخديوية فى القبة وعابدين وقصر النيل والجزيرة وغيرها إلى مراقص صاخبة وحانات عامرة ، تقدم أطايب الطعام والشراب لعشرات الألوف من المدعوين ، الذين جاءوا يغترفون من نهر الملذات الذى أقامه إسماعيل . . !

ولقد أفاض مؤرخو عصر إسماعيل فى وصف البذخ والفخفخة والإسراف الذى حدث فى أفراح الأنجال . ويكفى أن تقرأ وصف زفة « شوار » الأميرة أمينة منذ خروجها من القصر العالى إلى قصر القبة حيث كان يقيم العريس « التعيس » محمد توفيق . . فقد سارت زفة الشوار عبر شوارع القاهرة تخفرها الفرسان بزى عربى بديع ، وآلاى مشاة بأسره بملابس بيضاء ناصعة كالثلج ، تتقدمه جوقة موسيقية من أمهر العازفين . وكانت الهدايا موضوعة فى أسبتة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس . يغطيها شاش فاخر يمسك بأطرافه أربعة عساكر فى كل عربة . ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية والسيوف مشهرة فى أيديهم . وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنية . وقلائد ماس ساطعة من النوع المعروف باسم « البرلنتى » ، ومناطق من الذهب الخالص . وأقمشة مطرزة باللؤلؤ عديم المثل . وزمرد فى حجم البيض . وملابس بيضاء مطرز عليها رقم الأميرة باللآلئ والحجارة الكريمة . وآنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكميات عظيمة . وكان بين الهدايا المقدمة من « إسماعيل » لأكبر أبنائه ، سرير من الفضة الصب الخالصة ، شبيه بالذى أهداه إلى الإمبراطورة أوجينى أثناء إقامتها بمصر . محلى بماء الذهب الإبريز . وعواميده الفخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز . . ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم وفاطمة هانم ، والهدايا المهداة إليهن ، عن شوار أمينة هانم . . » إلخ .

ولم يكن أحد من أهالى القاهرة الذين شاهدوا أفراح الأنجال يعرف من أين أتى

حاكمهم الهمام بهذه الأموال الطائلة ! ولم يكن أحد منهم يجرؤ على طرح هذا السؤال . . فقد كان إسماعيل حاكما شرقيا لا يُسأل عما يفعل . . ولكن لم تمض بضعة أعوام حتى كان إسماعيل يقف ذليلا خائرًا أمام أصحاب الديون الأجانب الذين وقفوا ببابه . وأخذوا بخناقه . يطالبونه بأموالهم مضافا إليها فوائد تبلغ أضعاف ما أخذ . وكانت نهاية إسماعيل المفجعة . . وهى نهاية كل مسرف متلاف .

فرعون الصغير

كان للخديو إسماعيل أخ من الرضاعة ، اسمه إسماعيل صديق ، لعب فى ـ
الخديو وفى حياة مصر كلها دورًا خطيرًا ، أثناء الأزمة المالية الطاحنة ، التى أخذ
بخناق البلاد . وانتهت بضياع استقلال مصر . وضياع مستقبل الأخوين ؛ فالا
فقد عرشه . والثانى فقد حياته فى مأساة مرعبة بعد أن تربع على خزائن الأرض ع
ستين . أصبح خلالها الرجل الأول فى الدولة ـ بعد الخديو ، والمتصرف الأوحد
شئونها المالية والإدارية . حتى خلعوا عليه لقب « الخديو الصغير » أو الصد
الأعظم المصرى . .

لم يكن إسماعيل صدّيق ـ كما يتبادر إلى الذهن ـ من أبناء الطبقة الراقية التى ك
الوزراء والحكام وقادة الجيش يُختارون منها ، وتضم بقايا المماليك من ترك وشرك
وكرد وأرناءود ، فضلاً عن شراذم الألبان الذين استقدمهم محمد على . وجعل ه
هؤلاء وأولئك أركان حكمه ، وأنعم عليهم بالأراضى التى صادرها من أصحا
المصريين . وإنما كان إسماعيل صديق من أبناء الفلاحين الذين فقدوا أرضهم
وأصبحوا أجراء يعملون بالسخرة فى الزراعة ، وحفر الترع وشق المصارف ، فهو ـ كـ
وصفه مؤرخ معاصر ـ ابن فلاح صعلوك الأصل طالما مُدّ أجداده ، بل أبوه ذا
تحت الكرباج ، وازرقت أرجلهم حتى دفقت دما من تعاقب السياط عليها .

* * *

والروايات التاريخية ، لا تقدم لنا تفسيرا معقولاً للظروف التى مكنت لهذا الفلا
المصرى المعدم ، من اختراق حاجز الفقر والصعود إلى عالم الجاه والسلطان ، فى وقت
لم يكن يسمح فيه للمصريين بالخروج على النطاق المرسوم لهم . كل ما يذكر

المؤرخون أن الوالدة باشا ـ خوشيار هانم زوجة الوالى إبراهيم باشا ـ شعرت بجفاف ألبانها بعد ولادة طفلها إسماعيل . فساقت إليها الأقدار فلاحة مصرية ، لتتولى إرضاع الوليد مع ابنها الذى أطلقت عليه اسم الأمير تبركا وتقربا . فنشأ الصبى فى دهاليز القصور الخديوية . يتقلب فى أعطاف النعيم . وينهل من ينابيع العز . وكان من الطبيعى ، أن تنشأ بين الطفلين عاطفة مشتركة امتدت عبر السنين . فما إن تولى إسماعيل عرش الديار المصرية ، حتى أطلق يد أخيه يتصرف فى أمورها ، على هواه ومن حق القارئ العزيز أن يتوقع من هذا الفلاح أن يكون رفيقا بأهله وعشيرته رحيما بالطبقة التى ينتمى إليها آباؤه وأجداده . وفيًا للبلد الذى خرج من طينته ولكن العكس هو الذى حدث . فإذا بنا أمام فرعون صغير يبطش بالفلاحين ويتفنن فى تعذيبهم ، ويرغمهم على هجرة الأرض التى يزرعونها ، لتنتقل ملكيتها إلى أخيه الخديو حينا . . وإلى ملكيته الخاصة حينا آخر . . وكان الرجل يتمتع بقدر هائل من الدهاء ، حتى وصفه بعضهم بأنه لم يكن له مثيل بين رجال الذكاء والتفنن فى مصر . . ولكنه ـ للأسف ـ لم يستخدم قدراته ، للتخفيف من ويلات الشقاء التى كان يعانيها أبناء وطنه . . وإنما تحول إلى سوط عذاب ، حتى استطاع فى خلال السنوات العشر التى تولى فيها وزارة المالية ، أن ينافس أمراء البيت المالك فى ثرائهم وبذخهم وترفهم وسفههم . . وعندما أوشكت شمس حياته على الغروب ، كانت ممتلكاته قد بلغت ثلاثين ألف فدان من أجود الأراضى العشورية . . وثلاثة قصور فخمة تحيط بها الحدائق الغناء فى ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليا) ، عدا قصر بديع على ترعة المحمودية بالإسكندرية . تحتوى على أفخر الرياش والتحف . أما مجوهراته فقدرت بحوالى ٣٠٠ ألف جنيه إنجليزى بأسعار ذلك الزمن . وكان يمتلك حوالى ٣٠٠ جارية من مختلف الأصناف والأجناس . . ولكن فى لحظة من لحظات الغضب الملكى . . ضاع كل شىء . .

شيخ المنسـر

لم يكن اختيار الخديو إسماعيل ، لأخيه إسماعيل صديق باشا ، لمنصب وزير المالية مجرد إرضاء لعاطفة الأخوة التى جمعت بينهما فى مرحلة الرضاع . وإنما كان الاختيار محسوبا بميزان المنفعة بين رجلين معدومى الضمير . كان إسماعيل الخديو فى حاجة إلى رجل متفنن فى السطو على الأموال وابتزازها بشتى الحيل . ولا تثريب عليه أن يقتطع لنفسه نصيب الثعلب ، ما دام أن نصيب الأسد مصون ومحفوظ . . وكان إسماعيل صديق ، هو ذلك الرجل الذى يتمتع بمواهب جهنمية فى تدبير المال اللازم ، بأخس الوسائل لإرواء عطش الخديو ، حتى يواصل سياسته البلهاء فى البذخ والسفه والظهور أمام الأجانب بمظهر الفخفخة والعظمة . . ولو كانت خزانة البلاد أطهر من قلب المؤمن . . !

فى ذلك الوقت كانت البنوك الأوربية قد أمسكت يدها عن إمداد الخديو بالقروض ، بعد أن لاحت عليه تباشير الإفلاس . فلم يعد أمامه إلا أن يستدير إلى الداخل . . ليفتك بالمصريين ويسطو على ما فى أيديهم من مدخرات قليلة جمعوها من شقاء العمر . . ولكن هذه العملية كانت فى حاجة إلى جيش كبير من زبانية السلطة ورجال الإدارة ، ليتعقبوا الفلاحين فى عقر دارهم ، ويستخرجوا ما لديهم من أموال عن طريق القمع والإرهاب . وكان إسمـاعيل صديق يملك هذا الجيش بحكم منصبه القديم كمفتش عام على عموم القطر . . من واجبه تعيين المحافظين والمديرين والمأمير وأتباعهم من العمد والمشايخ . . فلما أصبح وزيرًا للمالية وقعت الطامة الكبرى ، إذ جمع فى يده كل الخيوط التى تمكنه من تنفيذ سياسته الجهنمية . وبدا (المفتش) ، ومن ورائه جهازه الإدارى ، مثل (شيخ منسر) ، يحط على قرى مصر فيسلبها المال والزاد . . ولا يتركها إلا قاعا صفصفا تضج بالأنين . .

وفى سبيل ابتزاز أموال الفلاحين ، تفتق ذهن المفتش عن أساليب لا تقل انحطاطا عن أساليب الحواة ولاعبى الورقات الثلاث . . من ذلك ، أنه كان يبيع المحاصيل الزراعية للمرابين الأجانب وهى لا تزال شجيرات خضراء فى الحقول ويتعهد بتسليمها لهم بعد جنى المحصول . فإذا حل الموعد قامت الحكومة ببيع المحصول لتجار آخرين وقبضت الثمن . . فإذا احتج الأجانب إلى قناصلهم ، تولى (المفتش) تعويضهم بأن يشترى منهم المحصول الذى باعه لهم (على الورق) بسعر أعلى من السعر الأول ، مضافا إليه فائدة ٢٠٪ . . ! كل ذلك من أجل إرضاء نزعة الخديو المدمرة وحاجته المستمرة إلى المال . . فلما ضاقت السبل أمام الخديو للحصول على مصدر جديد للمال ، ابتكر له المفتش وسيلة غريبة ، تتلخص فى إجبار الفلاحين على دفع ضريبة الأطيان لمدة ست سنوات مقدما ، مقابل الإعفاء من نصف الضريبة إلى الأبد . . وهو ما يعرف بقانون (المقابلة) . وكان الفلاحون يعرفون أن عهود الحكومة حبر على ورق ، وأنها مجرد حيلة لإرغامهم على تقديم الأموال إلى الخديو الجشع . . ومن يمتنع يتكفل الزبانية بتأديبه ، حتى يتعلم أن العين لا تعلو على الحاجب . . وأن الماء لا يجرى فى العالى . . وأن مشيئة الملوك لا ترد . .

* * *

والجرائم التى ارتكبها (المفتش) أكثر من أن تحصى . ولكن أعظمها من وجهة نظر الوطنيين المصريين ، هى إيعازه إلى أخيه الخديو ببيع نصيب مصر فى أسهم شركة قناة السويس . . وكان هذا النصيب يقارب النصف . . مقابل مبلغ يقل عن أربعة ملايين جنيه . . وهو الذى فاوض القنصل البريطانى فى الصفقة . . وهو الذى وضع خاتمه على الأسهم قبل أن يتسلمها القنصل ، ويودعها قاع سفينة كانت فى طريقها إلى إنجلترا . وكانت تلك بداية الطريق المشئوم الذى انتهى بضياع استقلال مصر المالى ، وخضوعها للإشراف المباشر من جانب الحكومة البريطانية . . وكانت صفقة الأسهم آخر سهم فى جعبة الوزير المحتال ، ولكنها كانت آخر مسمار فى نعشه . فما إن وصل الخبراء الإنجليز إلى القاهرة لإصلاح مالية مصر ، حتى كان أول مطالبهم إقصاء المفتش عن منصبه الخطير ، وتحير الخديو إسماعيل ، ووجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مر . . ولكن كان عليه أن يضحى بأخيه كى ينجو بنفسه .

سقوط فرعون

كانت مصر بكل طبقاتها ـ فقراء وأثرياء وأمراء ـ تغلى بالنقمة على إسماعيل صديق باشا (المفتش) ، ويتحينون الفرصة للفتك بهذا الجبار الذى يتحكم فى مصائر البلاد والعباد . ويختلس من الأموال ما ينوء بالعصبة أولى القوة .

كان مثل هامان فى طغيانه وسطوته واستهتاره . . وكان أشبه بقارون فى جشعه وطمعه وزهوه . . وكما سقط هامان وقارون وفرعون . . كان لابد أن يسقط المفتش ويلقى نفس المصير الذى لاقاه الطغاه والجبابرة . . فلا نفعتهم أموالهم . . ولا هم أفادتهم عزتهم . . وإنما مضوا غير مأسوف عليهم . . لم يخلفوا وراءهم إلا أسوأ الذكريات .

ومع أن النصيب الأكبر من أذى المفتش وقع على عاتق الفلاحين المصريين : إلا أنهم بحكم ضعفهم التاريخى كانوا أقل قدرة على زحزحة الرجل عن موقعه العتيد . وتكفلت جبهة الأمراء العلويين بالقيام بهذه المهمة العويصة ، لأسباب لا تمت بصلة إلى المظالم التى عاناها المصريون . . وإنما لاستئثاره دونهم بالأسلاب والمغانم . . وجرأته على منافسته لهم ـ وهو الفلاح الجلف ـ فى حياة البذخ والنعيم . . وتفوقه عليهم فى بناء القصور واقتناء الجوارى والمحظيات . . وكان أكثر الأمراء حقدا عليه أبناء الخديو الثلاثة : توفيق وحسين وحسن . . الذين ساءهم قرب الرجل من أبيهم وحظوته عنده . . ودلاله عليه . . غافلين عن رسالته العظمى فى النصب والاحتيال والسطو والابتزاز لتوفير المال لأبيهم . . كانوا ينظرون إلى قضية المفتش من زاوية ضيقة جدا . هدفها إقصاء الغرباء عن ولى النعم . . أما الخديو فكان يهمل هذه الدسائس الصغيرة ولا يقيم لها اعتبارًا .

أما الخطر الأكبر على مصير المفتش ، فقد جاءه من جانب الإنجليز الذين بات من حقهم الهيمنة على مالية مصر ، بمقتضى مرسوم أصدره الخديو إسماعيل لحماية مصالح الدائنين الأجانب ، وأعلنت الرقابة الثنائية من إنجلترا وفرنسا . . فتولى الرقيب الإنجليزى الإشراف على إيرادات الدولة . . وتولى الرقيب الفرنسى الإشراف على مصروفاتها . . وكان الرقيب الإنجليزى « جوشن » يضمر عداء شخصيا للمفتش لأسباب قديمة . . فما إن بدأ يقلب فى الدفاتر ، حتى اكتشف أنه ليست هناك ميزانية حقيقية !! وإنما المسألة لا تعدو أن تكون « ضيعة » خاصة يتحكم فيها الخديو وأخوه . . وأن الأخوين « إسماعيل » ليسا أكثر من لصين يقتسمان الأسلاب . . ولذلك رأى أن يبدأ بإزاحة أصغر اللصين . . ولم يكن من اليسير على الخديو أن يستجيب لهذا المطلب . . لأنه يعرف جيدا أنه شريك أصيل فى كل ما ارتكبه المفتش من جرائم وكوارث . . وإذا كان الإنجليز يتغدون بالمفتش عند الظهر فسوف يتعشون بالخديو فى المساء . . فامتنع عن طرده ، عندئذ هدد الإنجليز بتقديم المفتش إلى المحاكمة بتهمة اختلاس ٤٠ مليون جنيه وجدوها فى الدفاتر . . وهنا فقط اقتنع بجدوى اختفاء المفتش ، من الحياة كلها ، وليس من الوزارة فحسب . . كان يعلم أن أخاه لن يتورع عن كشف كل الأوراق ، وفضح المستور . . وإظهار حقيقة الخديو الذى تسبب فى تخريب بلده ووضعه فى هاوية الإفلاس .

ونسى الخديو كل ما فعله أخوه من أجله . . ولم يفكر إلا فى النجاة بنفسه . ولمعت فى ذهنه على الفور فكرة التخلص من الرجل الذى أفنى حياته فى جمع المال الحرام ، وبنى مجده على أشلاء البؤساء والمعذبين ، ولم يغادر الحياة إلا وقد هوى مجده . . كأنه قبض الريح .

ذو الأصابع الفولاذية

كان الخديو إسماعيل قد اتخذ قراره النهائي بالتخلص من أخيه في الرضاع إسماعيل صديق باشا (المفتش) ، قبل أن يفلت لسانه ويفضح المخازى التى ارتكبها الاثنان ، وتسبب فى خراب خزانة مصر . . وتم ترتيب وسيلة الإعدام على النحو الذى كان متبعا فى ذلك العصر . . ففى صباح اليوم الموعود ، استدعى الخديو أخاه المفتش إلى قصر عابدين ، ليصحبه فى نزهة خلوية على ضفاف النيل . . وركب الاثنان العربة الخديوية المكشوفة على مرأى من الجميع ، وهما يتضاحكان . . وقد اعتبر المفتش هذا الرضاء السامى أكبر دليل على كذب الشائعات التى ترددت عن قرب نهايته وعبرت المركبة كوبرى قصر النيل فى اتجاه قصر الجزيرة (فندق ماريوت حاليا) . فلما توقفت أمام بوابة القصر ، تقدم الحرس فألقوا القبض على المفتش ، وساقوه إلى الداخل وهو يصيح مستغيثا بأخيه الذى عاد وحده إلى قصر عابدين .

واستدعى الخديو المجلس المخصوص (أشبه بمجلس الوزراء) ، واستصدر منه قرارا بإبعاد المفتش إلى دنقله بالسودان .

وحمل مصطفى باشا فهمى محافظ القاهرة (والد السيدة صفية زغلول) ، القرار ومضى إلى قصر الجزيرة ، لإبلاغه إلى المفتش وإقناعه بالتزام الهدوء والصمت . . ولكن المفتش الذى تربى فى أحضان الدسائس والمؤامرات كان يعلم جيدا أن قرار إعدامه على وشك التنفيذ . . وعبثا حاول إقناع المحافظ بخطر التخلص منه باعتباره حاملا لرتبة « المشير » العثمانية ، التى تحول دون محاكمة حاملها إلا فى الآستانة . . ولكن متى كان الباب العالى يأبه لمثل هذه المؤامرات التى تجرى كل يوم فى القصور

الملكية ؟! وبعد قليل صعد المفتش بصحبة المحافظ إلى سفينة نيلية كانت فى انتظارهما ، وألقى الحرس بالمفتش فى إحدى غرف السفينة التى أقلعت باتجاه الجنوب . . بينما بقى المحافظ على ظهر السفينة فى انتظار تنفيذ عملية الإعدام بواسطة إسحق بك . . وكان رجلا تركيا متخصصا فى الإجهاز على ضحاياه بطريقة فظيعة . . فقد كان يملك قبضتين فولاذيتين ، فيهجم باليسرى على فم الضحية ليكتم أنفاسه بينما يقبض باليمنى على الخصيتين فيعتصرهما اعتصارًا حتى يلفظ أنفاسه .

* * *

وما إن عبرت السفينة مقياس الروضة ، حتى تقدم إسحق بك لتنفيذ مهمته . . فدخل على المفتش ، وهو قابع فى ركن الغرفة كالفأر المذعور . . فقام بمهمته خير قيام . . ولم يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق ، ظن بعدها إسحق بك أن المفتش قد أسلم الروح . فمد يده لانتزاع الخاتم الذهبى الذى يضعه المفتش فى سلسلة ذهبية تحيط بعنقه .

ولم يعلم أن فى جسد الرجل بقية من حياة ، انتهزها للانتقام من قاتله . . ففتح فمه كسمك القرش ، وقضم أصبع إبهام إسحق بك حتى قطعه تماما . . وكانت تلك آخر انتفاضة فى جسد المفتش . . سكن بعدها إلى الأبد . . وعندها تقدم بعض الحرس ووضعوا جثته فى جوال غليظ ومعه أحجار ثقيلة ، ثم ألقوا به فى النيل حتى استقر فى القاع . . عندئذ توقفت السفينة أمام ساحل المعادى ونزل المحافظ مصطفى باشا فهمى ، حيث كانت فى انتظاره عربة خديوية حملته إلى قصر عابدين ليحمل إلى مولاه خبر نهاية المفتش . . بينما واصلت السفينة طريقها إلى السودان . . وهى ترسل إلى القاهرة كل حين برقيات مكذوبة تنشرها الصحف عن حالة المفتش الذى لا يكف عن البكاء وطلب الصفح . . وشرب الخمر .

وبعد أسبوع من وصولها إلى دنقلة ، تطوع طبيب إنجليزى أفاق بكتابة تقرير يزعم فيه أن المفتش قد مات متأثرا من انفجار الزائدة الدودية . . وأنه سمح بدفنه بعد أن وقع الكشف الطبى عليه . . ولم تخجل الصحف من نشر هذا الخبر المكذوب . . وكان الناس يقرءون الصحف ويبتسمون . . وكان الناس فى ذلك العهد نادرًا ما يبتسمون .

نوبار باشا

ربما لا يعلم كثيرون من المصريين أن أول رئيس للوزراء فى تاريخ مصر المعاصر كان رجلا أرمنيا مسيحيا هو نوبار باشا ، الذى لا يزال اسمه قائما على أحد الشوارع الرئيسية بوسط القاهرة ، وعلى إحدى الترع الكبيرة بمحافظة البحيرة . . وكان نوبار أحد ثلاثة « رجال دولة » برزوا فى عصر الخديو إسماعيل . وكان لهم دور مؤثر فى مجرى الأحداث طوال النصف الثانى من القرن الماضى . . والآخران هما : شريف باشا « أبو الدستور » ، ورياض باشا « نصير الاستبداد » . . وسوف أتحدث عن الثلاثة بدءا بنوبار لأنه كان أسبقهم ظهورًا على مسرح السياسة والحكم . . وأكثرهم إثارة للدهشة والتساؤل : إذ كيف تسنى لمثله أن يكون أول رئيس للوزراء ، رغم الفروق الدينية والجنسية ؟! وفى وقت كان الاعتبار الدينى يوضع فى المقام الأول . . ولكن الدهشة تزول ، إذا عرفنا أنه من مواليد « أزمير » بتركيا . . أى أنه كان عثمانى الجنسية ، الأمر الذى فتح أمامه الباب للدخول فى نسيج الحياة المصرية ، والصعود إلى القمة من خلال نظام لا يعترف للعناصر الوطنية المصرية بحق المشاركة فى شئون الحكم أو تولى المناصب القيادية فى الدولة .

* * *

كان محمد على ـ برغم الخدمات الجليلة التى أداها لمصر ـ تركى النزعة . . وينطوى على ازدراء لكل ما يمت إلى المصرية الصميمة بصلة . . وورث عن قومه كره اللغة العربية ـ لغة الفلاحين ـ فحكم مصر ـ ولم يكلف خاطره تعلم العربية أو جعلها لغة الدواوين أو تعليمها أحدا من أبنائه . . وعاش ومات وهو يتكلم بالتركية . وحاكم هذا وصفه ، كان من الطبيعى أن يغض النظر عن العناصر

المصرية ، ويحتضن العناصر التركية حتى لو كانت غير تركية أصلا . . ويكفى أن تتكلم التركية وتنتمى ، ولو شكلا ، إلى الدولة العلية . . وكان (بوغوص بك) أحد هذه العناصر التى استفادت من التقاليد التى وضعها محمد على ، لشغل مناصب الدولة المصرية . . فهو من الأرمن الذين يكرهون العثمانيين كراهة التحريم . . ولكن إتقانه للغة التركية فتح أمامه السبيل للترقى فى مناصب الدولة ، حتى أصبح الوزير المقرب من ولى النعم . .

وكان نوبار ـ ابن أخت بوغوص بك ـ قد تخطى مرحلة الصبا فى أزمير ، وذهب إلى فرنسا ليستكمل تعليمه . . واعتزم الانخراط فى الجيش الفرنسى . . ولكن خاله نصحه بالمجىء إلى مصر ليجرب حظه فيها ، بشرط أن يتعلم التركية . . فاستجاب لنصيحة خاله ، ثم جاء إلى مصر ، فألحقه بقلم الترجمة . . وما هى إلا عشية وضحاها حتى كان ضمن حاشية محمد على الذى عينه سكرتيرا خاصا لابنه إبراهيم فلازمه فى كل جولاته . . واكتسب ثقته وثقة بقية الحكام من أسرة محمد على . . الذين عمل فى خدمتهم ، إلى أن مات عام ١٨٩٩ فى عهد عباس حلمى الثانى .

* * *

والمؤرخون الذين تحدثوا عن نوبار ، يقولون إنه كان يتمتع بصفات مميزة . . أهمها الجدية والجلد والكبرياء والأنفة والعزوف عن اللهو والمجون . . والامتناع عن نفاق الحكام وإرضاء نزعاتهم بالغش والخداع . .

هذه صفات ، يصعب على صاحبها أن يحافظ على موقعه فى ظل حكام شرقيين يتصفون بالمزاجية والتقلب والبطش بأقرب معاونيهم . . فكيف استطاع نوبار أن يحافظ على وجوده فى موقع الصدارة دون أن يفقد رأسه ؟!

البعض يفسر ذلك بأن نوبار كان يعرف اتجاهات الريح . . فلما أدرك أن شمس إسماعيل توشك على الغروب . . وأن خيوط الحكم سوف تنتقل حتما إلى أيدى الإنجليز . . تخلى عن سيده ولجأ إلى لندن يحرض الحكومة البريطانية على تأديب إسماعيل ، وتقييد سلطاته المطلقة عن طريق وزارة مسئولة متحررة من سيطرة الخديو وكانت وجهة نظر نوبار أنه لا أمل فى إصلاح الخراب الذى تسبب فيه إسماعيل إلا

بالحجر عليه وتقييد حكمه المطلق . . وتلاقت أفكار نوبار مع رغبات إنجلترا التى كانت تعمل على توطيد وجودها فى مصر عن طريق المشاركة فى الحكم وبسط نفوذها على الشئون المالية .

* * *

ولم يكن نوبار يمانع فى مشاركة الإنجليز فى الوزارة المصرية المقترحة . . بل كان يؤيدها ويبرر ذلك بأن المشاركة هى السبيل الوحيد لضمان استقلال مصر . . ومن الطبيعى أن يستفز هذا التبرير المشاعر الوطنية . ولكن نوبار كان يعيش العصر الذى لا يعترف بحق المصريين ، ويرى أنهم غير أكفاء فى تحمل المسئولية أو - على أبسط الفروض - غير قادرين على مواجهة الحكم المطلق الذى يمثله إسماعيل . . فكان عليه أن يؤدب إسماعيل بالعصا الإنجليزية . . وخضع الخديو لأوامر الإنجليز وأصدر أول « دكريتو » بتشكيل الوزارة المصرية ، برئاسة نوبار باشا ، وتضم خمسة وزراء . . منهم وزير إنجليزى للمالية ، ويراقب الإيرادات ووزير فرنسى للأشغال ويراقب المصروفات . . وبعد عشرة شهور فقط كان الخديو يغادر مصر طريدًا منفيا . . وبقى نوبار ليواصل المشوار الذى اختطه لنفسه ، منذ كان صبيا يلعب فى حوارى أزمير .

نيسلى .. وتوابعهـا

لا يكتمل الحديث عن نوبار باشا دون الحديث عن الأرمن . . وخاصة الجالية الأرمنية التى استوطنت مصر . . وأصبح لها وجود بارز فى بعض نواحى الحياة المصرية الحديثة . .

والأرمن شعب عريق . . كان لهم فى التاريخ القديم دولة كبرى تسمى مملكة أسيا الصغرى . تنسب الأساطير تأسيسها إلى (حايك) من سلالة نوح . . ولكن دولة الأرمن لم تستمر طويلا ، بسبب الحروب والهجمات التى طوقتها من كل جانب . . وإذا كانت بعض الدول قد تفسخت وذهبت ضحية موقعها . . ووقوعها فى بؤرة الصراع بين القوى العظمى ـ فإن دولة الأرمن كانت من هذه الدول التى أدركتها لعنة الموقع . فتناوبت عليها جيوش الآشوريين والميديين والفرس واليونان والرومان . . وجعلوا منها ساحة للصدام . . حتى إذا بلغ الأتراك العثمانيون أوج قوتهم ، أجهزوا عليها وضموها إلى إمبراطوريتهم . . وبعد الثورة البلشفية ، وضع الروس أيديهم على ما تبقى من بلاد الأرمن ، وجعلوا منها إحدى الجمهوريات السوفيتية التى لا تزال تحمل اسم « أرمينيا » .

وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الكوارث إلى هجرة الأرمن من ديارهم ليبدءوا عصر الشتات والانتشار فى العالم . . ولكنهم ظلوا دائما محافظين على قوميتهم ولغتهم ودياناتهم ومذهبهم . . يحملون معهم أينما ذهبوا ذكريات العز القديم . والتطلع إلى اليوم الذى يستعيدون فيه مجدهم الغابر . . فهم يعيشون فى المجتمعات الجديدة حياة (الغربة) بكل ما تعنيه من لوعة القلق والخوف من المجهول . . يختلطون ولكن لا يمتزجون . . ويعملون بجد ونشاط دون الدخول فى نسيج الحياة الجديدة أو التورط فى تعقيداتها الاجتماعية والسياسية .

وكانت مصر إحدى الدول التى اجتذبت الأرمن ، منذ أواخر القرن الماضى . . ولكن أفواجهم زادت بعد المذبحة الرهيبة التى شنها الأتراك ضدهم عام ١٩١٥ وراح ضحيتها مليون ونصف المليون أرمنى (وهذا يفسر لك سر العمليات الانتقامية التى تقوم بها منظمات أرمنية ضد السفارات التركية) . . وشق الأرمن طريقهم فى المجتمع المصرى فى وقت ارتفع فيه شعار « مصر للمصريين » بعد ثورة ١٩١٩ . . ولذلك حرص الأرمن على عدم مزاحمة المصريين فى الوظائف الحكومية ، أو تملك الأرض الزراعية . . واتجهوا إلى الأعمال الحرة التى تعتمد على القدرات الخاصة والمواهب المتميزة ، كالموسيقى والرسم والتصوير ، فاتقنوا صناعة الآلات الموسيقية وتكوين فرق الجاز وكتابة النوت . . وكلنا يذكر « أندريه رايدر » الذى تخصص فى توزيع الموسيقى لكبار الملحنين كعبد الوهاب . . وفى مجال الرسم كان لهم باع طويل فى تطوير فن الكاريكاتير . . ومن يطالع صحف الثلاثينات ، سيجد رواد هذا الفن من الأرمن ، وأبرزهم « صاروخان » الذى يحمل اسم مدينة أرمنية شهيرة .

وعلى أكتاف الأرمن ، نهضت بعض الصناعات المحلية . . ليس أهمها البسطرمة والسجق كما يحلو للبعض أن يتندر . . ولا ننسى صناعة الزيوت والسجائر والدخان التى أنشأها ماتوسيان وكوتاريللى وكاسيمس . . وفى وقت ما كان أشهر الترزية ومصممى الأزياء ومصففى الشعر من الأرمن . . وكذلك محلات بيع الأدوات الكهربائية مثل نرسيس تشاكجيان الذى يقع فى ميدان العتبة .

* * *

وتتركز الجالية الأرمنية فى حى الظاهر بالقاهرة ، ولهم نواديهم الرياضية النشطة ولهم كنيستهم الخاصة على المذهب الأرثوذكسى . ولهم مدارسهم التى تعنى بتعليم أبنائهم لغتهم . . وهى لغة عريقة من فصيلة اللغات الهندو أوربية . . ولا يتحدث بها غيرهم . . فهى عامل من عوامل الحفاظ على الشخصية القومية وحمايتها من الذوبان ، رغم توالى العصور وتنائى الديار .

ولكن هذا الاستقلال الباطنى ، لم يمنعهم من التغلغل فى المجتمع المصرى . . والتأثر بالروح المصرية والتعبير عنها بالرسم والموسيقى والأغنية والتمثيل . . خصوصا عند الأجيال الحديثة التى ولدت فى مصر وتشربت روحها واكتسبت عاداتها

وتقاليدها . . ولعل أوضح مثال لذلك مجموعة الفنانات : نيللى وتوابعها (أختها الكبرى فيروز وبنتى خالتيها لبلبة وميمى جمال) وكل منهن ، برعت فى التعبير عن الروح المصرية بدرجة يصعب معها اكتشاف الحاجز الرقيق بين القومية المستكنة فى الأعماق ، والروح المصرية المكتسبة . . وهذا الكلام ينطبق بالطبع على السلالات الأرمنية الجديدة التى امتصت الواقع المصرى وتطبعت به .

وإذا كان نوبار باشا ـ رأس الشجرة الأرمنية فى مصر ـ قد عاش طيلة حياته فى مصر غريبا عن روحها ، يجهل لغتها ويأنف من الاختلاط بأهلها ـ فإن الأجيال الأرمنية الجديدة ، اندمجت فى الحياة المصرية عن طريق الزواج والتعليم والمعايشة اليومية . . وباتت جزءا من المجتمع المصرى الذى توافدت عليه عناصر متنوعة من شتى الأجناس على مختلف العصور . . فلم يلفظها ما دامت قد امتزجت به . . وإنما يهضمها . . ثم يعيد تشكيلها على نسق فريد . . وذلك أحد أسرار الروح المصرية الأصيلة .

ميرابو .. مصر

اشتهر « ميرابو » فى تاريخ الثورة الفرنسية بصيحته الجريئة التى ألقى بها فى وجه جنود الملك حين اقتحموا مجلس طبقات الأمة لطرد النواب دون أن يناقشوا القضايا المصيرية التى كانت بين أيديهم . عندئذ صاح ميرابو : إننا هنا بإرادة الشعب . . ولن نخرج إلا على أسنة الرماح . . !! وأصبحت هذه العبارة من مفجرات الثورة . . فبعدها تعاقبت الأحداث الدرامية التى شهدتها فرنسا خلال ثورتها الكبرى .

* * *

وبعد ٩٠ عاما من هذه الواقعة ، كان فى القاهرة نائب شجاع قال نفس العبارة فى موقف مشابه تماما . . كانت البداية التى توالت بعدها فصول الثورة العرابية . أما النائب ـ واسمه عبد السلام المويلحى ـ فقد كان يمثل طليعة المعارضة الوطنية التى برزت فى مجلس شورى النواب ، الذى أنشأه الخديو إسماعيل عام ١٨٦٦ ضمن خطته الرامية إلى إشراك المصريين فى المسئولية ، وكانت الحكومة المصرية برئاسة نوبار باشا ، وتضم وزيرين أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى . تعد العدة لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية . وعلمت العناصر الوطنية فى مجلس النواب بما تدبره الحكومة فى الخفاء ، فأعدوا مشروعا مضادًا ، يلتزم بمقتضاه المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومى ، بشرط تنظيم الشئون المالية . وإصلاح مفاسد الإدارة بعيدًا عن تدخل الوزيرين الأجنبيين . . وشعرت الحكومة بما تعده المعارضة الوطنية ، فبيتت النية على إجهاض المشروع . واستصدرت مرسوما خديويا بفض المجلس قبل موعده .

وفى صباح الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ توجه رياض باشا ، وهو منتفخ الصدر

إلى قاعة مجلس النواب بالقلعة . . وما كاد يفرغ من تلاوة قرار فض الدورة ، حتى انبرى له النائب الجرىء عبد السلام المويلحى قائلاً : كيف ينفض المجلس ، وهو لم ينظر بعد فى القانون الخاص بالشئون المالية . . ؟ ! إن الأهالى قد أنابوا عن أنفسهم نوابا للمحاماة عن حقوقهم . . فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه . . ومن المستحيل أن ينفض المجلس . . وبهت رياض باشا لهذه اللهجة التى لم يتعود سماعها من مصرى ينتمى أبوه إلى طائفة التجار . . فقال متسائلا : ماذا تقول حضرتكم .؟ مستحيل فض المجلس . . ؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديوينا المعظم . . هل حضرتكم فاهم قيمة مسئولية ما تقوله ؟

واتجه رياض باشا إلى بقية الأعضاء لتخويفهم ، حتى لا ينضموا إلى هذا النائب الجرىء ، وقال : ما أظن حضرات إخوانك يوافقون على ما تقول . .

* * *

وكانت المفاجأة الثانية ، عندما اندفع الأعضاء الوطنيون لشد أزر زميلهم وأعلنوا تضامنهم معه فى كل ما يقول . . وهم رياض باشا بالقيام إيذانا بإنهاء الجلسة . . وعندئذ صاح عبد السلام المويلحى قائلا : إننا هنا سلطة الأمة . . ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب . . !!

عندئذ وجم رياض باشا ، لدى سماعه هذه العبارة التاريخية التى أعادت إلى ذهنه أحداث الثورة الفرنسية ، فعاد إلى مقعده صائحا : يعنى حضرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم . . ؟ يعنى حضراتكم الآن بعمائمكم وجببكم مثل نواب أوربا وأمريكا . . ؟

ورد النواب الإهانة بعشرة أمثالها . . وصاح أحمد العويسى : ياباشا أنت الآن تشتم نواب أمتك التى تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية ، وقال عبد الشهيد بطرس : إن كلامك هذا وقاحة . . والمجلس لا يقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردها عليه . وقال أحمد الصوفانى : أوافق العضو على رد الإهانة للناظر حتى يعلم أن فى البلاد أمة حية ولها نواب يدافعون عن كرامتها . . وهنا قال عبد

السلام المويلحى : أسمعت ياباشا . . ؟! أرأيت عاقبة تسرعك فى الكلام ؟ اعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب . . بل مسألة نواب لهم عقول تفهم جيدًا رغبات الأمة التى أنابتهم عنها . . أليس من العيب ، وأنت وزير فى وزارة يزاملك فيها وزير إنجليزى وآخر فرنسوى . . وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة . . . ثم تجمع أمس ـ أمام الوزيرين الأجنبيين ـ أصحاب الجرائد وتقول لهم : إن الحكومة عزمت على فض مجلس شورى النواب غدا ، فالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة واحدة عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج . . تقول ذلك عن نواب بلادك . . مصر العزيزة . . ونحن جميعا درسنا فى الأزهر الشريف .

فقال الشيخ حسن عبد الرازق : إن ما قاله المويلحى يعبر عن أفكارنا جميعا . . فصاح النواب : موافقون . . موافقون . . فلم يملك رياض باشا إلا أن يغادر قاعة المجلس وهو يهذى : إذن أنا منسحب . . أنتم عصاة . . أنتم ثوار . فقال المويلحى موجها كلامه إلى كاتب الجلسة . لا تحذف حرفا واحدا مما قيل فى جلسة اليوم ، حتى إذا نقلته الجرائد غدا ، علمت الأمة جميعا من هم الهمج : النظار . . أم النواب . . !!

واستجاب النواب لطلب المويلحى باعتبار المجلس فى حالة انعقاد دائم . . وتناوب الأعضاء على المبيت فى القاعة . . حتى اهتزت أركان الحكومة فاستقالت . . ثم توالت الأحداث التى أفضت إلى الثورة . .

أبو الاستبداد

كان أول مطلب للعرابيين ـ يوم تظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ـ عزل رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا ، لما يمثله من نزعة استبدادية ، وميل للحكم المطلق ونفور من الدستور وكل ما يمت إلى الحياة النيابية والحقوق الشعبية بصلة . ويتفق المؤرخون على أن وجود رياض باشا على رأس الحكومة آنذاك ، كان من المسببات المباشرة للثورة العرابية . فمن يكون الرجل الذى كان سببا فى قيام ثورة ؟!

تختلف الأقوال حول نشأة رياض باشا . . فالكتاب الغربيون يزعمون أنه من أصل يهودى أناضولى ، ويستدلون على ذلك بملامحه ولهجته ومظهره . . فقد كان قصير القامة محنى الكتفين له صوت يشبه الصرير ، ولكن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ينقض هذه المزاعم . ويرجع بنسب رياض باشا ، إلى أسرة مصرية مسلمة هى عائلة الوزان . ويقول إن أباه كان ناظر (الضربخانة) دار سك النقود . وجده هو حسن الوزان ، كبير الحكومة المصرية الذى مات سنة ١٧٠٩ .

ولكن المؤرخين لم يختلفوا حول النزعة الاستبدادية التى كانت من المكونات الأساسية فى شخصية رياض ، الأمر الذى انعكس على مجرى الأحداث ، التى شهدتها مصر طوال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . . وهى الفترة التى تبلور فيها الصراع بين الحكم المطلق الذى يمثله الحكام . وتطلع الشعب إلى الحرية والمشاركة فى تقرير مصيره . وكان رياض باشا من طراز الباشاوات الأتراك القدامى الذين كانوا ينظرون إلى الشعب بعين الزراية ولا يعترفون له بحقوق على شئون الحكومة .

فاللورد ملنر يصف « رياض » بالغلظة والصرامة والعنف . . « لا يتأثر بأى مؤثر

عاطفى أو شعور إنسانى . . ليس لأنه معدوم الشفقة بعامة الناس . . ولكن لأن الشفقة لديه ، تشبه ما كان يشعر به منها خير أصحاب الإقطاعات فى العصور الوسطى نحو تابعيهم . . يتطرف فى الغلظة إلى حد السماجة . . ليس فقط فى معاملته لمرءوسيه ، بل فى معاملته لأقرانه فى الرتبة والمكانة . . يطالب الجميع باحترام شخصه احتراما ، لا يرى ذاته مستعدا لمقابلة الغير بمثله . ومع أنه كان إداريا حازما وناجحا ، إلا أنه كان ذا كفاءة غريبة فى إثارة عداء الناسْ له . . ما إن يتربع على كرسى الوزارة ، حتى يتحول إلى « قنفذ » كله شوك ينفر منه الخاصة والعامة » .

وهذه الأوصاف ، يؤكدها الرافعى بقوله إن من أبرز صفات رياض باشا التعاظم والكبرياء والزراية بالشعب . . يأنف من كل نصيحة ، لأنه لم يكن يرى نفسه فى حاجة إلى استشارة النصحاء . ويعزو الرافعى نزعة رياض الاستبدادية إلى ضآلة حظه من التعليم . . فهو لم يتلق تعليما عاليا ، ولم يقف على مآثر الثقافة الأوربية ، مثل شريف باشا ، بل كان نصيبه من العلم مجرد قشور اقتبسها بذكائه الفطرى ومرانه وقوة ذاكرته ، فظل محدود الفكر .

وهذا التفسير من جانب الرافعى ، ليس دقيقا فى تبرير الاستبداد . فالتعليم ليس فى كل الأحوال عاصما من الطغيان ، والثقافة ليست فى جميع الظروف صنوا للحرية والديمقراطية . . وقد رأينا فى تاريخنا القريب سياسيين بلغوا أعلى مراتب التعليم والثقافة ، ومع ذلك كانوا معاول هدم فى النظام الدستورى ، مثل إسماعيل صدقى وعلى ماهر ، ومحمد محمود . . وفى المقابل نجد رجالا حظهم من التعليم ضئيل كعبد الله النديم ـ وكان عشقهم للحرية وإيمانهم بحقوق الأمة فوق الشك والريبة .

وفى تصورى أن رياض باشا كان ابن عصره ونتاج البيئة التى نشأ فيها . . وهى بيئة كانت تسىء الظن بجموع المصريين ، وترى أن مصلحتهم فى بقائهم تحت وصاية الحكماء والعقلاء والعباقرة . . كان الرجل ينتمى إلى مدرسة الحكم المطلق التى تعطى كل السلطات لولى الأمر ، ليتصرف فى شئون الرعية وفق إرادته ، وتضع الشعب فى مرتبة التلاميذ المفروض عليهم السمع والطاعة للحاكم ، والخضوع لرئيس « النظار » ، وهى الصفة التى كانت تطلق على رئيس الوزراء وقتئذ .

وليس معنى ذلك ، أن شخصية رياض باشا ، كانت مجمع النقائص والرذائل

أو خلوا من الفضائل ، ، فمثل هذا الحكم يتنافى مع الطبيعة البشرية . . فضلا عن منافاته للواقع والتاريخ . . فقد كان الرجل إداريا حازما . محبا للعمل . يمتاز بالنزاهة والاستقامة والتعفف عن الرشوة . وهى صفات تستحق التقدير فى نظام جعل من الرشوة حقا مشروعا . . غير أن أهم مآثر الرجل ، أنه استطاع خلال وزارته التى سبقت الثورة أن ينجز أعمالا جليلة ، فقد ألغى السخرة ، وأبطل الضرب بالكرباج فى تحصيل الضرائب ، ووضع نظاما دقيقا لجمع الأموال الأميرية على أقساط محددة ، بعد أن كان الفلاحون يضطرون إلى بيع محاصيلهم بأبخس الأثمان لتسديد مستحقات الدولة ، وقرر توزيع مياه الرى توزيعا عادلا ، وألغى نحو ٣٠ ضريبة صغيرة كانت ترهق صغار الفلاحين ، وفى مقابلها قرر زيادة الضريبة على كبارهم ، لكى يتحقق بعض العدل بين الطبقات . . واستصدر قرارا بأيلولة قصور الخديو المخلوع (إسماعيل) وأفراد عائلته إلى ملكية الدولة .

ومع الاعتراف بأهمية أعمال رياض باشا ، فإن المصريين لم يستريحوا إليه واستثقلوا عهده ، لأنه كان يتعامل معهم من برجه العاجى ، فبدت أعماله وكأنها صدقة من محسن كبير . . وفشل الرجل فى التعامل مع الجماهير لأنه لم يكن يؤمن بشىء اسمه الجماهير !

الأرستقراطية الحديثة

إن ظاهرة المتمصرين ، الذين أحبوا مصر وخدموها بصدق وإخلاص تستحق التسجيل . . وهي تؤكد أن الولاء لمصر ليس مجرد كلمات جوفاء تتردد في الأغاني والخطب والمقالات . . ولكنه إحساس مستقر في الضمائر والقلوب ويتجسد في الأعمال والتصرفات . . إن الفترة التي نؤرخ لها شهدت صراعا حادا بين جموع المصريين المتطلعين إلى العدل والحرية ، وجحافل الأجانب الذين تكالبوا على مصر يمتصون دماءها ويسرقون أقواتها . . ومن خلال الصراع ، ظهرت نماذج رائعة لرجال أفذاذ ، ارتفعوا فوق العصبية ، وانتصروا لمبادئ الحق والعدل ، ووقفوا إلى جانب المثل الإنسانية العليا ، رغم حداثة عهدهم بالتراب المصري . . في هذا الصدد نذكر محمود سامي البارودي ، وأديب إسحق ، ويعقوب صنوع ، وقاسم أمين ، والزعيم محمد فريد ، والشاعر أحمد شوقي ، أولاد تيمور . . وكلهم أعطى مصر من الإخلاص بقدر ما أعطته من نعمة الوجود ، وعلى رأسهم جميعا يتربع شريف باشا .

إلا أن « الحب » وحده لا يكفي ، لتفسير ظاهرة الولاء الوطني عند هؤلاء المتمصرين الأوفياء . فالولاء الذي يفتقر إلى الوعي ، لا يثمر غير نعرات عاطفية جوفاء . . ولابد أن هناك دوافع أخرى أعمق ، جعلت هؤلاء ينشقون على الأرستقراطية التركية التي أفرزتهم ، وينحازون إلى المعسكر المصري ، ويشكلون مع الأرستقراطية المصرية الحديثة « حلفا » غايته هز النظام الحاكم ، ليتفهم مغزى الإرهاصات التي كانت تتفاعل في أحشاء المجتمع المصري ، ويبشر بولادة قوى سياسية مصرية جديدة .

لقد رأت هذه الأرستقراطية المستنيرة ، أن تغييرا جذريا قد حدث في البنية

الاجتماعية ، بسبب تطور نظام الملكية الزراعية . . وكان من نتيجته ظهور طبقة من كبار الملاك المصريين . . وكان من الطبيعى أن تبحث هذه الطبقة عن دور لها على المسرح السياسى ، على حساب الأرستقراطية التركية المتعجرفة التى يساندها الخديو إسماعيل ، واشتد الصراع بين الطرفين ، وكان على الفئات المتمصرة بزعامة شريف باشا أن تختار . . فاختارت الجانب المصرى ، ليس لأنه الأقوى ، ولكن لأنه الأبقى ، ولأنه الأكثر اتساقا مع حركة التاريخ ، ولأنه الأكثر اتفاقًا مع المبادئ والأفكار العصرية التى تشبعت بها .

* * *

ومن المؤكد أن العوامل الثقافية ، لعبت دورًا فى تحريك مشاعر هذه الفئة فكلهم اتصل بأوربا ـ وفرنسا بالذات ـ وعاصر التطورات الدرامية التى انتهت إلى انتصار الليبرالية وإندحار الحكم المطلق والنظام الإقطاعى . . وكانوا على ثقة بأن سنة التطور لابد أن تسرى على مصر ، وأن رياح التغيير لابد آتية ، وأن عليهم أن يتحركوا حتى يتم التغيير سلميا ودون إراقة دماء ، أو حدوث صدع يهدد كيان الوطن . . وكانت غاية آمالهم أن يتخلى إسماعيل عن نزعته الاستبدادية ، ويعمل على توسيع قاعدة الشورى ، لتستوعب التطورات الاجتماعية الجديدة . . كانوا يحلمون بالدستور وبالمجلس النيابى ! وبالوزارة المسئولة أمام البرلمان ، وبالحاكم الذى يملك ولا يحكم . . وكانوا يحلمون بإلغاء السخرة والرق . . وسيادة المبادئ الإنسانية ، واحترام كرامة الفرد . . ولم يكونوا فى ذلك الوقت مسرفين فى أحلامهم . . ألم يقل إسماعيل إن مصر أصبحت قطعة من أوربا ؟ ! ولكن وجه التمايز بينهم وبين إسماعيل ، أن الأخير لم يقتبس من معالم الحضارة الأوربية ، سوى مظاهرها المادية البراقة . . دار الأوبرا ، وأفراح الأنجال ، وحفلات الليل المخملية ، وتشييد القصور الفاخرة على غرار قصور فرساى التى احترقت فى أتون الثورة . . أما جوهر الحضارة المتمثل فى احترام إرادة الشعب ، والامتثال لمبدأ سيادة الأمة . . فإن إسماعيل لم يكن على استعداد لاقتباسه أو الاقتراب منه .

* * *

وهذا هو جوهر الخلاف بين راعى الأرستقراطية التركية العتيقة ـ إسماعيل ـ الذى

أدار ظهره لحركة التاريخ ، فاحترق ، وقائد الأرستقراطية المصرية المستنيرة ـ شريف باشا ـ الذى قاد أول حركة دستورية نيابية فى مصر ، ليجنب البلاد مغبة ثورة دموية تأكل الأخضر واليابس ، فنجح حينا ، وفشل أحيانا ، حتى انتهى الصراع بقيام الثورة العرابية . . ثم وقوع الاحتلال الإنجليزى . .

إسماعيل .. الأفريقى

كان الخديو إسماعيل يقول إن مصر قطعة من أوربا ، وكان يعنى بذلك أن تأخذ مصر حظها من ثمار الحضارة الأوربية فى العلوم والفنون والثقافة والتقنين ، وأن تحقق مصر نفسها بالمصل الحضارى ، حتى يشتد عودها . . وتقوى على مواجهة تيار الحضارة العالمية الذى بلغ عنفوانه فى منتصف القرن التاسع عشر . . وبدهى ، فإن إسماعيل لم يقصد بهذا التعبير أن تنسلخ مصر من روحها الإسلامية والشرقية ، أو تجتث جذورها الضاربة فى عمق التاريخ ، فتصبح امتدادًا لفرنسا أو تابعا لإنجلترا . . فقد كان إسماعيل من الحكام القلائل الذين أدركوا سر الموقع الذى تشغله مصر فى قلب العالم القديم ، واستوعبوا رسالتها الحضارية الموروثة تجاه الشعوب المجاورة لها . .

* * *

لم يكن إسماعيل أوربى النزعة . . كما يبدو من مظهره المتفرنج . . ولكنه كان يؤمن بأن مصر قطعة من أفريقيا . . وأن مصر هى النافذة الشمالية التى تطل منها القارة السوداء على العالم المتمدين . . وكان يؤمن بمصر القوية المعطاء ذات الإشعاع الحضارى الذى يحمل مشاعل العلم والمعرفة والعمران والتقدم ، إلى قلب القارة . . وقد ورث عن جده العظيم ، محمد على ، طموحه إلى تجديد شباب مصر ، كما ورث عن أبيه ـ البطل المغوار إبراهيم ـ فكرة الكيان الكبير فى عالم احتدم فيه الصراع بين القوى الأوربية الاستعمارية التى خرجت كالمارد تلتهم كنوز القارة الأفريقية ، وتبنى مجدها وقوتها من ثروات الشعوب المقهورة . . لقد نجحت القوى العظمى فى تدمير العسكرية المصرية التى دقت أبواب القسطنطينية ، وأفلحت فى قص أجنحة إبراهيم

باشا التى انتشرت على روابى الشام وصحراء الجزيرة وساحل الخليج ، وأخمدت النفوذ المصرى المتوهج وحصرته داخل حدوده الضيقة . . فجاء إسماعيل بعد ربع قرن ليستأنف حركة الفتوح المصرية . . ولكنه ولى وجهه شطر أفريقيا لثقته بأن البعد الأفريقى هو المجال الطبيعى للحضارة المصرية . . وتوالت الحملات المصرية فى عمق القارة وشرقها . . فى وادى النيل ، وعلى ساحل البحر الأحمر ، تحمل مشاعل الحضارة . . وتقيم أسس العمران والمدنية . . فارتفعت المآذن ، وبنيت المساجد والمدارس والمستشفيات ، وشقت الطرق البرية والسكك الحديدية ، وامتدت أسلاك البرق والهاتف والبريد ، واستصلحت الأراضى ، وانتعشت الزراعة والصناعة والتجارة ، واستتب الأمن والنظام ، وقامت نظم الإدارة الحديثة ، حتى قال السير صمويل بيكر : إن السائح الأوربى يمكنه أن يجوب تلك الأصقاع البعيدة دون أن يخشى على نفسه أكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس فى حديقة هايد بارك بلندن .

* * *

لم تكن حملات مصر ، على عهد إسماعيل ، استعمارًا بالمعنى الأوربى البغيض ولكنها كانت تعميرا وتنويرًا ، بالمعنى المصرى الموروث ، ويكفى هذه الحملات فخرًا أنها استهدفت إزالة أحط وصمة فى تاريخ القارة الأفريقية ، وأعنى بها تجارة الرقيق . . فأخذت تتعقب هذه التجارة الممقوتة . وتتصدى لمن يقف وراءها من أمراء وشيوخ قبائل وزعماء يتمتعون بالسطوة والنفوذ ويجنون منها ثروات طائلة . . ويكفى أن تعلم أن الدور المصرى فى مقاومة تجارة الرقيق ، كان من أسباب قيام الثورة المهدية ، وانقضاض الزعامات المحلية على الوجود المصرى فى السودان ؛ فقد هال كبار المزارعين التغيير الفجائى فى النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد الذى كان يعتمد اعتمادًا رئيسيا على سواعد الرقيق . . وبعض المؤرخين يرى أنه كان ينبغى على إسماعيل أن يعالج مسألة الرقيق بالتدريج حتى لا تؤدى الطفرة إلى هزة فى النظام الاقتصادى .

* * *

وأيا كان الرأى فى مسألة الرقيق ، فإن الدور الحضارى المصرى ، مضى فى طريقه

المرسوم طوال السنوات الأولى من حكم إسماعيل ، ومدت مصر نفوذها إلى قلب القارة ، حتى منطقة البحيرات الكبرى (فكتوريا وألبرت) ، وفتحت مديرية فاشودة في جنوب السودان ، واكتشفت بحيرة أطلقت عليها اسم (إبراهيم) ، وفتحت إقليم خط الأستواء ومملكة (أونيورو) ، وبسطت حمايتها على مملكة أوغندا ، وأعرب ملكها (أمتيسى) عن ولائه للعرش المصري ، وعقد مع ممثل مصر معاهدة في سنة ١٨٧٤ اعترف فيها بوضع مملكته تحت حماية مصر ، وأرسلت المعاهدة إلى إسماعيل الذى أبلغ الدول أن مصر ضمت إليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت . . وفتحت مصر إقليم بحر الغزال ، ثم سلطنة دارفور ، واتسعت أملاكها بين الحبشة والبحر الأحمر ، وضمت محافظتى زيلع وبربرة الواقعتين على خليج عدن فيما وراء باب المندب .. كما ضمت محافظتى سواكن ومصوع (عاصمة أرتيريا)، ثم سلطنة (هرر) في الجنوب الشرقى من الحبشة ، ودخلت سواحل الصومال الشمالية في أملاك مصر حتى رأس (جردفون) على المحيط الهندى . . وبذلك انفسحت رقعة الأملاك المصرية سواء في وادى النيل حتى منطقة البحيرات أو على ساحل البحر الأحمر حتى المحيط الهندى . . وأصبح الساحل الغربى للبحر الأحمر من السويس حتى باب المندب ، ومن باب المندب إلى ساحل المحيط الهندى من ممتلكات مصر .

* * *

تلك كانت حدود مصر في عهد إسماعيل ، فاستحق تمجيد المؤرخين الوطنيين له ، ومنهم الرافعى ، الذى وصف فتوح إسماعيل في أفريقيا بأنها من مآثره التى تخلد ذكره في تاريخ مصر القومى . . واستحق نقمة بريطانيا التى كانت ترقب بفزع تحركات مصر في أفريقيا ، ولم يرقد لها جفن حتى أجهضت هذه الفتوح بعزل إسماعيل وبطرده من مصر عام ١٨٧٩ ، ثم باحتلالها مصر عام ١٨٨٢ . . وبدأت عملية تصفية ممتلكات مصر في أفريقيا . . وعادت مصر إلى عزلتها . . تلعق جراحها . . وتبكى حظها . . وتتذكر أيام مجدها القديم . .

عاشق النهر الخالد

عندما يتحدث المصريون عن الحملات التى تمت خلال القرن الماضى لاكتشاف منابع النيل ، فإنهم يذكرون أسماء صموئيل بيكر وسبيك وجرانت ، وأشباههم من الرحالة الأوربيين . . وينسون أن أول محاولة علمية لاكتشاف منابع النهر ، إنما قام بها ضابط مصرى عظيم ، هو الفريق محمد سليم باشا القبطان الذى تجاهلته كتب التاريخ الرسمية ؛ فلم تتحدث عنه من قريب أو من بعيد ، تأثرا بالعقدة التى أصبنا بها فى مراحل الضعف بسبب انعدام الثقة بالنفس ، وأعنى بها عقدة «الانبهار بالغرب » . . والتعلق بكل ما هو غريب . . وجحود كل ما هو وطنى . . أو مصرى . . !!

ومما يضاعف من الإحساس بالألم ، أن الأوربيين كانوا أكثر تقديرًا لهذا الضابط المصرى الشجاع ، الذى عشق النهر ، فقاد ثلاث حملات فيما بين عامى ١٨٣٩ - ١٨٤٢ إلى أعالى النيل لكشف أسراره وفض مغاليقه . . وكان للنتائج التى أسفرت عنها حملاته ، دوى عظيم فى المحافل العلمية فى كل أنحاء القارة الأوربية . . وإليك مثالا مما كتبه مسيو « جومار » ، العلامة الفرنسى الذى جاء إلى مصر ضمن رهط العلماء المرافقين لبونابرت ، ولم تنقطع صلته الثقافية بمصر بعد عودته إلى بلاده ، فاستعان به محمد على فى الإشراف على البعثات المصرية التى كان يوفدها إلى باريس . . كتب « جومار » فى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية ، يصف اكتشافات سليم القبطان بأنها : « باكورة ثمار الحضارة التى انبعث ضوءها فى مصر منذ ربع قرن . . وهى صالحة ، ولابد أن تبقى كذلك ، لتكون قاعدة للاستكشافات التالية» . . كما وصفها الدكتور « فريدريك بنولا » ، الذى مثل مصر فى مؤتمر الجغرافيا الدولى المنعقد فى باريس عام ١٨٨٩ ، بأنها : « كانت السبب فى الحصول

على المعلومات التى وصل إليها العلماء بعد ذلك ، بل هى الأساس الذى نبنى عليه حل مسألة النيل» ، وذلك بفضل ما قامت به من الدراسات الطبيعية والجغرافية لمجرى النيل الأبيض ، وما كشفت عنه من الجهات والقبائل فى هذه المناطق النائية التى كانت حتى ذلك الوقت لا تزال مجهولة ، ومهدت السبيل لارتياد هذه المناطق العليا للنيل ، والكشف عن منابعه وحل هذا اللغز الجغرافى القديم .

وعن شخصية المكتشف المصرى العظيم ، يقدم لنا الدكتور نسيم مقار ، فى كتابه الوثائقى عنه ، صورة يكتنفها الغموض حول نشأته الأولى ، فالذين عاصروه أو رافقوه فى حملاته الكشفية لم يتعرضوا كثيرًا لنشأته ، وكل ما يعرف عنه أن أصله من جزيرة كريت . . وقد حضر إلى مصر فى صباه ، واندمج فى المصريين ، واختلط بهم حتى صار مصريا ، والتحق بالبحرية المصرية ، على عهد محمد على ، حيث عمل ضابطا بحريا فى ترسانة الإسكندرية ، ثم عهد إليه مؤسس مصر الحديثة بهذه المهمة التاريخية التى جعلت منه بطلا وخلدت اسمه فى سجل التاريخ . . والأمر المثير للدهشة أن كل المعلومات المتوفرة حول شخصية سليم القبطان إنما مصدرها الأوربيون الذين رافقوه فى رحلاته الكشفية ، وسجلوا ملاحظاتهم عن أخلاقه وتصرفاته وأسلوبه أثناء قيادة الحملات .

يقول المهندس الألمانى « فرن » الذى رافقه فى الحملة الثانية : « إن سليما كان طموحا راغبا فى الشهرة . تواقا إلى أن يحقق لنفسه مجدا كبيرًا وفخرًا عظيمًا . . وكان على غير ما كنت أعتقد ـ شجاعا ذكيا نشطا مدركا لخطورة المنصب الذى يتولاه وعظم المسئولية الملقاة على عاتقه ، بصيرًا بكل ما يحيط به ، وهو يمتاز باللباقة ويتحفظ فى كلامه مع رفقائه من المهندسين الفرنسيين ، ويحرص على استشارتهم فى المسائل الهامة ، واحترام آرائهم حتى لا يثير غيرتهم وحفيظتهم عليه » .

ومن خلال التقارير اليومية ، التى كان يكتبها سليم القبطان ، أثناء رحلته فى مجاهل النيل ، يكتشف الدكتور مقار أن الرجل كان متدينا شديد التمسك بأداء الشعائر الدينية وإقامة الصلوات فى وقتها . . وعندما حل شهر رمضان المعظم والحملة تأخذ طريقها فى مجرى النيل الأبيض ، حرص القبطان على تأدية فريضة الصوم كاملة على الرغم من أن الدين يبيح الفطر للمسافر . . ولما حل عيد الفطر

سنة ١٢٥٥ هـ أمر الجنود بإطلاق المدافع من جميع السفن ، ورفع الأعلام ابتهاجا بالعيد . وفعل نفس الشيء عندما حل عيد الأضحى ، وأدى صلاتى العيدين مع الضباط والعساكر على ظهور المراكب والذهبيات ، كما دفعته نزعته الدينية إلى الحلم، والنفور من العدوان . . ففى أثناء سير الحملة كانت تصادفه على شاطئ النيل الأبيض بعض الجماعات التى تميل بطبيعتها إلى الشر ، وتقوم بتظاهرات عدائية نحو رجال الحملة ، فكان يمتنع عن إطلاق النار عليهم . ويبادر إلى إظهار نياته الحسنة نحوهم ، فيرسل إليهم ترجمانه ليبلغهم رغبته فى مقابلتهم ليتحف كلا منهم ببعض الهدايا ، كذلك لم يكن سليم القبطان يميل إلى الاستبداد ، وإنما كان يميل بطبيعته إلى الشورى . . وفى جميع المواقف التى تعرضت فيها الحملات الكشفية للمخاطر ، كان سليم يبادر إلى عقد المجالس مع ضباطه ومهندسيه للتشاور فى الأمر ، ثم يصدر قراره فى النهاية بناء على رأى الأغلبية ، ولكنه كان فى الوقت نفسه حازما صارما إلى درجة ملحوظة فى تطبيق اللوائح والعقوبات على كل من يتهاون من الضباط والعساكر . أو من يغتصب من أحد المواطنين شيئا مهما كان تافها .

وكان من أثر هذه الصفات الشخصية القويمة ، أن نجح سليم القبطان فى أداء المهمة الجليلة التى خلدت اسمه وجعلته مقترنا باسم النهر الخالد . . فكانت حملاته طليعة الحملات اللاحقة التى تمت فى عصر إسماعيل مسترشدة بالنتائج العلمية الباهرة التى عاد بها سليم القبطان ، وكان لها تأثير بعيد المدى فى تطور أحوال المجتمع السودانى ، ويكفى أنها فتحت طريق الملاحة والتجارة فى مناطق النيل العليا وربطت بين شمال السودان وجنوبه ، وألقت الضوء على جنوب السودان الذى كان حتى ذلك الوقت يعيش فى عزلة تامة عن المجتمع الإنسانى .

مجـزرة همجيـة

فى الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ ، أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب ، فانهالت قذائف الأسطول البريطانى على مدينة الإسكندرية . . كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام . . فتصيب أهدافها إصابات مباشرة . . أما مدافع الحصون والطوابى المصرية ، فكانت ضعيفة خائرة متراخية . . فتسقط قنابلها فى مياه البحر ، دون أن تصل إلى البوارج الإنجليزية . واستمر إطلاق الحمم حتى قبيل غروب الشمس . . وهى فترة كانت كافية لتدمير المدينة . . وتحويل أحيائها الآهلة إلى أطلال تتراكم فيها الجثث ، وتنعق البوم ، بعد أن فر سكانها وهاموا على وجوههم ، نحو الريف ، بحثا عن مأوى يقيهم نار الجحيم . .

كانت مجزرة بشرية رهيبة ، ارتكبتها بريطانيا العظمى ، عقابا للشعب المصرى لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوربى الذى تغلغل فى أنحاء الديار المصرية . . وبات يشكل خطرا على روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطنى . . كان حكام مصر من سلالة محمد على ، قد فتحوا أبواب البلاد على مصاريعها أمام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أحط الجرائم . . ولم يكن هؤلاء الأجانب فى مستوى الطبيب الشهير كلوت بك . . أو القائد العسكرى الكولونيل سيف . . وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدسين فى الموانئ الأوربية ، من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض . . فلما تسامعوا عن الخير الوفير فى مصر المحروسة ، شدوا إليها الرحال طمعا فى الثراء الرخيص . . وامتهنوا أحقر المهن ، وانتشروا فى خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة . . فلما كثرت النقود فى أيديهم وظفوها فى الربا . . واستطاعوا تملك الأراضى الشاسعة

والعقارات الثمينة . . واستغلوا الامتيازات الممنوحة لهم فى إذلال المصريين فى عقر دارهم . . وكانت المحاكم القنصلية الأجنبية هي المختصة بنظر جميع أنواع المنازعات الخاصة بالأطيان . . ومنها الرهن ونزع الملكية . . ولك أن تعجب أشد العجب إذا عرفت أن هذه المنازعات ، كان يطبق عليها ١٧ قانونًا أجنبيًا تطبقها ١٧ قنصلية ويقف وراءها وكلاء شداد غلاظ القلوب ماتت ضمائرهم بفعل الطمع والجشع . . فكان على المصرى المسكين ، إذا خسر دعواه ضد الأجنبى ، أن يستأنفها أمام محاكم البلد التابع له هذا الخصم . . وإذا صدر على الأجنبى حكم بإخلاء أرض أو عقار لأحد المواطنين ـ كان الأجنبى يحتال على ذلك الحكم بالتنازل عن هذه الأرض لأجنبى آخر ، ويصبح على المصرى أن يقيم دعوى جديدة على الخصم الجديد . . وإزاء هذه الدورة الجهنمية ، كان المصرى يضطر إلى ترك حقه . . وبهذه الطريقة الخسيسة انتقلت الملكيات إلى الأجانب . . وأصبح المصريون كالأيتام على موائد اللئام .

* * *

فلما أفاق المصريون على هذا الخطر الداهم . . وقامت الحركة العرابية للحد من سطوة النفوذ الأجنبى . . انتفضت بريطانيا لتجهض الثورة بقوة السلاح . . وأوفدت أسطولها لتأديب المصريين حتى لا تقوم لهم قائمة ولا تراود خيالهم فكرة التحرر . . وجاء سيمور ليصبها حمما على رءوس أهل الإسكندرية فى ذاك اليوم المشئوم . ولقد وصف المسيو جون نينيه ـ عميد الجالية السويسرية وصديق المصريين ـ المجزرة بهذه الكلمات : « كانت البوارج الإنجليزية تتقدم للضرب مثنى مثنى ، فى بطء ، ثم تصطف فى هوادة تجاه كل طابية مصرية ، وتصب عليها قنابلها حتى تدكها دكا وعندئذ تقترب منها تدريجيا وتنسف البطاريات والمدافع التى تكون قد انقلبت عن موضعها تحت تأثير قنابل الأسطول ، ثم تنثنى على الرماة المصريين فتحصدهم حصدا بقذائف المتراليوزات المركبة على ساريات البوارج . . ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أى مسوغ . . وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء . . ولقد كان بودى أن أسائل أولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل المتراليوزات : هل يستطيعون حينما يعودون إلى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاى فى بيوتهم ، أن يتحدثوا إلى

ذويهم عن آثار القتل والتدمير ، التي خلفتها تلك المجازر البشرية ؟! إنى أشك فى ذلك . فليت شعرى أى إهانة لحقت بالأمة البريطانية من جراء هذا الجرم الفظيع . . » .

* * *

وإذا كانت المجزرة قد حركت ضمير هذا السويسرى الشريف . . فإنها لم تحرك ضمير العالم الأوربى ، الذى كان يتشدق بالحرية . . ويرطن بشعارات الإخاء والمساواة . . فقد وقفت كل الدول الأوربية تتفرج على المشهد ، وكأنها تتلهى برؤية إحدى حلبات المصارعة بين الأسود والعبيد فى العصر الرومانى . . حتى فرنسا الحرة تخلت عن شعاراتها . . ولم تجرؤ على أن تقول لغريمتها المتعجرفة « عيب » . . وهرب الأسطول الفرنسى ، الذى كان يرابط فى مياه الإسكندرية قبيل الضرب . . هرب إلى بورسعيد بعد أن كشر له سيمور عن أنيابه . وخابت آمال المصريين فى فرنسا نصيرة الحرية والعدالة . . بل حدث ما هو أدهى وأمر . . فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الإسكندرية وما تبعها من احتلال عسكرى ، عملا من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة . . وكان جواب حكومة لندن على التهنئة : « إن انتصارنا هو انتصار أوربى . ولو انهزم الجيش الإنجليزى لكان ذلك كارثة على كل الدول التى تحسب حسابا للتعصب الإسلامى » . .

التعصب الإسلامى . . !!

أنعم النظر فى هذه العبارة الغريبة حتى يتملكك الغيظ . . !

بريطانيا العظمى تحرك فى نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة . . وترى فى دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهرًا للتعصب الدينى . . !! أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم ، وإذلال كرامتهم ، فهو عين التسامح الدينى الذى تريده الدول العظمى !

منطق غريب جدا . . ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع فى كل عصر .

حـرق الإسكنـدرية

كانت الاستحكامات العسكرية فى مدينة الإسكندرية ، قبيل ضربها فى يوليو ١٨٨٢ ، قد بلغت درجة سيئة من التهالك والقدم . . فالحكام الذين استدانوا وأنفقوا الملايين على بناء القصور وإقامة الحفلات وشراء الجوارى ، لم يفكروا فى تجديد الحصون والطوابى ، وشراء المدافع الحديثة القادرة على مواجهة العدوان الخارجى . . وبسبب هذا الضعف والإهمال ، لم تصمد الطوابى أمام النيران الهائلة التى صبتها قذائف الأسطول الإنجليزى . . ولم يبق أمام الجنود المصريين الرابضين خلف المدافع الخائرة ، سوى الاستبسال والدفاع عن شرفهم وشرف بلادهم حتى الرمق الأخير . . وكان الثمن غاليا .

يصف شاهد العيان جون نينيه صمود الجنود المصريين ، وكأنه يرسم لوحة زيتية رائعة لمأساة دامية فيقول : « ما كان أبدع هذا المنظر . . منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم ، وهى مكشوفة فى العراء ، وكأنما هم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم . . إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس . . وكانت معظم الحصون بلا سواتر . . ومع ذلك ، فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ، ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه . . وكان الأئمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة . . وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار . . ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم . . بل إن عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التى استهدفوا لها كانتا تستثيران الحماسة فى صدورهم . . وهم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد فى آلامهم . .

وفى اليوم التالى ، استأنف الأسطول البريطانى قصف المدينة الباسلة ، رغم أن الطوابى قد سكتت تماما بعد تخريبها . . ورفعت الرايات البيضاء . . وظهر جليا عزم الإنجليز على احتلال المدينة بعد أن دكوا حصونها ، وحطموا كل وسائل دفاعها . . وبينما كانت طلائع قوات الغزو تطأ أرض الساحل السكندرى . اندلعت النيران فجأة فى حى المنشية . . وما هى إلا ساعة أو بعض الساعة حتى انتشرت النيران فى بقية الأحياء الشعبية والأجنبية . . وما إن حل المساء حتى كانت المدينة قد تحولت إلى شعلة من الوهج . .

** من الذى أمر بحرق الإسكندرية . . ؟!

لا يزال هذا اللغز موضع اهتمام الباحثين . . وكان من الطبيعى أن ينصب الاتهام على رأس العرابيين ، الذين أبوا أن يتركوا المدينة موطئا سهلا للغزاة . . ففعلوا ما فعله الروس فى موسكو عندما تقدمت إليها جحافل جيش نابليون ، فحرموه نعمة الإيواء فى مدينة آمنة . . وقال بعض الشهود ، إنهم رأوا عبد الله النديم ـ بعد الحادث ـ فى محطة سيدى جابر راكبا فى صهريج القطار وفى يده طبنجة ، وسمعوه يقول إنه قتل بها ثلاثة أشخاص ، وإن حرق المدينة كان بواسطة غاز أحضر بمعرفتهم وصُبَّ على الدكاكين والمنازل حتى يتم الحرق بسرعة .

وتكاد معظم المراجع التاريخية ، تجمع على أن الذى أمر بإحراق المدينة هو القائمقام سليمان سامى داود قائد الآلاى السادس الذى كان متمركزا فى المدينة ولم يشترك فى القتال . . فقد أمر جنوده بإضرام النار فى المدينة ، على أمل أن يحول الحريق دون نزول الإنجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لزحفهم . . ويصف الرافعى هذا العمل بأنه كان عملا عقيما يدل على الجهل بالخطط الحربية . . لأنه لم يعطل نزول الجنود الإنجليز إلى البر صبيحة اليوم التالى . . (الخميس ١٣ يوليو) كما يصف ذلك الضابط الكبير بأنه كان مشهورا بالحمق والتهور ، وكان يعتبر نفسه « عرابى » آخر بالإسكندرية . . وقد صمم على ألا ينسحب الجيش من الإسكندرية إلا بعد أن يجعلها خرابا . . ويتخذ الرافعى من هذا التصرف دليلا على انعدام وحدة القرار بين القادة العرابيين ، وينفى عن عرابى تهمة إصدار مثل هذا القرار الخطير . .

وقد أثبتت التحقيقات أن مسئولية إحراق المدينة وما تعرضت له من أعمال

السلب والنهب ، لا تقع على عاتق القائمقام سليمان سامى داود وحده . وإنما كانت هناك قوى أخرى اشتركت فى تخريب المدينة . . وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده إن تهمة حرق الإسكندرية ينبغى أن توجه لأكثر من طرف . . فقد عثر على جثث أروام بلباس عرب أثناء الحريق . . كما اشترك فيه عربان من أولاد على ، ممن كانوا على صلة بالخديو توفيق . . ومنهم أهالى الإسكندرية ، ومنهم أوربيون بقصد المبالغة فى طلب التعويضات . . ويقول شاهد العيان جون نينيه إن الحرائق الأولى شبت فى الأحياء الشعبية من قنابل الأسطول الإنجليزى يوم الضرب ، ومن فعل بعض الأوربيين الذين بقوا فى المدينة بقصد النهب ، وبعض الأشقياء الذين أطلق سراحهم من السجون . . أما حرائق الأحياء الأوربية ، فهى من فعل عربان « أولاد على » الذين كانوا مجتمعين حول البلد يعاونهم بعض عساكر الرديف وبعض الأروام، ثم بعض أصحاب الدكاكين من الأجانب ممن قصدوا الحصول على تعويضات . .

* * *

ورغم توزع المسئولية على كل هذه العناصر ، إلا أن المسئولية وضعت فى رقبة القائمقام سليمان سامى ، الذى نجح فى الفرار على ظهر قارب إلى جزيرة كريت وكانت تابعة للسلطان العثمانى . . وبعثت سلطات الاحتلال البريطانى إلى حكومة إستانبول تطلب القبض عليه وتسليمه إليها . . ولم يكن من حكومة أستانبول سوى الإذعان . فألقت القبض عليه ، وبعثت به مخفورًا إلى مصر . . حيث قدم إلى المحاكمة العسكرية وحكم عليه بالإعدام . .

وكان سليمان سامى داود ، أحد ضابطين اثنين حكم عليهما بالإعدام ، ونفذ فيهما الحكم بالرغم من تخفيف أحكام الإعدام عن قادة الثورة العرابية . أما الضابط الثانى فله قصة أخرى . .

الشهيد البرئ

كان من الطبيعي أن تسود الشارع المصرى روح الكراهية والعداء للأجانب ، بعد ضرب الإسكندرية واحتلال الإنجليز لها . . وكان المهاجرون من أبناء الإسكندرية قد انتشروا فى أنحاء الدلتا يحكون للناس عن الفظائع التى وقعت لهم . . فثارت خواطر العامة . وامتلأت نفوسهم حقدا وغيظًا ونقمة على الأوربيين الذين كان تواطؤهم مع الإنجليز أمرا واضحا منذ بداية الأزمة . . وقامت جماعات من المتحمسين فى طنطا والمحلة الكبرى ومنوف ، تطارد الأجانب فى الشوارع وتعتدى على محلاتهم . . ولم تكن هذه التصرفات الهوجاء تحظى برضاء عقلاء القوم . . لما يعرفونه عن مخاطرها فى المستقبل . . فضلا عن منافاتها لروح السماحة المعروفة عند المصريين . . ونهض كبار الأعيان يفتحون بيوتهم لإيواء الأجانب وحمايتهم من الاعتداء . وانفتح بيت أحمد المنشاوى باشا ، فى طنطا ، لاستقبال أكثر من ٣٠٠ شخص من الأوربيين ، فوجدوا فيه الحماية والأمان .

فى ذلك الوقت كانت المعارك دائرة بين الجيش البريطانى والجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى باشا فى كفر الدوار . وكان اللواء عبد العال حلمى باشا قائدًا لجبهة دمياط ، فأوفد ياوره الخاص اليوزباشى يوسف أبو دية فى مهمة عاجلة إلى عرابى باشا فى كفر الدوار . وأثناء توقف الضابط الشاب فى طنطا وجد شوارع المدينة قد تحولت إلى ساحة للشغب والفوضى . فالأهالى يطاردون الأجانب فى غيبة من رجال الأمن . ولم يشأ الضابط الشهم أن يترك المدينة وهى على هذه الحال من الفوضى ويواصل مشواره إلى كفر الدوار . . وأبى عليه حسه الوطنى وإدراكه للمسئولية أن يقف متفرجا ويقول (وأنا مالى) ، فمضى لتوه إلى مبنى المديرية ، فلم

يجد مدير الغربية إبراهيم باشا أدهم فى مكتبه فى هذا الوقت العصيب . . وقيل له إنه مريض وملازم الفراش فى بيته . . فمضى إليه فى بيته فوجده سليما وصحته زى البمب . . فما كان من الضابط الشاب إلا إن أنهال على الباشا المدير تقريعا وتوبيخا . . وغادر طنطا من فوره إلى كفر الدوار . . حيث حكى لعرابى باشا عن قصة المدير المتمارض ، الذى لزم بيته تاركا الفوضى تضرب أطنابها فى مدن الغربية . . وأبلغه ما سمعه عن وقوع أحداث مشابهة فى المنوفية . . فانزعج عرابى انزعاجا شديدا . . وأمر بالقبض على مدير الغربية ، ومدير المنوفية ، وتقديمهما إلى محاكمة فورية أمام المجلس العسكرى المنعقد فى القاهرة . . وأمر بإرسال أورطة من الجيش بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ، لإعادة النظام إلى مدن الغربية والمنوفية . . وأصدر تعليماته إلى مصلحة السكة الحديدية ، بإرسال قطار خاص إلى طنطا لنقل الأجانب الذين يرغبون فى السفر إلى الإسماعيلية وبورسعيد بالمجان .

* * *

فلما انقلب الميزان . وانهزم الجيش المصرى أمام جحافل الاحتلال البريطانى خرجت الأفاعى من جحورها ، واستأسدت الثعالب والذئاب . . وبدأت الحملة المضادة للانتقام من العناصر الوطنية التى وقفت إلى جانب عرابى دفاعا عن استقلال الوطن . . وفى إطار الانهيار الأخلاقى الذى عم البلاد ، تحول الخونة إلى أبطال . . وانزوى الأبطال فى غياهب السجون . . وانقلبت قضية المدير المهمل إبراهيم أدهم على أعقابها . . وخرج من سجنه ليوجه الاتهام إلى الضابط الشاب يوسف أبو دية بأنه كان يحرض أهالى طنطا على قتل الأجانب !! ولم يعدم المدير الهمام العثور على بعض الساقطين من ذوى الذمم الخربة ، ليشهدوا زورا أمام المحكمة العسكرية بالإسكندرية ، بأن اليوزباشى أبو دية كان يحرضهم على الفوضى والشغب . . ولم يكن لدى المحكمة العسكرية وقت لتفنيد هذه الدعاوى والتأكد من بطلانها . . فلم يكن الوقت يسمح بمثل هذه الإجراءات القضائية . . كان المطلوب سرعة البت فى محاكمة العرابيين حتى يتفرغ الإنجليز لتنظيم شئون الاحتلال . . وذهبت عبثا محاولات الضابط الشهم لإثبات كذب الادعاءات التى افتراها عليه المدير . . فحكمت عليه المحكمة بالإعدام شنقا ، وسيق إلى السجن انتظارًا لتنفيذ الحكم . .

ومضت الأيام ثقيلة كئيبة ، حتى نشرت الصحف نبأ الحكم بالإعدام على الضابط البرئ يوسف أبو دية . . وثارت ضمائر بعض أهالى طنطا . . فقد أزعجهم أن يساق إلى حبل المشنقة ضابط بتهمة التحريض على قتل الأجانب . . بينما شاهدوه بأعينهم وهو يبذل قصارى جهده لوقف عمليات الاعتداء . . فتطوعوا بالذهاب إلى مكاتب التحقيق بالإسكندرية . . وشهدوا بالحقيقة التى لمسوها بأعينهم . . واستطاعوا إثبات كذب الشهادات المزورة التى قدمها المدير . . وأعادت هيئة التحقيق فتح ملف القضية ، واقتنعت بصحة الوقائع الجديدة ، وكذب الأدلة التى استند إليها حكم الإعدام . . وأعدت هيئة المحكمة تقريرها ، وانتهت فيه إلى براءة اليوزباشى يوسف أبو دية . ورفعت تقريرها إلى وزير الحقانية ، طالبة استصدار مرسوم من الخديو بالعفو عن الضابط البرىء ، وأصدر الخديو توقيع مرسوم العفو الذى حمله رسول خاص إلى الإسكندرية . . وشاء القدر العاثر أن يصل المرسوم إلى السجن بعد خمس دقائق فقط من تنفيذ حكم الإعدام فى الضابط البرىء . وقرأ مأمور السجن مرسوم العفو ، بينما كانت جثة الضابط الشهيد يوسف أبو دية تتدلى فى بئر المشنقة . . ولم يتمالك الحاضرون أنفسهم . . فاجهشوا بالبكاء بمن فيهم عشماوى نفسه . .

أبو الدستور

كان قاضي قضاة مصر عام ١٨٢٦ ، رجلاً تركيا اسمه محمد شريف أفندى الشركسى ، وكان منصب قاضى القضاة ، من المناصب العليا ، التى تستأثر بها حكومة الخلافة العثمانية ، بحكم سيادتها على مصر ، رغم استقلال محمد على بمصر استقلالا فعليا .. وفى أثناء السنة التى قضاها الشركسى أفندى بمصر أنجب طفلا أسماه (شريف) .. ولم يلبث أن عاد به إلى الأستانة بعد انتهاء فترة خدمته بمصر .. وبعد سنوات عين الرجل قاضيا على الحجاز ، وفى أثناء ذهابه إليها عرج على مصر ، ليحظى ببركات ولى النعم محمد على ، الذى ما إن شاهد الصبى (شريف) حتى توسم فيه النجابة والذكاء ، وأدرك أنه سيكون له شأن . وكان محمد على يتمتع بخاصية الفراسة ، فطلب من الأب إبقاء ابنه فى مصر ليتلقى تربية ملوكية مع أبناء الوالى .. ووافق الأب ، وترك الصبى وديعة فى كنف عزيز مصر . والتحق شريف بالمدرسة العسكرية التى أنشأها محمد على ، فى الخانكة لتعليم أولاده أصول الضبط والربط .. وكان زملاؤه ، من أبناء العزيز : سعيد وحليم وحسين . ومن الأحفاد : إسماعيل .. فلما أتموا تعليمهم ، سافروا إلى باريس ، ليلحقوا بمدرسة (الرسالة) التى أقامها محمد على لاستكمال تعليم المتفوقين من خريجى مدرسة الخانكة .. وهنا ظهرت ميول شريف لتعلم الفنون الحربية ، فالتحق بمدرسة (سان سير) ، وهى يومئذ أرقى المعاهد العسكرية الفرنسية .. وبعد تخرجه ، خدم فى الجيش الفرنسى سنتين ، فلما مات محمد على عاد إلى مصر وهو برتبة نقيب ، فدخل الجيش المصرى معاونا للكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) ، وتوطدت الصداقة بينهما ، حتى انتهت بالمصاهرة فتزوج الضابط الشاب ابنة سليمان .

وفى عهد الوالى سعيد ، تفتحت أبواب الترقى أمام شريف باشا ، فعينه رئيسا للحرس الخصوصى برتبة لواء . . وبعدها ترك الخدمة العسكرية ، وتفرغ للنشاط الدبلوماسى ، وساعدته على ذلك ثقافته الفرنسية ، فأصبح سفيرا متجولا وممثلا شخصيا للوالى فى المهام الخارجية ، فلما تولى إسماعيل ، ازدادت فرص الترقى أمام شريف حتى أضحى وزيره الأكبر ، وموضع ثقته لدرجة أن عينه (قائمقام مصر) أثناء غيابه فى الخارج ، وكانت المرة الأولى التى يعين فيها نائب عن خديو مصر من خارج الأسرة العلوية .

هذا هو شريف باشا ، الذى ارتبط اسمه بكل الأحداث الجسام التى شهدتها مصر طوال ثلاثين عاما ، كان أجلها نشوب الثورة العرابية ، وأفدحها وقوع الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ . . ولكن الشهرة الكبرى التى علقت باسم شريف ، إنما جاءت من ارتباطه بالدستور ، وبالحياة النيابية ، وكلاهما خرج من أعطافه ويفضل مثابرته وإيمانه بالديمقراطية ، وبغضه للاستبداد . والحكم الاتوقراطى وإصراره على حق المصريين فى ممارسة الأساليب الحديثة فى شئون الحكم . .

* * *

كان من ثمرات هذا الكفاح النبيل ، أن شهدت مصر فى عام ١٨٧٩ تدوين أول دستور على أحدث المبادئ العصرية . . وأخذ شريف مسودة الدستور ، وذهب بها إلى مجلس النواب ، الذى حاولت حكومة رياض الإطاحة به ، فأعاد شريف للمجلس اعتباره ، وطلب منه الاستمرار فى ممارسة مهامه النيابية ، احتراما للقرار الذى اتخذته المعارضة الوطنية برفض حل المجلس . . وأعلن شريف أنه لن يوضع قانون ، ولن يعدل قانون ـ بما فيها القوانين الأساسية التى تقرر النظام الدستورى ـ إلا بقرار من المجلس . . وزيادة فى تكريم مجلس النواب ، وإضفاء صفة (اللجنة التأسيسية) عليه ، طلبت الحكومة من المجلس إقرار الدستور قبل عرضه على الخديو إسماعيل ، حتى لا يبدو وكأنه منحة من ولى النعم . . ومن المآثر التى سوف تذكر لشريف باشا أبد الدهر ، أنه ضمن هذا الدستور نصا يخول لأبناء السودان حق انتخاب ممثليهم فى مجلس النواب تأكيدًا للروابط التاريخية بين شطرى الوادى .

بعد كل هذا . . ألا ترى أن شريف باشا ، يستحق عن جدارة لقب (أبو

الدستور) . . ! إن النهج الذى نهجه هذا الرجل ، لا يزال مثار دهشة المؤرخين الذين سجلوا إصراره وصبره وانتزاعه حقوق المصريين السياسية من براثن إسماعيل . . وتزداد الدهشة إذا تذكرنا أن شريف باشا لم يكن مصريا أصيلا ، ولا تربطه بالتراب المصرى وشيجة قديمة ، ولا تجرى فى عروقه قطرة واحدة من دماء الفلاحين . . ! فما الذى دفعه إلى سلوك هذا المسلك الوعر ليقف إلى جانب الحقوق الدستورية للمصريين فى مواجهة السلطات الأتوقراطية التى كان يتمتع بها حكام مصر ومن يلوذ بهم من بقايا الترك والشركس والألبان . . وهو الذى ينتمى إليهم . . ؟!

قصة مزعومة

قبل أن أمضى فى الحديث عن شريف باشا . . أبى الدستور وراعى الحياة النيابية فى مصر الحديثة . . أستأذن القارئ فى عرض هذه الحكاية التى تتصل بشريف نفسه . وتلقى بعض الظلال على عملية ميلاد أول برلمان مصرى فى عام ١٨٦٦ ، وهو مجلس شورى النواب ، الذى أنشأه الخديو إسماعيل ، ليستكمل به ديكور الحضارة الأوربية فى مصر . .

تقول القصة إنه قبيل انعقاد المجلس . . لأول مرة . . اجتمع شريف باشا مع النواب (٧٥ نائبًا) بالقلعة ، وألقى عليهم درسا فى أصول الإجراءات البرلمانية ومنها أن يشكلوا من بينهم حزبين : أحدهما يؤيد الحكومة ، ويجلس على مقاعد اليمين . والثانى يمثل المعارضة ويجلس على اليسار . . وتظاهر النواب بأنهم استوعبوا الدرس . . فلما دخلوا القاعة ، جلسوا جميعا على اليمين . . فثار شريف باشا ، وأفهمهم أنهم بذلك يخرقون التقاليد . . ولكن النواب استنكروا طلبه ، وقالوا له : كيف يخطر ببالك ياباشا أن يكون بيننا معارض لحكومة أفندينا وولى نعمتنا . . ؟!! وتمضى القصة ـ إمعانا فى السخرية ـ فتزعم بأن شريف باشا أصر على أن يجلس بعضهم فى مقاعد اليسار . . فما كان منهم إلا أن تحولوا جميعا إلى مقاعد اليسار . . !!

* * *

فما رأيك ـ عزيزى القارئ ـ فى هذه النكتة التى يرددها بعض كتابنا ، حين يريدون التدليل على عظمة التطور البرلمانى المصرى المعاصر ؟ فلا يجدون أمامهم من سبيل سوى التحقير من شأن آباء الديمقراطية المصرية ، والتهكم على الرعيل

البرلماني الأول ، وإظهاره بصورة الجاهل الذى لا يعرف الفرق بين مقاعد اليمين ومقاعد اليسار ، ولا يتخيل أن تكون هناك معارضة لحكومة ولى النعم . . ! !

إنك لو عرضت هذه القصة على ميزان العقل ـ قبل عرضها على أدوات البحث التاريخي ـ فلن يستسيغها . . فمهما قيل عن وداعة المصريين وطيبتهم وصبرهم العريق وتمسكهم بالشرعية ـ وهو قول فيه نظر ـ إلا أن الأمر لا يبلغ بهم حد البلاهة . واستهجان قيام معارضة برلمانية ، ولو مصطنعة . . بل المعقول أن تنشأ بينهم «خميرة» معارضة ، ولو على سبيل التقليد للغرب . . كما يشاع على لسان شريف باشا فى القصة المزعومة . وفضلا عن ذلك فإن المجتمعات الإنسانية عرفت المعارضة فى كل الشرائع والنظم ؛ فلماذا يصر بعض الكتاب على استثناء الشعب المصرى من هذه المزية التى عرفتها كل الشعوب . . ؟!!

* * *

أما لو عرضت القصة على ميزان البحث التاريخي ، فسوف تكتشف أنها قصة مختلقة ، ليس لها أصل فى مصادر التاريخ الموثوق بها . . وإنما هى من مخترعات الكتاب الأوروبيين حين يطيب لهم السخرية من المصريين الذين لا يصلحون ـ فى رأيهم ـ لممارسة مبتكرات الحضارة الغربية . .

وهذه النتيجة ، هى التى انتهى إليها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ، بعد أن فند القصة ومحصها ، فلم يجد لها سندا من أقوال شهود العيان الذين عاصروا نشأة المجلس . . ولا جاء ذكرها ولو تلميحا فى مضابط المجلس . . ويضيف إلى ذلك قوله بأن الرواية لا يسيغها المنطق ، لأن نظام المجلس واختصاصه لا يدعان مجالا لتأليف حزب للحكومة وحزب للمعارضة . . فالأحزاب الموالية والمعارضة ، إنما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة (وهو ما يعرف بمبدأ المسئولية الوزارية) ، ولم يكن مجلس شورى النواب يملك هذا الحق أصلاً . . مما يقطع ببطلان القصة من أساسها . .

* * *

ولكن بعض كتابنا لا يتحرزون من ترديد هذه القصة المختلقة ، والترويج لها بحسن نية ، دون إدراك منهم لما تنطوى عليه من افتراء وتجريح وتهكم . . !! .

طوفان الفساد

بعد إخماد الثورة العرابية . . عاد الخديو الخائن توفيق بالقطار ، من الثغر المحترق إلى القاهرة المحتلة . . وكان فى استقباله بمحطة العاصمة ، قادة الجيش البريطانى الذين سبقوه إلى القاهرة ، ومهدوا له طريق العودة . . وانطلق موكب الخديو إلى قصر عابدين عبر الشوارع التى خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال . . لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة ، وبفعل القهر المسلح . . وأضحى الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة ، وسجين ينتظر النفى والتشريد . . والوطن كله ينزف دما من جراح الهزيمة . . وبدأ الظلام ينشر أعلامه السوداء على مصر المحروسة . . وكان على المصريين أن يعيشوا مرحلة الضياع ، كالأيتام على مأدبة اللئام . . لقد مضى ذلك العصر ، الذى جلجلت فيه صيحات النديم ، والأفغانى ومحمد عبده ، وصرخة عرابى فى وقفة عابدين . . وانطوت تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب ، وبدأت مرحلة الانحطاط والهبوط إلى أسفل السافلين . . باتت قصر الدوبارة ـ مقر المعتمد البريطانى ـ قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم بين حطام المعركة . . وأصبحت مصر نهبا لكل خوان أثيم . . ولم يقتصر الفساد على علية القوم . . وإنما كان الفساد طوفانا تسرب إلى كل الشقوق . . وشمل كل الطوائف والطبقات . . فانحطت الأخلاق وشاع الجبن والذل والرياء . . وسادت شعارات النفعية والوصولية والانتهازية . . وانعدمت روح الانتماء إلى الوطن ، وحلت محلها نزعة اللامبالاة وعدم الاكتراث والبحث عن المنافع الشخصية على أشلاء الوطن المحتل . . وأصبح الولاء للاحتلال والتنكر للوطن جواز المرور إلى المناصب العليا . . والوجاهة الاجتماعية .

وبدأ الإنجليز فى تنفيذ برنامج طويل المدى ، لتصبح مصر بمقتضاه مستعمرة

بريطانية ، تحكم من لندن حكما مباشرا عن طريق « نصائح » يقدمها المعتمد البريطانى إلى الخديو . . فلا يملك حيالها إلا الإذعان . . وكان لابد من وزارة تدير شئون البلاد ، فى هذا الظرف العصيب . . ولم يكن هناك غير شريف باشا ، ليقوم بهذه المهمة الصعبة وسط الظلام الكئيب . . وقبل الرجل التكليف . وكان عليه أن يتحمل المسئولية فى وقت انعدمت فيه المسئولية الوطنية . . وكان عليه أن يعيد ترتيب البيت الذى تفكك وانهار تحت وطأة الاحتلال . . وكان عليه أن يحافظ على آخر ومضات الروح الوطنية ، قبل أن تذبل إلى الأبد . . ومكث الرجل يمارس هذه المهمة الشاقة سنتين ، حتى إذا كشف الإنجليز عن أنيابهم ، لفصل السودان عن مصر ـ لم يستطع شريف الصبر ، وأبى أن يكون أداة فى يد الاحتلال لسلخ السودان عن مصر . وهو القائل « إذا تركنا السودان ، فإن السودان لن يتركنا » . . وهو الذى ضمن الدستور نصا يتيح لأبناء السودان انتخاب ممثليهم فى مجلس النواب المصرى إيمانا منه بوحدة المصير بين شمال الوادى وجنوبه . . عندئذ قدم شريف استقالته الثالثة والأخيرة . . وبعدها اعتزل الحياة العامة حتى وافاه الأجل بعد ثلاثة أعوام قضاها فى صمت .

هل تستحق هذه الاستقالة ، أن تدرج ضمن الأعمال الوطنية العظيمة ؟ لقد رفع الأستاذ الرافعى من شأن هذه الاستقالة ، واعتبرها من الأمجاد التى تذكر لشريف باشا . . ورأى فيها دليل الحياة واليقظة الوحيد ، فى وقت تلاشت فيه كل دلائل المقاومة الأهلية . . وعاب على حكام مصر وكبرائها أنهم لم يحذوا حذو شريف ، ولم يستقيلوا من مناصبهم ، احتجاجا على التدخل الأجنبى فى شئون مصر . . فكان من نتيجة سكوتهم وإذعانهم أن تعاقبت على البلاد وزارات الولاء للاحتلال والخضوع لأوامره ونواهيه .

* * *

هل كان شريف مخطئا حين قبل الوزارة تحت مظلة الاحتلال ؟! لم يتعرض الرافعى لمناقشة هذه القضية الهامة ، لأن الرافعى كان ـ بحكم موقفه العدائى من العرابيين ـ مناصرا لشريف ومبررا لكل تصرفاته ، حتى خلع عليه كل وصف حميد ونزع عنه أية نقيصة . . ولعل هذا الصمت المتعمد من جانب الرافعى ، جرنا إلى

سؤال آخر : هل خان شريف باشا الثورة العرابية ؟! فالثابت أن « شريف » لجأ إلى معسكر الخديو ، حين وقعت الواقعة ، وتلاحمت سيوف الثورة العرابية مع قوات الغزو الإنجليزى . . وكان فى معيته فى رحلة القطار من الإسكندرية إلى القاهرة بعد فشل الثورة . . وكان فى رفقته أثناء ذهابه إلى قصر عابدين . . ويقول الرافعى : إن شريف باشا لم يتمالك نفسه ، وهو يرى جنود الاحتلال ينتهكون شرف بلاده . . فأجهش بالبكاء . . ومع ذلك ، وأيا كان نصيب هذه القصة من الحقيقة . . فإنها لا تعفينا من مناقشة هذا السؤال : هل خان شريف الثورة ؟ إنها قصة تحتاج إلى وقفة للتأمل .

الكبــرياء الوطنيــة

فى حياة شريف باشا ثلاث استقالات شهيرة . . من المفيد أن نلم بها . . لأنها تكشف النقاب عن معدن الرجل ومنهجه فى الحكم . . واكتشافه اللحظة الفاصلة التى يتحتم فيها على رجل الدولة أن يتنحى ، إذا حدثت إهانة لشخصه أو مساس بكرامته الوطنية .

وظروف الاستقالة الأولى تلقى الضوء على جانب من شخصية شريف . . هو تمسكه بالكبرياء الوطنية فى مواجهة التدخل الأجنبى . . كان شريف باشا وزيرًا للخارجية والحقانية (العدل) ، فى أواخر عصر إسماعيل ، حين بدأ النفوذ الأوربى يسيطر على مقدرات البلاد ، بعد أن أوشكت خزانتها على الإفلاس . . وكان من آثار ذلك أن وافق الخديو على تشكيل لجنة « التحقيق العليا الأوربية » ، من جبابرة الاستعمار البريطانى ، وبعض أذيالهم من الفرنسيين ، ومعهم ـ للأسف الشديد مصرى هو رياض باشا . . وكان من سلطة اللجنة استدعاء كبار رجال الدولة بمن فيهم الوزراء ، لمساءلتهم والتحقيق معهم . . فلما جاء الدور على شريف باشا ، رأى أن من العار على وزير مثله ، أن يقف كالمشبوه أمام تلك الحثالة المتربصة باستقلال بلاده وتمريغ سيادتها فى التراب . . فرفض المثول أمام اللجنة التى رأت فى عناده تحقيرًا من شأنها . . فأصرت على إحضاره . . وازداد الرجل تشبثا بموقفه . . وتوسط الخديو ، وطلب من شريف أن يجيب عن أسئلة اللجنة كتابة . . ولكن اللجنة أصرت على مثولة ـ شخصيا ـ إمعانًا فى إذلاله . . وحتى لا يكون قدوة لغيره من الوطنيين الأحرار . . عندئذ وجد شريف باشا أن العزة الوطنية ، تحتم عليه أن يستقيل ولا يحنى رأسه . . فاستقال .

وتبدو أهمية هذا التصرف ، الذى يتسم بالإباء والشمم ، ويرسخ قيمة الأنفة الوطنية ، إذا قورن بمسلك غيره من أعمدة الحكم الإسماعيلى الذين فرطوا فى كرامتهم أمام الأجانب ؛ وكانوا لا يرون بأسا من التدخل الأوربى فى شئون مصر ، بحجة أن هذا التدخل سيقلم أظافر الخديو ويخفف من غلواء حكمه المطلق .

* * *

أما الاستقالة الثانية . . فقدمها شريف باشا ، وهو رئيس الوزارة الوطنية ، التى شكلت فى أعقاب تظاهرة عرابى فى ميدان عابدين (سبتمبر ١٨٨١) ، وكان من مطالبها إسناد الوزارة إلى شريف باشا . . وكان شريف فى ذلك الوقت يتزعم جناح المثقفين فى الحركة العرابية التى تبلورت فى حزب سياسى يحمل اسم (الحزب الوطنى) ، ويضم فى صفوفه كل الأحرار على اختلاف نزعاتهم السياسية والفكرية .

قد يكون من الغريب ، انضواء رجل مثل شريف يعتنق الفكر الليبرالى بين صفوف العرابيين الثوار . . ولكن من السهل تفهم ذلك ، إذا تذكرنا أن الحركة العرابية فى ذلك الوقت المبكر ، كانت تسلك منهجا سلميا مع النظام الحاكم . . وتحاول تحقيق مطالبها بالتراضى مع الخديو . . بدليل أن عرابى وإخوانه أعلنوا ولاءهم للخديو بعد التظاهرة . . وكان الجناح الليبرالى فى الحركة ، يرى إمكانية الحصول على المطالب الشعبية دون حاجة إلى تدخل الجيش . . . ولم يكن هؤلاء الليبراليون على استعداد لتقبل فكرة تدخل الضباط فى شئون الحكم ، لأن ذلك سيؤدى ـ فى رأى الرافعى ـ إلى انتقال الاستبداد من يدى الخديو إلى أيدى العصبة العسكرية ، وتحول الجيش عن مهمته الأصلية ، ويشجع على انتشار الخلل والاضطراب فى البلاد .

إذن فلم يكن من المتوقع ، أن يستمر التعاون بين شريف باشا رئيس الوزراء . والجناح العسكرى فى المجلس ، ويمثله محمود سامى البارودى ، وزير الجهادية . . بل كان لا مفر من الشقاق بين الفصيلين مع تداعى الأحداث . وردود فعل كل منهما . . ووقع الخلاف حين قدم شريف باشا نص الدستور للخديو توفيق ، فثارت ثائرة بريطانيا وتابعتها فرنسا . لأن الدستور كان يعطى مجلس النواب حق إقرار الميزانية العامة للدولة ـ الدولة المصرية وليس الدولة البريطانية (!!) ـ ورأى عتاة

الاستعمار فى هذا النص مساسا بالنفوذ الأوربى ، فأقنعوا الخديو توفيق بالامتناع عن إعلان الدستور . . وأراد شريف أن يتلافى الصدام بين الخديو ومجلس النواب لعلمه أن الخديو سوف ينحاز إلى الإنجليز ويخضع لأوامرهم . . فاقترح تأجيل البت فى البند الخاص بالميزانية . . ولكن العرابيين رفضوا الاستجابة لرأى رئيس الوزراء الذى رفض أن يكون أداة فى يد الجيش وزعمائه . . فاستقال من رئاسة الوزارة وخلفه محمود سامى البارودى . . وفى عهده مضت الثورة العرابية إلى منتهاها .

الوطنية والخيانة

ما هو الخط الفاصل بين الوطنية والخيانة . . ؟ وما هى المساحة المشروعة التى يسمح لرجل السياسة بأن يتحرك فيها . . ؟ فإذا تجاوزها انتقل إلى معسكر الخيانة . . وحقت عليه اللعنة ؟؟ وأين هو الميزان الذى نحتكم إليه قبل توجيه الاتهام بالخيانة إلى الخصوم ؟؟

إن موقف شريف باشا من أحداث الثورة العرابية ، يفتح الباب لمناقشة هذه القضية الجوهرية . . والذى حدث أن الرجل كان يمثل الأرستقراطية الزراعية فى جبهة الثورة ، التى ضمت أشتاتا من العناصر الوطنية الطامحة إلى نمط جديد فى الحكم ، يقوم على أنقاض نظام الحكم المطلق الموروث عن محمد على . . وكان الجناح الليبرالى فى حزب الثورة ، بزعامة شريف ، يرى إمكانية تحقيق هذا الهدف عن طريق الدستور وقيام حياة نيابية ، ودون سيطرة الجيش على الحكم . . وكان تصرف شريف وشيعته فى هذه المسألة ، نابعا من اقتناعهم المبدئى بأن انتقال السلطة إلى العسكريين ، سيؤدى إلى قيام ديكتاتورية عسكرية على أنقاض ديكتاتورية الخديو . . وكأن البلاد سوف تنتقل من استبداد مدنى إلى استبداد عسكرى ، لا تحمد عواقبه . . فلما احتدمت الأمور بين العرابيين والخديو ، انسحب شريف من جبهة الثورة ، وظل يراقب الأحداث حتى تطورت على النحو المعروف : فشل الثورة ووقوع الاحتلال . . « عندئذ انتقل شريف إلى معسكر الأعداء الذين خانوا الثورة » . . فإلى أى مدى يمكن تقبل هذا الحكم الذى انتهى إليه الأستاذ صلاح عيسى عبر رحلة من البحث الشاق تضمنها كتابه المهم عن الثورة العرابية ؟

منذ البداية ، يرى صلاح عيسى ، أن شريف باشا تعاون مع الثورة وهو يضمر

احتواءها تمهيدًا لإجهاضها . . ودليله على ذلك أنه رفض ترشيح الثوار له لتشكيل الوزارة أثناء تظاهرة عابدين ، ولم يقبل إلا بعد شروط اشترطها أهمها : إبعاد قادة الجناح العسكرى ، وحمل أعضاء مجلس النواب على الاعتدال فى مطالبهم ، وانتهاج سياسة الحزم مع الجيش والأعيان على السواء . . ويرى الباحث أن هذه الشروط تتلاقى مع مطالب الاستعمار ، لتهدئة الأحوال فى مصر والانتقال بها من مرحلة الهدنة إلى مرحلة الاستقرار . . هذا هو دليل الاحتواء . . أما عملية إجهاض الثورة فقد تمت ـ فى رأى الباحث ـ عن طريق مخطط دبره شريف باشا ، يتمثل فى أنه « كان يعتزم أن يجمع حوله أعضاء مجلس النواب ليصبحوا بالتدريج أصحاب السلطة التنفيذية المشروعة لتصريف الشئون الداخلية ، ويجردوا الجيش ـ بهذه الطريقة ـ من الصفة التى ادعاها لنفسه فى الحركة الأخيرة (يقصد مظاهرة عابدين) بغير حق . بحيث يصبح النواب هيئة ممثلة للأمة يستطيع الخديو والحكومة الاعتماد على تأييدها ضد سلطة الجيش . . » .

وأنت حين تقرأ فحوى هذا الاتهام ، لا تملك إلا أن تتساءل : « هل إسناد السلطة إلى مجلس النواب المنتخب جريمة فى حق الثوار الذين كانوا يطالبون بقيام برلمان منتخب على النسق الأوربى ؟ وهل نعتبر قيام النواب بتصريف الشئون الداخلية خطوة نحو عملية إجهاض الثورة ؟ أم أنه لا يجوز قيام « ثورة » إلا على أكتاف العسكريين ؟ وإذا أمكن تحقيق المطالب الوطنية عن طريق مجلس النواب ودون تدخل المؤسسة العسكرية . . ألا يتم التغيير وتتحقق الثورة » ؟؟

وفى رأى صلاح عيسى ، أن إصرار شريف باشا على إقصاء العناصر المتطرفة عن جبهة الثورة ، كان يهدف إلى أمرين ، الأول : منع إنجلترا من استغلال سيطرة المتطرفين كحجة للاحتلال . . الثانى : القضاء على تخوف شريف باشا من أن تؤدى سيطرة المتطرفين إلى تحقيق المكاسب للطبقات التى تمثلها هذه العناصر على حساب الطبقة الأرستقراطية التى يمثلها شريف . . وللرد على هذا التخريج نقول : إن الحيلولة دون وقوع الاحتلال البريطانى هدف مقدس . . يهون من أجله أى تصرف حتى لو كان إبعاد العسكريين عن الحكم . . فقد كان الاحتلال البريطانى نكبة عصفت بالأخضر واليابس ، وامتصت رحيق مصر لمدة سبعين عاما أو تزيد . . أما

عن مسألة المكاسب الطبقية . فقد أثبتت الدراسات ، التى أجريت حول الأصول الاجتماعية للعسكريين العرابيين ، أن معظمهم ينتمون إلى الشريحة الوسطى من ملاك الأراضى ، وكان يجمعهم بالأرستقراطية الزراعية حلف هدفه المشاركة فى الحكم ونقل ملكية أكبر مساحة من الأرض الزراعية من أيدى الأجانب إلى أيدى المصريين . . فلم يكن ثمة خطر على الشريحة الوسطى من الشريحة الأعلى . . وإنما كان الخطر من جانب الملاك الأجانب الذين اتسعت ملكياتهم فى عصر إسماعيل وبعد . . ألا ترى أن مسألة الاتهام بالخيانة ليست بالبساطة التى نمارسها أحيانا ؟! . .

مسرحية متقنة الصنع

بعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير (١٣ سبتمبر ١٨٨٢) ، أيقن أحمد عرابى أنه لا أمل فى الصمود . . فهرع إلى القاهرة ، وسلم نفسه إلى سلطات الاحتلال البريطانى التى أصبحت ـ منذ هذا اليوم المشئوم ـ صاحبة الكلمة الأولى فى إدارة شئون مصر . . وأضحى الخديو توفيق مثل خيال المآتة . . لا تتعدى سلطاته حدود قصره . . وبدأت إجراءات التحقيق مع عرابى وزملائه الستة تمهيدًا لمحاكمتهم . . ورأى الإنجليز أن تقتصر قائمة الاتهام على تهمة واحدة فقط هى : عصيان الخديو وأن يصدر الحكم على عرابى وزملائه بالإعدام متضمنا التخفيف إلى النفى المؤبد خارج مصر . .

وكان توفيق الخائن ، لا يرى بديلا عن إعدام عرابى « ولو كانت توجد عقوبة أشد فتكا وتنكيلا من الإعدام ، لما تورع عن استعمالها . . ولو ترك توفيق وهواه لاستخدم مع عرابى أبشع فنون التعذيب ، التى تعودها حكام الشرق وسودوا بها صحائف التاريخ . . ولكن الإنجليز . . وقد استقرت لهم الأمور . . وقفوا فى وجه توفيق . . وحالوا بينه وبين رقبة عرابى . .

وبدا الأمر فى غاية الغرابة . . !!

** حاكم البلاد الشرعى ، يطالب برقبة الزعيم الوطنى الذى وقف فى وجه الغزو الإنجليزى ، ثم انكسر بفعل الخيانة والعجز والتردد . .

** وسلطات الاحتلال ترى الإبقاء على حياته !!

وكان هذا الموقف المحير ـ ولا يزال ـ مثار دهشة الباحثين ونقاد التاريخ . . وقد

حاول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن يلقى ظلالا من الشك حول قيام علاقة مشبوهة بين عرابى والإنجليز ، مستعيناً فى ذلك بمزاعم الساسة الفرنسيين . . وقد بلغ بهم الشطط أن ادعوا وجود اتفاق مسبق بين عرابى والإنجليز على احتلال مصر ! !

ومع أن الرافعى وصف أقوال المسئولين الفرنسيين بأنها (إسراف فى الاتهام) ، إلا أنه لم يكلف نفسه مسئولية مناقشة هذا الاتهام الفظيع ودحضه . وكشف ما ينطوى عليه من تهافت وسطحية . . وأى ناقد للتاريخ يعرف دوافع المزاعم الفرنسية : فقد خرجت فرنسا من سباق احتلال مصرخاسرة ، واستطاعت إنجلترا أن تنفرد بمصر وتفترسها ، بعد أن خدعت الذئاب الأوربية الأخرى وأبعدتها خارج الحلبة . . فلم تجد هذه الذئاب من وسيلة للتعبير عن حنقها وخيبتها سوى التشنيع والتشكيك فى وطنية عرابى وإتهامه بالتواطؤ مع أعدائه . . وظل هذا الاتهام معلقا برقبة العرابيين سنين طويلة . . والمؤسف أن تأثرت به بعض العناصر الوطنية ، مثل مصطفى كامل والشاعر أحمد شوقى ، وبدا هذا التأثر واضحا فى كتابات الرافعى التى تزخر بالتحامل والتجنى على الحركة العرابية .

* * *

ولكن السؤال الأهم الذى لايزال قائما هو : لماذا أظهر الإنجليز هذا القدر الكبير من التسامح مع عرابى ؟ ولماذا أصروا على الإبقاء عليه حيا ، وهم الذين جردوا الأساطيل للقضاء عليه ؟

لقد ظهر عطف الإنجليز على عرابى منذ وقع فى أيديهم ، وهددوا الخديو إذا أصابه مكروه ، وأمروا بأن يعامل معاملة إنسانية فى سجنه ، ولا يتعرض لأى تعذيب . . بينما كان الخديو الخائن يبعث تابعه إبراهيم أغا فى منتصف الليل ، ليفتح الزنزانة على البطل الأسير ، ويوقظه من نومه ثم يبصق فى وجهه وينهال عليه بأقذع الشتائم . . وعين الإنجليز مندوبا خاصا (تشارلس ويلسون) لحضور مراحل التحقيق مع عرابى ، وتدخلوا فى توجيه التحقيق ، بحيث يقتصر على تهمة العصيان وتبرئته من تهمة تدبير مذبحة الإسكندرية ، التى وقعت قبل شهر من ضرب الإسكندرية .

وفى نفس الوقت ، كانت هناك اتصالات تجرى وراء الكواليس عبر القاهرة ولندن

هدفها إنقاذ عرابى من حبل المشنقة . . وكان محور هذه المساعى الكاتب الحر والسياسى الإنجليزى الشهير مستر (بلنت) صديق العرابيين الحميم ، وكاتم أسرارهم منذ فجر الحركة الوطنية . . وقاد بلنت حملة إعلامية من أحرار الإنجليز لتحريك الرأى العام الإنجليزى ، ليرغم حكومته على إنقاذ البطل القومى المصرى الذى ثار على الظلم والطغيان والسخرة وحكم الفرد ، وتطلع مع شعبه إلى حياة جديدة تناسب روح العصر ، ويتحقق فيها قدر معقول من العدل والمساواة والمشاركة فى إدارة البلاد . .

وبينما كان عرابى عاجزاً عن توكيل محام مصرى ، يتولى الدفاع عنه أمام المحكمة المصرية (!!) كان بلنت قد نجح فى تكليف محام إنجليزى للدفاع عن عرابى وإخوانه . . وجاء الرجل إلى القاهرة وقام بمهمته الجليلة . . وتم الاتفاق مع سلطات الاحتلال على صيغة الاتهام ومنطوق الحكم . . حتى إذا وقف عرابى أمام قضاته ، كان كل شىء قد تم إعداده مسبقاً . . وبدت المحاكمة مثل مسرحية متقنة الصنع .

مذنب .. أم غير مذنب ؟

لم تستغرق محاكمة زعيم الثورة العرابية أكثر من خمس دقائق ، كانت كافية لأن يؤدى كل طرف من أطراف المسرحية دوره المرسوم بإتقان . . وشهدت قاعة مجلس النواب القديم (قاعة مجلس الشورى حاليا) ستار الختام ، وهو ينسدل على تلك الملحمة الأسطورية الباسلة التى خاضها الشعب المصرى ضد الاستبداد والظلم والتدخل الأجنبى . . ولكن . . هاهو ذا الحلم الذى راود قلوب المصريين فى الحرية والعدل . . يخبو ويذبل . . وهاهو ذا البطل القومى المهزوم يقف أسيرًا بين براثن أعدائه ليؤدى الدور الذى كتبوه له . . ولم يكن مطلوبا منه أن يتكلم أو يدافع عن نفسه . . حتى إذا سألته المحكمة عما إذا كان مذنبا أم غير مذنب ـ أشار إلى محاميه الإنجليزى ، مستر برودلى ، فيقف ليتلو بالفرنسية اعترافا من زعيم الثورة بأنه مذنب . . ثم يقدم إلى هيئة المحكمة نص الوثيقة التى وقعها عرابى فى صبيحة ذلك اليوم ، ونصها : « بمحض إرادتى الحرة ، وبناء على مشورة محامِىَّ . أقر بأننى مذنب فى التهمة التى تليت على الآن » .

والمقصود تهمة التمرد على الجناب الخديو .

وتنفض المحكمة لمداولة صورية تستغرق ست ساعات . . أغلب الظن أن أعضاء المحكمة التسعة قضوها فى تدخين الشيشة . . فلم يكن هناك شىء يستحق المداولة . . لأن رئيس المحكمة ـ الفريق رءوف باشا ـ كان يحمل فى جيبه نص الحكم، الذى كان محكوما عليه بأن ينطق به أمام جمهور معظمه من الصحفيين الأجانب الذين كانوا يعرفون التطور الدرامى للمحاكمة . . !

هل كان عرابى مخطئا ، حين قبل الاشتراك فى هذه المسرحية التى انتهت بتخليص

رقبته من حبل المشنقة ، ومعه رقاب ستة من أكبر أعوانه وإبعادهم جميعا خارج البلاد . . ؟؟

من السهل على قارئ التاريخ المعاصر ، أن يصدر حكما تعسفيا على هؤلاء الرجال ، مدفوعا بعاطفة الحماسة . . ولكن من الصعب على الباحث المنصف أن يصدر مثل هذا الحكم ، قبل أن يلم إلماما كافيا بالظروف والملابسات ، التى أحاطت بالحدث ، وبشرط أن يتجرد من مشاعر الحب والبغض . . وبذلك يكون حكمه أقرب إلى الانصاف والعدل . .

أما خصوم الثورة العرابية ، فيأخذون على زعيمها قبوله توكيل محام إنجليزى للدفاع عنه ، أمام محكمة مصرية . . ويتخذون من ذلك ذريعة لاتهام عرابى بالتواطؤ مع الإنجليز . .

والواقع أن عرابى لم يقصر فى توكيل محام مصرى عنه . . ولكن الذى حدث أن هذا المحامى المصرى ، تنصل من القيام بواجبه خوفا من بطش الخديو . . بينما كان مستر بلنت - صديق العرابيين - قد نجح مع أصدقائه الأحرار الإنجليز ، فى الاتفاق مع مستر برودلى وزميله نيبير للدفاع عن عرابى وإخوانه . . وعندما جاء المحاميان الإنجليزيان إلى مصر ، وجدا سلطات الاحتلال قد شددت قبضتها على شئون مصر. وآل إليها زمام الأمر كله ، فكان لابد من «تسوية» ترضى جميع الأطراف .

* * *

كان لورد دوفرين - سفير إنجلترا فى الآستانة وأحد أساطين الاستعمار البريطانى قد جاء إلى القاهرة عقب الاحتلال ليرسم مستقبل مصر فى ظل الاحتلال ، ويضع البرنامج الاستعمارى طويل الأجل الذى سيقوم بتنفيذه تلميذه النجيب لورد كرومر. وكان من رأى دوفرين ، الفراغ بسرعة من قضية العرابيين ، وإغلاق هذا الملف الثورى إلى الأبد ، حتى تتفرغ إنجلترا لمهمتها الاستيطانية فى مصر . . ولذلك وضع دوفرين الخطوط الرئيسة لمسرحية محاكمة العرابيين ، وأشرف بنفسه على إخراجها وتوزيع الأدوار على كل طرف من أطرافها . . فلما كشف أفندينا توفيق الخائن عن نياته الانتقامية من عرابى وإخوانه ، تصدى له دوفرين ، وأظهر له

يدا حديدية ملفوفة فى قفاز من المخمل . . فتراجع أفندينا ، ورضى بالأمر الواقع . .

كان دوفرين يعارض إعدام عرابى . . ليس لأنه لا يستحق الموت . . ولكن لأن الرأى العام الإنجليزى ، ومن خلفه أحرار أوربا وأمريكا ، كانوا يعتبرون الثورة العرابية حركة شعبية وطنية ، وأن عرابى وزمرته أبطال يستحقون التمجيد . . ولم تكن حكومة جلادستون فى لندن على استعداد لتجاهل هذا التيار المستنير المؤثر .

هذه واحدة . . أما الثانية ، فترجع إلى نيات الاحتلال فى مصر وعزمه على البقاء فيها لأطول فترة ممكنة بدون إزعاج ، وبدون هبات شعبية تهدد وجود الاحتلال الأمر الذى يتطلب الإبقاء على حياة عرابى ، حتى لا يصبح مصدر إلهام لثورات متجددة . . وكان لابد من إغلاق ملف البطولات الشعبية ، حتى تموت بذور الثورة بموت أبطالها فى جزيرة نائية غارقة فى مياه المحيط الهندى .

وأثمرت خطة الاستعمارى العريق دوفرين ، وعاشت مصر أقسى فترات حياتها فسادًا وانحلالا . . وغلب اليأس على النفوس حتى فقد الناس الأمل فى صبح جديد . . ولكن مصر الولود المعطاء ، لم تلبث أن أفاقت من غشيتها ، ونهضت تفك قيودها وتسترد روحها . . وظهر مصطفى كامل صوتا جهيرا عم صداه أنحاء البلاد فأيقظ النيام بعد طول رقاد . . وتفجرت ثورة ١٩١٩ لتمحو عار الهزيمة بعد ٣٧ سنة من وقوعها ، وتثبت أن فى السويداء رجالا يأبون الضيم والخنوع والاستعباد . .

أمراء .. لكن شرفاء

فى تاريخ الثورة العرابية صفحة مجهولة ، تتعلق بموقف أمراء الأسرة العلوية من هذه الثورة . . خاصة عندما تطورت الأحداث إلى ذروة الصدام المباشر بين عرابى باشا من جهة ، وتوفيق خديو مصر وعميد الأسرة العلوية من جهة أخرى . . وكان على أفراد الأسرة أن يحددوا موقفهم من المعسكرين . . وهو الاختيار الصعب .

ومن الحقائق المعروفة أن توفيقا هذا . . لم يكن يتمتع باحترام أوتأييد أقاربه لأسباب كثيرة ، بعضها يرجع إلى تكوينه الخلقى الذى كان من أبرز مميزاته الجهل والغباء والتردد والغدر ، وبعضها الآخر يتعلق بالصراعات داخل الأسرة نفسها . . وهى صراعات ، كان يقودها أمراء أقوياء يرون أنفسهم أحق بالحكم من توفيق لولا اللعبة التى دبرها والده إسماعيل لتغيير نظام وراثة العرش ، وبمقتضاها أصبح الحكم من نصيب أكبر أبناء الوالى بعد أن كان من حق أكبر أفراد الأسرة . . وكانت تلك غلطة إسماعيل القاتلة . . ولعله هو نفسه كان أول ضحاياها . . فلم يكن ابنه توفيق ـ وهو ولى للعهد ـ ببعيد عن مؤامرة عزل أبيه . . وكان أقوى المناوئين الأمير عبد الحليم أصغر أولاد محمد على الذى نحاه إسماعيل ونفاه إلى الآستانة . . ومن هناك كان يحيك الدسائس لاستعادة عرشه السليب . . وكان هناك أيضا الأمير مصطفى فاضل ، شقيق إسماعيل ، الذى أبعد عن العرش ليحل محله توفيق الغبى الجهول .

ولكن هذه الصراعات العائلية ، تضاءلت أمام الحدث الأكبر ، حين تعرضت مصر للغزو الإنجليزى ، وانهالت قنابل الأسطول على الإسكندرية فى يوليو ١٨٨٢ وكشف توفيق عن وجهه القبيح بانحيازه العلنى إلى جيش الاحتلال . . وبينما كان

الجيش المصرى يصنع المستحيل لصد الهجوم ، اجتمع قادة الأمة من كل الفئات والطبقات والأديان ، وأصدروا قرارًا تاريخيا بالوقوف خلف الجيش المصرى ، بقيادة عرابى ، وعدم الاعتراف بالأوامر التى يصدرها توفيق الخائن من مكمنه فى الإسكندرية . « حيث إن الخديو خرج على الشرع الحنيف والقانون المنيف » . . وكان فى طليعة الموقعين على هذه الوثيقة التاريخية ثلاثة من أمراء الأسرة العلوية .

وفى أثناء معركة كفر الدوار ، ظهرت حاجة الجيش المصرى إلى المال والعتاد والمؤن ، بعد أن استولى السير « كالفن » المراقب المالى الإنجليزى على أموال الخزانة المصرية ، وحملها فى الأسطول الإنجليزى المرابط فى الإسكندرية . . وهنا ظهرت معادن المصريين الأصيلة ، فجادوا بما لديهم من نفس ومال وغلال وعتاد وخيول ودواب . . ولم تتخلف أميرات الأسرة العلوية عن المساهمة فى هذا الواجب المقدس . . وفى طليعتهن الأميرة خوشيار أم الخديو إسماعيل ، التى تبرعت بجميع خيول عرباتها . . واقتدى بها بقية أفراد العائلة ، على النحو الذى يرويه عرابى فى مذكراته . .

على أن الجانب المثير فى موقف أميرات الأسرة العلوية ، إنما يتجلى رائعا بعد فشل الثورة وانفضاض الذباب من حولها . . ففى هذا الوقت العصيب ، الذى تنكر فيه الانتهازيون للثورة وتبرءوا منها . . ظلت الأميرات على مبدئهن المؤيد للثورة وقائدها . . ولم يمنعهن الخوف من بطش الخديو ، من الوقوف إلى جانب عرابى فى محنته . . وبقين معه حتى اللحظة التى غادر فيها مصر إلى منفاه السحيق . . وبينما كان عرابى يستقل القطار من قصرالنيل إلى السويس ، انهالت عليه هداياهن الثمينة اعترافا بمجده وبطولته . . فبعثت إليه واحدة بمعطف ثمين ، وأرسلت أخرى مصحفا كبيرًا ، وثالثة سجادة صلاة . . إلخ .

ويكشف مستر برودلى ـ محامى عرابى الإنجليزى ـ عن هذه الصفحة المضيئة فيقول : إن عرابى وجد فى سيدات مصر أكبر عون فى ثورته . . فقد ساعدنه منذ اللحظات الأولى مساعدات لها قيمتها . وظللن يقدمن هذه المساعدة ، حتى بعد أن فقد آخر أمل فى النصر . . بل إن أميرات الأسرة الخديوية ـ باستثناء أم الخديو وزوجته ـ كن يعطفن عطفا كبيرًا على عرابى باشا ، وألفن عدة جمعيات مهمتها

مساعدة ومواساة الجرحى فى موقعة كفر الدوار ، والاستعداد لمواجهة مصاعب القتال القادمة إلى حد الاشتراك فى الصفوف ذاتها . . وتلقى برودلى من أرملة الوالى سعيد باشا خطابا تشكره فيه على دفاعه عن عرابى .

ويعلق برودلى على ذلك بقوله : ولاشك أن هذا خير رد على أولئك الذين يزعمون أن حركة عـرابى لم تكن إلا حـركة فردية ، فهى فى الحقيقـة حركة شعبية أسهم فيها المصريون جميعا .

وكشف برودلى ، فى مذكراته التى ترجمها محمود كامل المحامى ، عن لقاء مثير تم بينه وبين إحـدى الأميرات ، لم يفصح عن اسمها خوفا عليها من انتقام الخديو قالت الأميرة : كانت كل واحدة منا ـ نحن الأميرات ـ تعطف على عرابى منذ البداية ، لأننا نعرف أنه كان يرغب أصلا فى تحقيق أمانى المصريين جميعهم ، وكنا جميعا ننظر إلى عرابى نظرة الرجل المدافع عن البلاد إزاء الإنجليز الذين التجأ إليهم الخديو ، فعقدت مجالس كثيرة من رجالات مصر فى القاهرة . اشترك فى بعضها الأمير إبراهيم والأمير كامل والأمير أحمد ، وقررت هذه المجالس مساعدة عرابى حتى يسير بالحرب إلى النهاية . . لقد رأينا فيه القائد . وكانت لدينا كل الثقة به ، فكتبنا له الرسائل والبرقيات مشجعات مهنئات . . بل إن إحدى الأميرات كتبت له خطابا غريبا تطلب منه الزواج بها لأنه منقذ مصر ، فلما علمنا بهزيمته استولى الحزن علينا جميعا . . وقد عوقبت الأميرة التى طلبت الزواج بعرابى شر عقاب ، بالرغم من أن والدتها اعترفت بأنها هى التى كتبت الخطاب ، ووقعته باسم ابنتها . . ولكن الأميرة خوشيار عرفت كيف تؤدب الشخص الذى وشى بسر الخطاب إلى الخديو . فضربته بمقعد على رأسه . . وأخيراً صدرت إلينا الأوامر بالذهاب إلى القصر . وكنا نبكى من الخوف والذعر . وبعد أن وبختنا والدة الخديو قالت لنا إن الإنجليز سوف يسلمون عرابى إلى الخديو ليقتله شر قتلة ، وأمسكت بكشف طويل فيه كثير من أسمائنا مع العقوبات الموقعة علينا . . وعندما علمنا بأن حياة عرابى مهددة ، ساد الوجوم والحزن فى دوائر القصر كأن أحدا من الأسرة نفسها قد مات . . !

واختتمت الأميرة حديثها إلى المحامى الإنجليزى قائلة : « بعد كل ما حدث . . لا يمكن أن يستتب أمن فى البلاد . . لا لنا . . ولا لكم . . ولا لمصر . . » .

عصر الشهداء

كانت الكنيسة المصرية منذ نشأتها حصنا للوطنية ، ورمزًا للصلابة والصمود فى وجه السيطرة الأجنبية الدخيلة ، ومقاومة العقائد الوثنية الفاسدة . . وعلى امتداد عهود القهر الرومانى ، التى استطالت سبعة قرون إلا ربع قرن ، كان المصريون يلوذون بكنيستهم كلما أوجعتهم ضربات الرومان ، فيجدون فى رحابها طمأنينة الإيمان واستقلال الرأى والضمير ، ورفض الذل والمهانة ، والتمرد على جبروت الحاكم مهما كانت فظاعة البطش والتنكيل .

فى كنيسة الإسكندرية ، امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية ، فأكسبها ذلك قوة روحية ومادية ، جعلت منها ندا مناوئا للإمبراطورية الرومانية ، فى وقت بلغت فيه هذه الدولة غاية القوة والاقتدار وآلت إلى ممتلكاتها دول ذوات مجد عريق ومنها مصر . . وتحول أبناء العز القديم إلى أتباع وعبيد للأرض ، يعملون ويكدحون من أجل مجد روما ، ورفاهية السادة الأشراف الذين جعلوا من الإمبراطور إلها يعبد وتقدم له القرابين . . ولفقوا من بقايا العقائد الوطنية الرجعية دينا فرض على شعوب الإمبراطورية أن يعتنقوه .

فى ذلك العصر الوثنى الكئيب ، كان المصريون ينكفئون على ذواتهم ، فيجدون نفحات الإيمان تسرى فى أوصالهم ، منذ عرفوا عقيدة التوحيد قبل قرون من ظهور نجم روما وبيزنطة . . فلما ظهرت النصرانية دينا إلهيا يدعو إلى عبادة الإله الواحد الصمد ، ونبذ عبادة البشر ، لاذ به المصريون واعتنقوه . . وأصبحت مصر مصدر قوة وإشعاع للدين الجديد . . منها تخرج قوافل التبشير ، وفى صحاريها الصامتة تقام صلوات وصوامع وبيع يذكر فيها اسم الله . . وظهرت الرهبانية احتجاجا عمليا

على السلطة الوثنية التى ترغمهم على ما يكرهون . . وهج الرهبان إلى فجاج الصحراء ، فرارا بدينهم من طغيان دولة لا يضمرون لها سوى البغض والاحتقار ، ولا تضمر لهم سوى المهانة والإذلال .

عندئذ أدرك الأباطرة أن المسيحية هى الأفعى التى تهدد مجد الإمبراطورية . . وأن رأس الأفعى هى مصر . . ولذا كان نصيبها من العنت والاضطهاد متناسبا مع دورها الطليعى فى زعزعة أركان الإمبراطورية ، سواء فى مجال العقيدة الدينية ، أو فى مجال السلطة الزمنية . . فانهالت مطارقهم على رأس الكنيسة ، لما كانت تحمله من روح العناد وبث نزعة التمرد فى نفوس المصريين . . فلما جاء عام ٢٨٤ ميلادية ، اعتلى عرش بيزنطة الإمبراطور دقلديانوس . فأقسم برأس آلهته الوثنية أن يؤدب المصريين أدبا يجعلهم عبرة لكل متمرد جسور . . وجاء بنفسه إلى مصر شاهرًا سيفا ظل يعمله فى رقاب المسيحيين ، حتى سالت دماؤهم أنهارًا . . وبر بالوعد والوعيد الذى قطعه على نفسه ، بأن تغوص سنابك خيله فى بحر من دمائهم . . ولقد تحمل المصريون هذه المجزرة الرهيبة بما فطروا عليه من صبر على المكاره ، وثبات فى الشدة ، حتى إذا انجلت المحنة كان حريا بالأقباط أن يجعلوا من سنة ارتقاء هذا الإمبراطور المفترس عرش بيزنطة بداية للتقويم القبطى ، وأن يجعلوا من دماء الشهداء التى أريقت بداية لحلقة جديدة من التاريخ المصرى المجيد ، وهى الحلقة المعروفة بعصر الشهداء .

ولقد ذهب دقلديانوس . . وجاء من بعده أباطرة اعترفوا بالنصرانية بعد أن رفعوا عنها الأغلال . . ثم جاء من بعدهم أباطرة اعتنقوا النصرانية ، وجعلوا منها دينا رسميا للإمبراطورية . . وقامت فى بيزنطة كنيسة خلعت على نفسها صفة القيادة والريادة لما سبقها من كنائس . . وكان المفترض أن يتوقف اضطهاد المصريين بعد هذا التحول الكبير فى ديانة الدولة المتسلطة ، ولكن الاضطهاد لم يتوقف من جانب الرومان ، ولم يتوقف السخط والعناد من جانب المصريين . . وكان سبب الصراع الجديد يرجع إلى الخلافات المذهبية التى نشأت بين الفرق المسيحية ، حول طبيعة السيد المسيح . . لقد تغير سبب الاضطهاد ، ولم يتغير نوع الاضطهاد الذى شقى به المصريون فى ظل دولة تزعم أنها تعتنق المسيحية . . كانت كنيسة بيزنطة الرسمية تستنكف أن يبقى لكنيسة الإسكندرية سلطانها الروحى والأدبى الذى صنعته عبر

أجيال وأجيال من صمودها وثباتها فى وجه الطغيان . . وكانت الكنيسة المصرية تتمسك باستقلالها الدينى والوطنى ، وتأبى أن تساوم على رأيها فى قضية تتعلق بالعقيدة لمجرد الإذعان والخضوع لسلطان الكنيسة الإمبراطورية .

وحين اكتشف الأباطرة أن هذا الخلاف المذهبى هو غطاء يخفى تحته ضغائن المصريين ، تجاه الدولة الحاكمة ، ضاعفوا من ضرباتهم لأتباع الكنيسة الوطنية وأبعدوهم عن الوظائف العامة ، حتى يضيروهم فى أرزاقهم ، ويرغموهم على النزول عن كبريائهم . . ولكن كل هذه الضغوط لم تفلح فى زحزحة المصريين عن عنادهم أو تغيير موقفهم الرافض للسيادة الرومانية على مقدراتهم الدينية والوطنية . وفى ذلك يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد .

« إن اللازمة التى لا فكاك منها ، تبرز على الأثر ، كلما اجتمعت الأسباب اللاهوتية والأسباب القومية فى جانب ، وهذه القوة المتجمعة من غيرة الدين وحماسة القومية هى التى اعتصم بها المصريون زمنا فى وجه الدولة الرومانية قبل إيمانها بالمسيحية ، وبعد إيمانها بالمسيحية . لقد اضطهد المصريون من قبل من جانب الأباطرة والقياصرة الوثنيين والمتدينين ، ولم يكن هذا الاضطهاد خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، فلما وجدت للمصريين كنيسة قائمة . . كانت هى الدين والدولة فى وقت واحد ، أو كانت هى الزعامة التى تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانها ومشيئتها فى وجه القوة المفاجئة » . .

حتى إذا أوشكت شمس الإمبراطورية على الغروب ، كان الخلاص منها قد أصبح حلما يساور زعماء الكنيسة الوطنية ، وساد الناس شعور واحد ، وهو شعورهم بالغضب الإلهى على هذه الدولة الظالمة وانتظار الجزاء العادل من الله . . فلما تقدم المسلمون لحرب الروم ، شاع فى المشرق كله أن هزيمتها حق ، وأن غلبة المسلمين عليها عدل ، وأن القضاء الإلهى ينفذ فى مستحقيه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية .

خير أجناد الأرض

كان المصريون على موعد مع الفتح الإسلامى ، بحكم الجوار للأرض المقدسة وقد ترامت إلى أسماعهم أنباء الهزائم المتواترة التى منيت بها الجيوش الرومانية فى الشام وفلسطين . . وبلغتهم مأساة هرقل ، وقد أرغم على الجلاء عن القدس ، فوقف على أسوارها يلقى عليها نظرة الوداع الأخير ، وفى عينيه دموع الذل والانكسار . . وتناقل المصريون فيما بينهم قصة الخليفة عمر بن الخطاب الذى حضرته الصلاة ، وهو فى صحن الكنيسة الكبرى ببيت المقدس ، فغادرها ليصلى على درجها منفردًا ، حتى لا تئول إلى ملكية المسلمين ذكرى لصلاة الخليفة فيها . . وتسامع المصريون بصيغة العهد الذى كتبه الخليفة المنتصر لبطارقة بيت المقدس ، وأعطاهم فيه الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم : لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم . . حتى الروم المهزومون ، شملهم العهد ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه ، ومن أقام منهم فهو آمن .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها المصريون عن الإسلام والمسلمين . . فقد تلقى المقوقس رسالة النبى صلى الله عليه وسلم التى يدعوه فيها إلى الإسلام وتلقى النبى جواب المقوقس مؤذنا بالأمل غير قاطع بالإباء ، إذ يقول فيها : « فهمت ما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . . وقد أكرمت رسلك وبعثت إليك بجاريتين لهما مقام فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام » . وقال النبى لصحابته الأقربين « ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما» . ثم قال : « إذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا بها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد

الأرض» . فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولم يارسول الله ؟ قال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة » .

فمصر لم تكن بعيدة عن الدعوة المحمدية منذ البداية . . ولم يكن الإسلام طارئًا مفاجئًا لمصر عندما أشرفت عليها جيوش المسلمين . . « فما كان من مسلم ، فى حياة النبى عليه السلام ، أو بعد وفاته ، إلا وهو يعلم أن مصر مفتوحة للمسلمين على يقين ، وإنما هو الأوان المحتوم ، فى يوم غير معلوم » ، على حد تعبير الأستاذ العقاد . . ولقد جاء الأوان المحتوم ، وليس فى مصر من يود بقاءها فى حوزة الدولة الرومانية بعد الذى كان منهامن طغيان وجور وظلم . . كل ذلك أساء إلى المصريين فى دينهم ودنياهم ، وجعلهم يتعجلون اليوم الذى تزول فيه هذه الدولة الظالمة . . فلما تقدم جيش الخلاص ، بقيادة عمرو بن العاص ، رحب به المصريون ، وقدموا له كل ما فى مكنتهم من عون . . وفى ذلك تقول الدكتورة سميرة بحر فى كتابها (الأقباط فى الحياة السياسية المصرية) : ولاشك أن أقباط مصر قدموا العون للمسلمين أثناء فتحهم لمصر ، وإن كان هذا لا ينفى حدوث بعض المقاومة ، فمن الواضح أنه لم يكن للأقباط مصلحة فى الدفاع عن سيد (الدولة البيزنطية) الذى أذاقهم مر العذاب فى محاولته القضاء على استقلالهم .

ومع الفتح الإسلامى ، بدأت حلقة جديدة من حلقات التاريخ المصرى ، أهم ما يميزها روح التسامح وحسن العشرة بين أتباع محمد وأتباع المسيح . . واختفت صور الاضطهاد التى شغلت التاريخ القبطى طوال عهد الاحتلال الرومانى ، ولم نسمع على مدار التاريخ الإسلامى عن حادث مشابه لتلك الفظائع التى أودت بحياة الكثير من الأقباط ، وجعلتهم فى عداد الشهداء الذين تعتز الكنيسة بسيرهم وتحرص على ذكر بطولاتهم فى اجتماعات الصلاة الدورية ، فلا يمضى شهر دون الاحتفال بذكرى واحد منهم . . وكان موقف الحكام المسلمين فى ذلك متمشيا مع مبادئ الإسلام التى تقوم على أساس من احترام العقائد ، ورفض القسر والإكراه فى أمور الدين . . وجاء النص القرآنى صريحا فى تحريم الإكراه ، ولم يكن لأى حاكم مسلم مهما بلغ من الجبروت أن يجبر أحدا على الإسلام .

وفى ظل الإسلام ، استعاد المصريون نزعتهم الأصيلة فى الاعتدال وكراهية

التعصب . . وتشربوا عناصر التراث الاجتماعي والثقافي في العادات والتقاليد ، حتى ليصعب على الغرباء تمييز المسلم عن المسيحي ، فيما يمارسه من عادات في أفراح الزواج والولادة والمآتم والجنازات والمعيشة اليومية . . وقد لفتت هذه الظاهرة نظر جبار الاحتلال البريطاني - كرومر - فأشار إليها في كتابه (مصر الحديثة) بهذه الكلمات : القبطي الحديث ، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، في السلوك واللغة والروح مسلم ، وإن لم يدر كيف ؟ فالقبطيات محجبات كالمسلمات ، والأطفال تأقلموا بشكل عام ، وعادات الزواج والوفاة مشابهة لتلك المتبعة لدى المسلمين .

ويضيف الدكتور ميلاد حنا إلى هذه الصورة بعض الرتوش الفولكلورية فيقول : ولقد أوجد التاريخ المشترك والوجود المتداخل أعيادًا دينية مشتركة ؛ فالأيام الأولى للسنة الهجرية (عاشوراء) يحتفل بتقاليدها في أغلب بيوت الريف المصري الأقباط والمسلمون ، وعندما يحل المولد النبوي ، يطالب الطفل القبطي بالحصان وتبكي الطفلة القبطية لتحصل على (العروسة الحلاوة) ، ويجمع شم النسيم الذي يأتي عقب عيد القيامة مباشرة كلا من الأقباط والمسلمين انطلاقا من تراث يعود إلى أيام الفراعنة وعيد الحصاد ، وحول ضريح سانت تريزا تتجمع المسلمات والقبطيات وفاء لنذر أو طلبا لحاجة .

وعلى اختلاف عهود الحكم الإسلامية ، كان الأقباط موضع التقدير والإعزاز من جانب الحكام ، وبلغ بعضهم في المناصب العليا شأوا عظيما ، مثل عيسى بن نسطوروس الذي كان وزيرًا للخليفة الفاطمي العزيز بالله بن المعز لدين الله . . وفي الحكم التركي المملوكي شغل بعض الأقباط مناصب رفيعة . يقول الدكتور زاهر رياض في كتابه (المسيحيون والقومية المصرية) : إن الأقباط كانوا من أشد المقربين إلى علي بك الكبير ، والى مصر في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، فقد كان المعلم رزق اليد اليمنى لعلي بك ، وإليه يرجع الفضل في التنظيم المالي الذي استند إليه علي بك ، سواء في مصر أو في سوريا ، كما كان المعلم يعقوب والمعلم إلياس بقطر أكبر عون لمراد بك في محاولة الخروج على السلطان .

ومن الشخصيات القبطية المرموقة ، قبل عصر محمد علي ، المعلم إبراهيم الجوهري الذي يصفه الجبرتي بأنه كان رجلا عظيما في خلقه وفي عمله سخيا كريما .

أما أخوه جرجس الجوهرى ، فقد كان أحد البارزين فى دولة محمد على ، إلى جانب المعلم رزق أغا الذى تولى حكم الإقليم الواقع وراء فرع دمياط ، والمعلم غالى الذى عهد إليه بمسح عموم أراضى مصر ، وبطرس غالى أغا ناظر شونات الغلال وعيد فرج أغا حاكم دير مواس ، وميخائيل عبده حاكم الفشن ، ومكرم أغا حاكم أطفيح . وتكلا سيداروس حاكم بهجورة ، وأنطون أبو طاقية فى الشرقية ، وعبود كاتب الخزانة ، وكان الباشا يحبه ويثق به ويقول له « لولا الملامة لقلدتك الدفترداريه» وهو المنصب الذى كان يتولاه ابنه إبراهيم باشا .

كيرلس الخامس

كان البطريرك كيرلس الخامس ، من أطول آباء الكنيسة المصرية عمرا . . فقد تولى قيادة الكنيسة فى عصر الخديو إسماعيل ، ومات فى ١٧ أغسطس ١٩٢٧ ، قبل أسبوع من وفاة سعد زغلول . . وعاصر خمسة من حكام مصر : إسماعيل ، وتوفيق وعباس الثانى ، وحسين كامل ، وأحمد فؤاد . . وعايش خلال فترة كرازته ـ التى بلغت ٥٣ عامًا ـ أحداثًا جساما من تاريخ مصر الحديث : الثورة العرابية ، ثم الاحتلال البريطانى ، والحرب العالمية الأولى ، وثورة ١٩١٩ ، ثم استقلال مصر وظهور أول حكومة شعبية فى ١٩٢٤ .

وكان كيرلس الخامس شخصية فريدة ، تجمع بين المهابة والوقار والحزم ، إلى جانب الزهد والورع . . ولكن المدهش فى شخصية هذا البطريرك ، هو مشاركته الإيجابية فى كل الأحداث الخطيرة التى تعرضت لها مصر خلال عمره المديد . منها موقفه المساند للثورة العرابية حتى النهاية ، فكان فى مقدمة الذين وقعوا عريضة خلع الخديو توفيق الذى استعان بالإنجليز لضرب الثورة ، فلما وقع الاحتلال ، تصدى البطريرك لكل المحاولات التى بذلها الإنجليز ، لوضع الكنيسة المصرية تحت الحماية البريطانية ، ورفض العروض التى قدمها اللورد كرومر ، لمنح المدارس القبطية معونات مالية . . وبعد ثورة ١٩١٩ وقف إلى جانب الثورة ، مؤيدا ومباركا تآلف المسلمين والقبط ، تحت علم الوحدة الوطنية ، ولما حاول الإنجليز إجهاض الثورة والتلويح بحماية الأقباط ، رد عليهم قائلا : إن المصريين شعب واحد وحمايته موكولة لله وحده .

كتب عنه عباس محمود العقاد : كان كيرلس الخامس ناسكا متعبدا مؤمنا

برسالته الدينية أشد الإيمان ، وكان ـ مع رعايته لفرائض الدين ـ لا ينسى فرائض الكرامة الدنيوية فى معاملته لأصحاب السلطان ، ولو كانوا من الملوك أو فى حكم الملوك ، وقد خطر لعميد الاحتلال ـ لورد كيتشنر ـ أن يلقاه كيرلس على غير موعد فذهب إلى دار البطريركية وأمر الحجاب أن يبلغوا صاحب الغبطة أن فخامته موجود فى الدار . . وهرول الحاجب وهو يلهث صائحا : اللورد يا أبانا . . اللورد يا أبانا . . فسأله فى أناة : من اللورد ياهذا ؟ وعلم جلية الأمر فلم يزد على أن قال : اذهب ياولد وقل لفخامته إن البابا لا يقابل أحدا بغير ميعاد . وطلب منه الملك فؤاد أن يبارك وزارة زيور باشا ، كما بارك وزارة سعد زغلول ، فلم يجبه ، ولم يزد على أن قال : إن البركة لا تمنح باليمين لتسلب باليسار .

وقد أهلته هذه السجايا والمواقف ـ كما يقول طارق البشرى ـ فى مؤلفه « المسلمون والأقباط » ـ لأن يكون موضع التجلة والاحترام بين المصريين جميعا ، وأن ينظر إليه رجال الحركة الوطنية ، بكثير من الامتنان لمباركته حركتهم . . ومع ذلك فلم يسلم كيرلس الخامس من تدخل مناوئيه الذين أفلحوا فى استصدار قرار بتجريده من سلطاته ، ونفيه إلى دير البراموس ، بوادى النطرون فى أول سبتمبر ١٨٩٢ . . وتلك قصة أخرى . .

الكنيسة المصرية

فى أخريات القرن الماضى ، اشتد تيار الإصلاح الدينى ـ بجناحيه الإسلامى والمسيحى ـ وإن اختلفت المنطلقات والنتائج . . فعلى المستوى الإسلامى قاد الشيخ محمد عبده تيار التمرد على الجمود فى الفقه ومناهج التعليم الأزهرى ، فاصطدم بقوة السلفيين الذين يريدون إبقاء الحال على ما هو عليه .

أما على المستوى المسيحى ، فقد تبلورت دعوة الإصلاح فى قيام هيئة علمانية تقف إلى جانب الكنيسة وتشاركها الإشراف على الأوقاف والمدارس القبطية والمطبعة والنظر فى قضايا الأحوال الشخصية للأقباط . . إلخ . وتمخضت الفكرة عن ظهور (المجلس الملى) بالانتخاب الجزئى من جانب الأقباط ، ومن الواضح أن دعاة الإصلاح كانوا متأثرين بموضة المجالس النيابية والمشاركة فى الحكم التى باتت صيحة العصر ، ولكنهم أخطئوا إذ تصوروا إمكانية الانتقاص من سلطان الكنيسة القبطية ، ذات التقاليد الراسخة فى احترام السلطات الموروثة للبطارقة ، منذ بشارة مرقس الرسول . وأخطئوا مرة ثانية حين لجئوا إلى الحكومة لتنصرهم على البابا كيرلس الخامس ، الذى اتخذ موقفا عنيدا ضد تدخلات المجلس الملى . صحيح أنهم نجحوا فى إصدار فرمان من الخديو بنفى البابا إلى وادى النطرون ، ولكنه عاد بعد خمسة شهور إلى كنيسته أقوى مما كان .

ولم يكن موقف البابا ضد المجلس الملى نابعا من عناد شخصى ، ولكنه كان يرى أن دعوة الإصلاح (العلمانى) ، تخفى وراءها دعوة مشبوهة ، إلى تذويب الكنيسة المصرية الأرثوذكسية فى تيار التبشير الذى هل على مصر مع الاحتلال البريطانى وبالتالى إخضاع الكنيسة القبطية للكنيسة الأسقفية البروتستانتينية . وقضية التدخل

المذهبى فى شئون الكنيسة المصرية ، قضية قديمة ترجع إلى عصور المسيحية الأولى . ولكن كل محاولات التدخل فشلت وبقيت الكنيسة محافظة على استقلالها الدينى والمذهبى .

* * *

وهناك شبهة أخرى ، دفعت البابا كيرلس الخامس إلى معارضته القوية لدعوة الإصلاح ، وهى ارتباطها بالاحتلال البريطانى نفسه . وإذا عرفت أن رائد حركة الإصلاح كان بطرس غالى باشا ، لأدركت على الفور سر عناد البابا ، وتمسكه باستقلال الكنيسة والحفاظ على طابعها الوطنى ، استمرارا لموقفها العنيد من حركات الاستعمار منذ العصر الرومانى ، حيث امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية وباتت الكنيسة المصرية ندا مصاولا للدولة الرومانية . الأمر الذى جعلها هدفا لاضطهاد الأباطرة . وفى ذلك يقول عباس محمود العقاد : لم يكن اضطهاد الرومان للأقباط خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية . وقد اعتصم المصريون بكنيستهم . وتجسدت فيها عناصر الدين والدولة ، والتفت الأمة حول زعامتها لإثبات كيانها ومشيئتها فى وجه القوة القاهرة . . وذلك سر مصدر القوة الكبرى التى اشتهرت بها المسيحية المصرية . .

أغاخان في مصر

في أضابير التاريخ المصري المعاصر ، قصة مشهورة تقول إن سلطات الاحتلال البريطاني كانت تعتزم تعيين « أغاخان » سلطانا على مصر . وذلك في غضون الفترة القصيرة التي خلا فيها عرش مصر بعد نفي الخديو عباس حلمي الثاني ، وتمنع عمه الأمير حسين كامل عن الجلوس على عرش ابن أخيه . . ويبلغ من شيوع هذه القصة ، أن الدكتور محمد حسين هيكل باشا أوردها في مذكراته ، في معرض حديثه عن ظروف قبول السلطان حسين عرش مصر ، وكيف أن هذا الأمير ما قبل العرش إلا انقاذًا له من أن يجلس عليه حاكم أجنبي ، ثم يقول هيكل « إن الأكثرين صدقوا هذه القصة ، وأعتقد أنها صادقة لأن الإنجليز دعوا بالفعل سمو الأمير أغاخان الهندي قبيل ارتقاء السلطان حسين العرش ، وتناقل الناس أنهم ـ أي الإنجليز يريدون أن يجعلوا أغاخان سلطانا على مصر » . والجزء الأول من تلك الرواية ـ وهو عزم الإنجليز تعيين حاكم أجنبي لمصر ـ صحيح مائة في المائة ، أما غير الصحيح فهو أن يكون أغاخان هو السلطان المرتقب .

* * *

وترجع فكرة تعيين حاكم أجنبي لمصر ، إلى قرار بريطانيا إجراء تغييرات جذرية على وضعها الاستعماري في مصر ، بعد نشوب الحرب العالمية الأولى ، وانضمام تركيا إلى صف عدوتها اللدود ـ ألمانيا ـ فقررت بريطانيا أن يكون وجودها في مصر أبديا وأن تقطع خيوط الشرعية التي كانت تربط مصر بدولة الخلافة . . وكان شكل العلاقة الجديدة ، يتراوح بين فكرتين ، لا ثالثة لهما : الأولى : « ضم » مصر نهائيا إلى التاج البريطاني ، فيصبح المصريون رعايا بريطانيين ، وتنمحي الجنسية المصرية .

ويرتفع العلم الإنجليزى ذو الصليب الأزرق على الديار المصرية ، ويتولى الحكم حاكم عام بريطانى ، مثلما كان الحال فى الهند وأستراليا ونيوزيلندا ، وكان هذا المشروع بمثابة حكم بالإعدام على الشخصية المصرية . وإنهاء للوجود الشرعى والقانونى للدولة المصرية العتيدة .

أما الفكرة الثانية فكانت أخف وطأة ، وهى إعلان « الحماية » على مصر ، بحيث تحل بريطانيا محل تركيا فى السيادة على مصر ، مع بقاء الحكم فى يد حاكم مصرى يعاونه وزراء مصريون . وبعد بحث مستفيض ، أخذت الحكومة البريطانية بفكرة «الضم» ، وأعدت بالفعل مسودات الأمر الملكى ، ليوقعه الملك جورج الخامس . . وطلب من كيتشنر ـ بحكم خبرته السابقة فى مصر ـ ترشيح أحد كبار الإنجليز ليكون حاكما على مصر ، ولكن حكومة لندن ، تراجعت فجأة عن قرارها ، بسبب معارضة رجال الوكالة البريطانية فى مصر ، الذين حذروا حكومتهم من التهاب الشعور الدينى ، واحتمال نشوب ثورة وطنية فى صفوف المصريين ، الذين كان بعضهم ـ حتى هذه اللحظة ـ يثق بوعود بريطانيا فى الجلاء عن مصر . . فما بالك بضمها نهائيا إلى ممتلكات التاج ؟!!

لقد اجتمع هؤلاء المستشارون ، وكتبوا مذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية قالوا فيها : كيف ننتزع من دولة صغيرة آخر مظهر للكيان الفردى ؟ إن قرار الضم سيكون نهاية لصدق كلمتنا . . فلن يصدقنا أحد . . وستكون لهذا القرار عواقب وخيمة . . ولم يعد مقبولا فى القرن العشرين أن نقضى على قومية الأجناس أو نحاول ابتلاعها ـ وحتى لو كان ذلك ممكنا فى أى مكان آخر ـ فلن يكون ممكنا فى مصر . . إن طمى النيل الذى امتصه العبريون والفرس والإغريق والرومان والأتراك امتصاصا كاملا ـ بحيث محا كل أثر لهم ـ هذا الطمى ليس بالبيئة المناسبة لأية تجربة أخرى . . !!

وتراجعت الحكومة البريطانية عن قرار الضم . . وأخذت بفكرة الحماية وخففت حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . . وفى يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أعلنت الحماية المشئومة على مصر . . وفى اليوم التالى أعلنت دار المعتمد البريطانى فى القاهرة قرار عزل الخديو عباس ، وتعيين الأمير حسين كامل سلطانا على مصر . .

أو تعيينه موظفا فى دار المعتمد البريطانى بدرجة سلطان . . وبذلك تلاشت فكرة تعيين حاكم أجنبى على مصر . .

* * *

أما مقولة تعيين أغاخان سلطانا على مصر ، فقد كشفت عنها الدكتورة لطيفة سالم (كلية الآداب ـ بنها) فى كتابها (مصر فى الحرب العالمية الأولى) ، ويتبين منها أنهامقولة تفتقر إلى السند التاريخى . .

فبالرجوع إلى مذكرات أغاخان نفسه نجد أن إنجلترا قد أحضرته إلى مصر ـ لا ليحكمها ـ ولكن ليهدئ من روح المصريين المتذمرة ، يقول أغاخان : « كان الوضع السياسى مضطربا ودقيقا ، كان عباس بالآستانة ومصر بدون حاكم ، وكانت النتيجة فى مصر شيئًا يقارب الفوضى » . . لقد ذهبت إلى مصر مع زميل لى ، وانصرفنا فورًا إلى أداء مهمتنا الدقيقة الشاقة المتشعبة إلى طبقات كثيرة من المجتمع المصرى فكان علينا أولا أن نكسب القصر والعلماء رؤساء جامعة الأزهر ، كما كان هناك عامة الشعب المصرى ، منهم المتعلمون الذين يجلسون فى المقاهى يطالعون ويناقشون إلى مالا نهاية أخبار الحرب . . والفلاحون الذين كانوا ولا يزالون المصدر الحقيقى لقوة مصر . . كان علينا أن نقنع هؤلاء بأن يؤازروا قضية الحلفاء » .

إذن فلم يحضر أغاخان إلى مصر كأمير ليقفز إلى عرشها . . ولكنه جاء إليها كعميل ، مهمته كسب ولاء المصريين للتاج البريطانى . . فكان شأنه شأن جميع العملاء الذين أطلقتهم بريطانيا ، طابورًا خامسا ، لإخماد الثورة فى نفوس الشعوب المقهورة . .

ولكن من هو هذا العميل الذى يعمل برتبة أمير ؟!

قاطع طريق

اكتسب « أغاخان » صيتا عالميا ، فاق شهرة نجوم السينما ولاعبى الكرة ، وعلماء الذرة وزعماء الدول وكبار المصلحين . . مع أنه لم يكن شيئا من هؤلاء ، ولكنه جمع فى شخصيته الغريبة شيئًا من كل هؤلاء ، وعندما يذكر اسم « أغاخان » تتبادر إلى الذهن صورة ذلك الرجل الذى عاش حياته فى العواصم الأوربية ، مفتونا بملكات الجمال ، وعارضات الأزياء ، مشغولا بكل متع الحياة . . وكان أتباعه يزنونه كل عشر سنوات بسبائك الذهب والبلاتين وقطع الماس النادرة ، إجلالا وتعظيما لمكانته عندهم . . ولا غرابة فى ذلك ، فقد أضفوا عليه صفة الألوهية . فلما مات اختاروا أسوان لتكون مثواه الأخير . .

والحديث عن أغاخان ، لا يكتمل إلا بالحديث عن طائفة (الإسماعيلية) التى تولى زعامتها على مدى ستين عاما . . فجدد شبابها . . وانتقل بها من غياهب الخمول والضعف والفقر ، إلى دائرة الضوء والشهرة والمال والنفوذ . .

والإسماعيلية هى إحدى فرق الشيعة ، التى تتفق جميعها على أحقية الإمام على ابن أبى طالب ، بالخلافة عمن سبقه من الخلفاء الراشدين الثلاثة . رضوان الله عليهم أجمعين . ولكن الإسماعيلية تختلف عن غيرها بأنها سلكت طريقا شططا وقالت فى على بن أبى طالب قولا فظيعا ، أولئك هم الغلاة الذين اختلطوا بالمذاهب والمعتقدات ، التى كانت سائدة منذ القدم فى الهند والعراق وفارس واليونان . وأخذوا من كل مذهب بطرف ، وبقدر ما أخذوا وتوغلوا . . بقدر ما بعدوا عن تيار الإسلام المصفى . وصنعوا من كل ذلك نسيجا يناقض المقرر الثابت من الأحكام والعقائد الإسلامية .

وتعرض « الإسماعيلية » كغيرهم من طوائف الشيعة ، للاضطهاد والقهر فهاجروا من الشرق إلى الغرب وكونوا تنظيمات بالغة السرية والتعقيد ، وأثاروا القلاقل والاضطرابات داخل الدويلات الإسلامية المفككة ، ونجح الانقلاب الذى دبروه فى المغرب ، فأقاموا دولة القواطم التى لم تلبث أن انتقلت إلى مصر عن طريق الغزو العسكرى ، فبنوا مدينة القاهرة ، وأقاموا الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين ، دون أن تفلح فى استمالة المصريين المسلمين إلى عقيدتها الشاذة . فالمصريون الذين عرف عنهم التوسط والاعتدال فى التدين والبعد عن الغلو والشطط ، رفضوا اعتناق مذهب الدولة الرسمى ، حتى اندثر بزوال الدولة الفاطمية ، فلا تجد مصريا واحدا يعتنق مذهبا شيعيا بالرغم من حب المصريين لأهل البيت .

* * *

وفى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر ، تعرضت الحركة الإسماعيلية للانشقاق بين ولديه : المستعلى ونزار ، ففريق تمسك بإمامة المستعلى . ولكنهم تفككوا عبر القرون ، ولم يبق منهم الآن سوى طائفة (البُهَرة) الذين ينتشرون فى الهند واليمن ومعظمهم من أثرياء التجار ، وهم الذين نجحوا فى إقناع الرئيس الراحل أنور السادات بالسماح لهم بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله الملاصق لباب الفتوح وأنفقوا على عملية التجديدعشرات الملايين من الجنيهات ، كى يجعلوا منه تحفة معمارية رائعة ، وهم لم يفعلوا ذلك إلا تمجيدا لإمامهم المتألة الحاكم بأمر الله ، مدفوعين بالحنين إلى استعادة مجدهم القديم فى عاصمة المعز .

أما أتباع نزار فقد تعرضوا للاضطهاد من جانب الحكومة الفاطمية ، ففروا من مصر ، ونجح أحد زعمائهم ـ وهو الحسن الصباح ـ فى إقامة دولة الحشاشين فى شمال إيران . وهى الدولة التى كانت تتسلل منها جحافل الفدائيين لاغتيال زعماء وقادة العالم السُّنى ، حتى أثاروا الفزع والرعب فى قلوب الملوك والسلاطين ، إلى أن قضى عليهم خاقان المغول هولاكو ، فلم تقم للنزارية قائمة ، إلى أن ظهرت بعض بقاياهم فى إيران فى أواسط القرن التاسع عشر ، تحت اسم « الأغاخانية » الذين ينتمى إليهم أغاخان الثالث موضوع هذا الحديث .

والاسم الصحيح لأغاخان الثالث هو : محمد الحسينى شاه ، أما جده أغاخان الأول واسمه (حسن شاه على) ، فقد كان قاطع طريق ، ظهر فى إيران ، فى منتصف القرن الماضى ، واستطاع أن يجمع حوله عددا من الفتوات من الإسماعيلية وغير الإسماعيلية ، وكون منهم عصابات ، كانت تنقض على القرى والقوافل ، حتى ذاع صيته فى جميع أنحاء إيران ، وأصبح له نفوذ واسع على أتباعه وبات مصدر قلق للأسرة الحاكمة .

وفى ذلك الوقت كان الإنجليز يعملون على بسط نفوذهم فى إيران ، وكعادة الإنجليز فى بث الدسائس والفتن ، وصنع العملاء ، واستمالة كل طامع فى الجاه والثروة ، فقد وجدوا ضالتهم فى هذا « اللص الشريف » فاتصلوا به ، وزينوا له القيام بانقلاب ضد الشاه ، على أن يتولى هو حكم فارس تحت رعايتهم ، وتمت المؤامرة الإنجليزية ، وأعلن قاطع الطريق حسن شاه الثورة ، ولكنها فشلت وقبضت عليه السلطات الإيرانية وزج به فى السجن ، عندئذ تدخل الإنجليز وأقنعوا الشاه بالعفو عن الثائر الهمام ، على أن يغادر إيران ، وبالفعل خرج حسن شاه على من السجن تحيط به هالات البطولة المصطنعة ، فدفع به الإنجليز إلى أفغانستان ليلعبوا به كورقة فى صراعهم هناك مع روسيا . . ولكن الأفغان تصدوا له فرحل إلى الهند واتخذ من مدينة بومباى قاعدة لنفوذه الجديد . وأراد الإنجليز أن يلعبوا به مرة ثالثة فى السيطرة على درة التاج البريطانى ، فجعلوا منه إماما لطائفة الإسماعيلية النزارية ، وخلعوا عليه لقب (أغاخان) ومنحوه السلطة المطلقة على أتباعه الإسماعيلية ، الذين فرحوا بعلو شأنهم ، بعد أن ظلوا مغمورين طوال عدة قرون . . وبظهور إمامهم الذى ظل فى الستر والكتمان مئات السنين ، بدأ أغاخان ينظم صفوف الإسماعيلية تحت العلم البريطانى ، حتى مات سنة ١٨٨١ ، فخلفه ابنة (أغا على شاه) ، وكان على درجة عالية من الثقافة ويجيد عدة لغات أفادته فى نشر التعليم بين طائفته ، ووضع الأساس المادى والثقافى الذى بنى عليه ابنه أغاخان الثالث مجده المرموق .

صعيدية من لندن

كانت (لوسى دف جوردون) ، من الأجنبيات القليلات اللاتى وقعن فى غرام مصر ، فأحببنها حبا خالصا واتخذنها موطنا وسكنا . . وقد حتمت الأقدار على لوسى ، أن تقضى فى مصر السنوات السبع الأخيرة من عمرها ، فيما بين سنتى ١٨٦٢ ـ ١٨٦٩ ، فاندمجت فى نسيج المجتمع ، وخالطت الفلاحين فى قراهم الكئيبة ، وعاشت أوجاعهم وبؤسهم بلا استعلاء أو غطرسة ، حتى وصفت نفسها بأنها مصرية عربية ، ووصفها البعض بأنها مسلمة . . ورغم أنها عاشت فى الأقصر بين أحضان الآثار القديمة ، إلا أن هذه الآثار لم تقع فى بؤرة شعورها ، مثلما حدث لمعظم الأجانب الذين استوطنوا مصر . . ولأنها كانت تؤمن بأن الأحياء أجدى من الأموات ، فقد صرفت كل همها فى مخالطة أحفاد الفراعنة ، وهم يعانون الضنك والشقاء والتعاسة ، وكانت تدفعها رغبة جياشة فى التشبث بالحياة ، والانتصار على المرض اللعين الذى ينهش صدرها ، وجمعت بينها وبين أهل مصر وحدة الألم ، وقوة الانتصار على العدم ، فأقبلت على الحياة بكل طاقتها ، ورحب بها أهل الأقصر ترحيبا حارًا ، وأنزلوها منزلة التكريم ، وأطلقوا عليها من الألقاب ما يتكافأ مع نبلها . . فقد كانت تستقبلهم فى بيتها والبشاشة تملأ وجهها فسموها « البشوشة » ورأوها تشاركهم احتفالهم بموالد الأولياء فسموها « الشيخة » وتلقوا العلاج على يديها فسموها « نور » .

كانت لوسى تنتمى إلى عائلة إنجليزية أرستقراطية . . فقد كان أبوها أحد رجال الفقه القانونى بجامعة لندن ، وكانت أمها على درجة عالية من الثقافة ، وكان بيتهما ملتقى كبار رجال الفكر والسياسة والأدب ، من أمثال شارلز ديكنز وتوماس كارليل

وجيمس ميل ، والد المفكر السياسى الشهير جون ستيوارت ميل ، الذى كان رفيق صباها . . وهيأت هذه البيئة للفتاة نضجا عقليا وذهنيا ، وألبستها خصالا راقية تتمثل فى حب العدل والتسامح وشجاعة الرأى والنظر إلى الأمور نظرة موضوعية خالية من التعصب والهوى . . فلما بلغت لوسى سن الزواج ، اقترنت بالسير إكسندر دف جوردون وأنجبت منه ابنة . . وطافت الأسرة فى أنحاء القارة الأوربية وهى يومئذ تفور بالجدل والصخب فى أعقاب الزوبعة التى خلفتها حروب نابليون . . وشاركت لوسى فى هذه الحياة الفكرية الخصبة . وبينما هى تخوض هذا المعترك الثقافى تمكن منها داء السل اللعين ، وهى فى ريعان الشباب ، فى وقت لم يكن الطب قد توصل بعد إلى علاجه علاجا ناجعا ، فنصحها الأطباء بالابتعاد عن الأجواء الباردة ، فذهبت إلى جنوب أفريقيا ، ولكنها لم تتقدم صحيا ، فعادت إلى انجلترا فنصحوها بالذهاب إلى مصر ، فشدت الرحال إلى الإسكندرية ، ومنها إلى القاهرة ، ثم أقلها مركب نيلى إلى صعيد مصر ، حيث استقر بها المقام فى الأقصر وأقامت فى بيت يسمى (بيت فرنسا) يقع على تل من الرمال ، كان يغطى معبد الأقصر ، ويطل على مسجد أبى الحجاج من ناحية ، ويطل على النيل من ناحية أخرى .

وفى هذا البيت العتيق الذى كان أشبه بالدوار ، عاشت لوسى حياة غاية فى البساطة ، تتودد إلى الناس ، وتعطف على الفقراء . وتعالج المرضى ، وتناقش العلماء والمشايخ ، وتشارك الناس أفراحهم فتغمر نفسها السعادة ، وتقاسمهم تعاستهم فتذوب روحها أسى ولوعة . . وعلى مدى السنوات السبع التى عاشتها ظلت رسائلها تتوالى على زوجها وأمها وابنتها ، تحكى فيها كل صغيرة وكبيرة من حياتها فى قاع المجتمع المصرى ، وتقدم صورة واقعية للحياة الريفية بلا زيف أو مبالغة . . وقد بقيت هذه الرسائل وديعة عند أسرتها فى إنجلترا ، حتى أخرجها إلى النور أحد أحفادها فنشرها فى مجلد أنيق فى عام ١٩٦٩ بمناسبة مرور مائة عام على وفاتها ، وقد ترجمها إلى العربية المؤرخ المعروف أحمد شاكى ، ونشرها فى كتاب تحت عنوان (رسائل من مصر) . . وهو يرى فى الرسائل وثيقة قيمة للتاريخ الاجتماعى تصف قطعة من حياة الريف المصرى فى أواسط القرن التاسع عشر . . بل يراها من بعض نواحيها وثيقة دينية وسياسية يجدر بالباحثين فى التاريخ أن يعيروها دراسة

دقيقة ، لأن دراسة المجتمع نفسه وإحساسات أفراده وتصرفاته من ألزم ما يكون للمؤرخ . . وقد استطاعت رسائل (لوسى دف جوردون) أن تقدم لنا هذه المعلومات الدقيقة ، لأنها كانت تحكى الأحداث الصغيرة التى كانت تصادفها . . وكانت لوسى دائبة على التجوال فيما حولها من القرى ، والاستماع لما يلقيه عليها القوم من قصص فتكتبها إلى زوجها أو أمها أو ابنتها . . وباحث التاريخ يستطيع أن يجد أنه كان هناك تفاعل بين الحكومة المركزية فى القاهرة وهذه القرى النائية فى صعيد مصر فقد كان الأهلون متأثرين بسياسة الحكم فى بداية عصر إسماعيل . . فالرسائل إذن وثيقة سياسية اجتماعية تعرض خبرات شخصية مباشرة ، وهى من ناحية أخرى وثيقة دينية لأنها تتحدث عن أثر الإسلام فى المصريين ـ ولكن وراء هذا الأثر ما تأصل فى ثقافة المجتمع المصرى من أثر التاريخ الفرعونى ومعتقدات الفراعنة .

وعندما أدركت لوسى أن الموت يسرى فى جسدها ، تقبلت حكم القضاء بروح راضية ، وأبحرت بها السفينة شمالا من الأقصر إلى حيث توقفت قبالة حلوان والتف من حولها بحارة السفينة وخادمها الأمين (عمر أبو حلاوة) الذى ظل إلى جوارها طيلة السنين السبع ، وكتبت آخر رسائلها إلى زوجها تقول فيها : لا تبتئس ولا ترسل إلى ممرضة ، فأنا ألقى من العناية ما هو فى الإمكان ، والريسان (رمضان) و (يوسف) قويان عطوفان ، أما (عمر) فهو كما كان دائما . لقد بلغ بى الألم الجثمانى ما لا أود أن يشهده الآخرون . . بارك الله فيك يا أعز الأحباب . . كم هو مؤسف أنك لم تقم بما كنت قد عزمت عليه من قدومك إلى أعلى صفحة نهر النيل . . قبل لى كل أحبائى . . وتشارلى العزيزة . . إننى أشفق على عينيها . . أظن أننى لا أستطيع أن أجيد الكتابة ـ فخطى ردىء ـ فأنا مجهدة مسهدة ، فارقنى النوم وصدرى يتمزق من السعال . . اغفر لى أخطائى . . كم وددت لو أننى رأيت وجهك العزيز مرة أخرى . . لكننى لست أود ذلك الآن . . لست أريدك الآن هنا بأية حال من الأحوال . .

وفى اليوم التالى ، كتبت صورة برقية إلى زوجها تنعى فيها نفسها . وتركت فراغا بين الكلمات يكتب فيه تاريخ الوفاة . . وانتابتها نوبة شديدة من السعال فاستسلمت لأمر الله . . وكانت آخر كلماتها « لتكن مشيئتك » وبعدها أسلمت الروح .

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

فى غضون العام الأخير من القرن التاسع عشر ، طالع الرأى العام المصرى على صفحات (المؤيد) سلسلة من المقالات الجريئة ، تتحدث عن طبيعة الاستبداد السياسى وأثره فى انحطاط الأمم ، حيث تتحول الشعوب إلى قطيع يسوسها مستبد غشوم . . وكانت المقالات مجهولة المؤلف الذى رمز لاسمه بحرف (ك) . وكان هذا الإبهام مثيرًا للشغف والفضول ، وتساءل الناس عمن يكون هذا الكاتب المقدام الذى يطرق موضوعا طالما تجنبه الكتاب خشية التنكيل ، وإيثارًا للسلامة والتعايش مع حكام ظلمة ، لم يتعودوا سوى سماع عبارات التمجيد والتعظيم والتسبيح بحمدهم .

كانت الدول العربية آنئذ تخضع لسيادة الدولة العلية التى يجلس على عرشها أستاذ فى الاستبداد : السلطان عبد الحميد الذى تنكر للدستور ورجاله ، وزج بهم فى غياهب السجون ، وبث عيونه فى أنحاء الممالك والولايات يطاردون الأحرار ويخمدون أنفاسهم بالسم تارة ، والخنق تارة . . وكان نصيب الشام من أذى السلطان كبيرًا . . أما مصر فكانت قد تخلصت من قيود الرق العثمانى ، وسرى فيها لهيب الوعى الوطنى ، وترددت فيها صيحات الحرية والعدالة منذ وقت مبكر وظهرت فيها رموز الاستقلال متمثلة فى دستور عصرى وصحافة حرة وتمثيل برلمانى وأصبحت مصر قبلة الأحرار والمفكرين الشوام الذين ضاقت عنهم أوطانهم ، فشدوا الرحال إلى أرض الكنانة حيث الحرية والسعة والأمن والرخاء .

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبى من طليعة المفكرين الأحرار الذين ظهروا فى الشام فحركوا ركود الحياة السياسية ، وأيقظوا بنى قومهم من سباتهم ، فأصدر العديد من الصحف فى مسقط رأسه (حلب) . وجعل منها سوط عذاب على الظلم

والظالمين ، وصوتا طليقا للمستضعفين والمنكوبين . . وكان جواسيس السلطان بالمرصاد لكل ما يكتبه الكواكبي . فالصحف التي يحررها تصادر أو تجمع لتحرق والولاة العثمانيون يلفقون له القضايا ليقضي معظم أيامه في السجون . . فلما بلغ به اليأس مبلغة راودته نفسه بالرحيل عن وطنه ، ولكنه كتم وجهته عن أهله وإخوانه وزعم لهم أنه سيقصد إستانبول للسياحة . . ومع ذلك ساورهم الخوف من أن يذهب إلى مصر ، فيحرم إلى الأبد من العودة إلى وطنه . . فلما جن الليل جمع الكواكبي أوراقه وغادر وطنه متمثلا قول الشاعر :

وإذا نكـرتني بلـــدة ونكرتهـــا   خرجت مع البازى على سـواد

وما هي إلا أيام ، حتى كانت مقالات الكواكبي تتصدر الصفحات الأولى من (المؤيد) فيتردد صداها في أنحاء الشرق . . ويهتز منها عرش السلطان فزعا . . يقول كامل الغزى الصديق المقرب من الكواكبي : « وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوما ، لم نشعر إلا وبصدى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة (المؤيد) تنشر له حلقات كتاب « طبائع الاستبداد » الذى لم يطلعنا عليه مطلقا ، بخلاف كتاب « جمعية أم القرى » فقد أطلعنا عليه مرارًا ، ثم إنه طبع الكتابين المذكورين ، وقام لهما في البلاط السلطاني ضجة عظيمة ، وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولها إلى الممالك العثمانية . . وبلغنا أنه بعد دخوله مصر بأيام قلائل ، التف حوله جماعة من أدباء الأتراك زعموا أنهم من طائفة « تركيا الفتاة » وما هم في الحقيقة إلا جواسيس يرقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها إلى إستانبول . . » .

وعاش الكواكبي في القاهرة معززا مكرما ، في جوار الإمام الحسين ، وقد أحاط به كوكبة من أحرار الشرق الذين يتطلعون إلى اليوم الذى تتخلص فيه أوطانهم من أكفان الذل والاستعباد . ويعبرون عن آمالهم بالكتابة والخطابة وبكل ما يملكون من وسائل البيان . . وسرت أفكار الكواكبي في الجماهير العطشى إلى الحرية مسرى الماء في الأرض القاحلة ، وتلهف الناس على مطالعتها ، لما كانوا يجدون فيها من صدق وجرأة في نقد الحكام الطغاة . . وبرغم القيود المحكمة التي فرضتها السلطات العثمانية ، فقد وجدت كتابات الكواكبي طريقها إلى الشعوب العربية في الشام والعراق واليمن والبحرين وشمال أفريقيا . . وباتت مقالاته عن الاستبداد بمثابة

مشاعل تهدى المقهورين إلى طريق الخلاص ، ولم يكن الخلاص سوى الثورة على الاستبداد فى كل أشكاله السياسية والاجتماعية والتربوية . . ولم يكن من المعقول أن يستمر هذا القلم الجرىء فى إثارة الغافلين وتنبيه النائمين ، وإنما المعقول فى ظل تقاليد الاستبداد والبطش أن يخفت الصوت قبل أن يعلو ضجيجه . . وفى مساء الخميس ١٤ يونيو ١٩٠٢ كان السيد عبد الرحمن الكواكبى ، يجلس فى مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية ، ومعه من أصدقائه المقربين : السيد رشيد رضا والأستاذ محمد كرد على ، والشيخ إبراهيم سليم النجار . وطلب الكواكبى ـ كعادته ـ فنجانا من القهوة المرة فارتشفه . ولم تمض نصف الساعة إلا وقد أحس بالألم يمزق أحشاءه فنهض فى الحال ومعه ابنه كاظم فى عربة حنطور إلى الدار ، وظل يتقيأ حتى قارب الليل منتصفه ، ثم أصابته نوبة قلبية ، فأحس ابنه بالخطر ، فهب يستدعى أقرب طبيب بالحى ، فلما عاد بصحبة الطبيب وجد أباه قد فارق الحياة ، بعد أن طوى فيها خمسين عاما ، كانت من أقصر الأعوام زمنا . . ولكن من أخصبها جهادًا ونضالا فى سبيل الحرية والعدل والكرامة الإنسانية .

وسرى الخبر صباح الجمعة فى مدينة القاهرة . فأمر الخديو عباس الثانى أن يدفن الكواكبى على نفقته الخاصة ، وأن يعجل بدفنه فى قرافة باب الوزير بالقرب من القلعة . . وارتجل شاعر النيل حافظ إبراهيم بيتين من الشعر نقشا على شاهد قبره .

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقرءوا أم الكتاب وسلموا ... عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبى

أما السلطان عبد الحميد ، فلم يكد يتلقى نبأ وفاة الكواكبى حتى تنفس الصعداء ، وأوفد أحد أعوانه فى مهمة سرية إلى القاهرة ، فقصد إلى البيت الذى كان يقيم فيه بالحسين ، وجمع ما تبقى فى مكتبه من أوراق ، وبعث بها إلى قصر يلدز . . وظن عبد الحميد أنه استراح إلى الأبد من إزعاجات الكواكبى ، ولكن الأقدار خيبت ظنونه . . فما هى إلا بضع سنين حتى أنهار عرش عبد الحميد ، وأطاحت به ثورة جارفة ألقت به فى أعماق السجون ، ليقضى ما تبقى له من عمر مقهورًا مدحورًا . . وبقيت أفكار الكواكبى شعلة وضاءة فى قلوب الأحرار ، وأنشودة يتغنى بها عشاق الحرية فى أنحاء الشرق .

المستبد عدو الحق

كان السيد عبد الرحمن الكواكبى ، مفكرًا تقدميًا بالقياس إلى عصره . . فقد شغل نفسه بقضية كانت مركونة فى أضابير العقل العربى منذ عصر ابن خلدون فجاء إحياؤها نشازا إذا قورنت بالقضايا التى كانت تشغل بال علماء الدين فى أخريات القرن التاسع عشر . . فقد كانت اهتماماتهم موزعة بين التصوف وبحوث البلاغة والبيان والبديع والنحو والصرف والخلافات الفقهية فى الفروع ، ومدى مشروعية استخدام الصنبور (الحنفية) فى الوضوء . . فإذا تبحروا عقليا بحثوا فى أمور الحياة الأخرى ولا يقربون شيئًا من شئون الحياة الدنيا .

وكان هذا القصور العقلى ، يلقى تشجيعا من الحكام لأنه يصرف الرعية عن التفكير فى القضية الأساسية : قضية نظام الحكم ومدى تطابقه مع المبادئ الأساسية التى جاء بها الإسلام ، كالعدالة والحرية والشورى والمساواة والوفاء بالعهد واحترام الكرامة الإنسانية . . وهى القضية التى استحوذت على تفكير الكواكبى فجعلها قضية عمره ، ومحور كتابه العظيم (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ، فظهر كنقطة ضوء فى عتمة الفكر السياسى ، وكان أثره فى العقل العربى لا يقل عن أثر (العقد الاجتماعى) لروسو (وروح القوانين) لمونتسكيو فى العالم الغربى . . فقد بدأت الشعوب العربية تتنبه إلى واقعها المرير من خلال التشريح الذى قدمه الكواكبى للعلل والأمراض التى تعانى منها الأمة الإسلامية ، وقدم لنا هذا المفكر الجرىء تشخيصًا وافيا ، استقاه من قراءة عميقة للتاريخ الإسلامى ، كما استقاه من الواقع الذى لمسه بنفسه بعد سياحة عريضة فى البلاد الإسلامية . . لم تكن سياحة للترويح عن النفس ، ولكن لتقصى الحقائق والتعرف على حال هذه الشعوب .

فكان إذا هبط بلدا خالط أهله فى معاشهم وفكرهم وسلوكهم ، وتعرف إلى مصادر أرزاقهم وكوامن ثرواتهم الزراعية والمعدنية وأسلوبهم فى العلم ونظام حكمهم .

ومن حصيلة هذه المعارف النظرية والعملية ، توفرت للكواكبى رؤية عميقة لواقع الشعوب الإسلامية انتهى فيها إلى أن أصل الداء يكمن فى نظم الحكم المطلق التى أطبقت على رقاب الشعوب وخنقتها بالذل والاستعباد . . وصاغ الرجل أفكاره فى عبارات واضحة جريئة لا تحتمل لبسا . . ومفادها أن ما أصاب الدول العربية من انحطاط وتخلف إنما مرجعه وقوعها تحت وطأة حكومات غاشمة وحكام طغاة مغتصبين معتدين وضعوا كعوب أرجلهم على أفواه الملايين من الناس فمنعوها النطق بالحق والمطالبة به .

وكم كنت أود أن أقدم للقارئ العزيز ملخصا وافيا للأفكار التى تضمنها كتاب (طبائع الاستبداد) ، لولا أن رفوف مكتبتى لا تضم هذا السفر الخطير الذى يحرص كل عاشق للحرية وكل مبغض للاستبداد على اقتنائه . . فالكتاب اختفى منذ عشرات السنين ولم تحفل دور النشر بإعادة طبعه اتقاء لبطش الحكومات العربية فهى بطبعها لا تحب ذيوع مثل هذه الكتب التى توقظ الغافلين وتنبه المظلومين إلى حقوقهم المهدرة . . ولذلك سأقدم ملخصا للعرض الوافى الذى كتبه العلامة الكبير أحمد أمين عن الكواكبى ضمن فصول كتابه (زعماء الإصلاح الاجتماعى فى العصر الحديث) .

فكتاب طبائع الاستبداد ، يدور حول تعريف الاستبداد بأنه صفة للحكومة المطلقة العنان ، التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب ، ويأتى هذا من كون الحكومة مطلقة التصرف ، ولا يقيدها قانون ولا إرادة أمة ، وربما كانت الحكومة مقيدة بشىء من ذلك ، ولكنها تملك بنفوذها ودهائها إبطال هذه القيود والسير على هواها . . والحكومات بطبعها ميالة إلى الاستبداد ، لا يصدها عنه إلا وضعها تحت المراقبة الشديدة ، ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها .

فالمستبد عدو الحق ، وعدو الحرية وقاتلها . . وهو يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتذلل وتتملق . وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه : هل خلقت خادمة له . . أم هى جاءت به ليخدمها فاستخدمها ؟ والرعية العاقلة

مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد ، تقول له : لا أريد الشر . ثم هى مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ، فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه .

وقد بحث الكواكبى بحثا مستفيضا فى علاقة الاستبداد بالدين ، ونقل عن الفرنج رأيهم فى أن الاستبداد فى السياسة متولد عن الاستبداد فى الدين أو مساير له . . فكثير من الأديان تبث فى نفوس الناس الخشية من قوة عظيمة لا تدرك كنهها العقول . وتهددهم بالعذاب فى الحياة الأخرى ، ثم تفتح بابا للخلاص والنجاة بالالتجاء إلى الأحبار والقسس والمشايخ ، بالذلة لهم ، وطلب الغفران منهم . . والمستبدون السياسيون يتبعون هذه الطريقة فيسترهبون الناس بالتعالى والتعاظم ويذلونهم بالقهر والقوة وسُلب الأموال حتى لا يجدوا ملجأ إلا التزلف لهم وتملقهم وعوام الناس يختلط عليهم فى أذهانهم الإله المعبود والمستبدون من الحكام ، فيتشابه عندهم استحقاق التعظيم ، وينزهونهم عن سؤالهم عما يفعلون ، ولا يرون لهم حقا فى مراقبتهم على أعمالهم ، كما أنه ليس لهم حق فى مراقبة الله فيما يفعل !! ولهذا خلعوا على الحاكم المستبد صفات الله ، مثل : ولى النعم ، والعظيم الشأن ، والجليل المقتدر . . وما إلى ذلك . وما من مستبد سياسى إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله . أو تربطه برباط مع الله . ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله . . !!

ولقد رأى الكواكبى أن الإسلام فى جوهره الأصيل لا ينطبق عليه هذا القول . . فهو مبنى على قواعد الحرية السياسية متوسطة بين الديمقراطية والأرستقراطية . . فهو مؤسس على أصول ديمقراطية (أى مراعاة المصلحة العامة) وعلى شورى أرستقراطية (أى شورى الخواص وهم أهل الحل والعقد) ، فالقرآن مملوء بتعاليم تقضى بإماتة الاستبداد ، والتمسك بالعدل والخضوع لنظام الشورى . . ثم لا يعرف الإسلام سلطة دينية ، لا اعترافا ، ولا بيع غفران ، ولا منزلة خاصة لرجال الدين ، ولكن دخل عليه من الفساد ما دخل على كل دين ، فتفرقت كلمة المسلمين، وانقسموا شيعا ، وتحول الحكم من نظام شورى إلى الاستبداد ؛ فصغرت نفوس الناس وخفت صوتهم ، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو المبدأ الذى به يراقب أولو الأمر فى الأمة ، فصار أمر المسلمين إلى ما نرى .

ويلاحظ أحمد أمين أن الكواكبي لم يتعرض للرد على الشطر الأول وهو ما يوحيه تصوير الله بالقوة والعظمة من خضوع النفوس للمستبد ، ويرى أحمد أمين أن الإسلام ـ بجعله (لا إله إلا الله) محور الدين ـ كان كفيلا أن يذكر المسلمين دائمًا بأن العزة لله وحده ، وأن النفوس لا يصح أن تذل لأحد سواه ، وأن هذه الكلمة توحى بالضعف أمام الله ، والقوة أمام من سواه . . ولكن بتوالى القرون وبفساد العقائد . أصبحت (لا إله إلا الله) عند أكثر المسلمين كلمة جوفاء لا روح فيها ، تبعث الضعف ولا تبعث القوة ، وتبيح أن يشرك مع الله الحاكم المستبد والرئيس المستبد بل المال والجاه والمنصب ، فكل هذه وأمثالها أصبحت آلهة مع الله . . !!

أصـــل الفســـاد

عكف السيد عبد الرحمن الكواكبي على دراسة أحوال الشعوب الإسلامية ، فهاله ما كانت عليه في أخريات القرن التاسع عشر من تخلف وانحطاط وإملاق . . وانتهى من نظرته التشريحية الدقيقة إلى أن الاستبداد هو أصل كل فساد . وسبب كل نقيصة ، والسوس الذى ينخر جسد الأمة فيسلبها رواءها ونضارتها ويحيلها جلداً على عظم .

فالحاكم المستبد يخشى العلم ، لأن العلم نور ، وهو يريد أن تعيش الرعية في الظلام ، لأن الجهل يمكنه من بسط سلطانه ، وهو لا يخشى علوم اللغة والأدب ولا علوم الدين المتعلقة بالحياة الآخرة ، بل هو يستخدم العلماء من هذا القبيل لتأييده في استبداده ، يسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدته . . إنما ترتعد فرائصه من علوم السياسة والاجتماع والتاريخ والفلسفة العقلية ، ونحو ذلك من العلوم التي تنير الدنيا ، وتثير النفوس على الظالم ، وتعرف الإنسان حقيقته كإنسان له حقوق ومطالب ، وكيف ينالها ويستخلصها من الحاكم السارق .

والحاكم المستبد تسره غفلة الشعب ، لأنه يتمكن بغفلتهم من الصولة عليهم يغصب أموالهم ، فيحمدونه على إبقاء حياتهم . . ويضرب بعضهم ببعض فيصفونه بحسن السياسة والكياسة . . ويسرف في أموالهم ، فيقولون إنه كريم . . ويقتلهم ويمثل بهم ، فيقولون إنه رحيم . . وإن نقم عليه بعض الأباة ، قاتلهم بهم كأنهم بغاة .

ويضع الكواكبي أيدينا على حقيقة غريبة ، تقول إن الحاكم المستبد يخشى رعيته كما تخشاه رعيته ، بل خوفه منهم أشد ، لأنه يخافهم عن علم ، وهو يخافونه عن

جهل . . وقد اعتاد المؤرخون المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار حذره وقياس درجة عدله بمقدار طمأنينته . . كما يستدلون على أصالة الاستبداد فى الأمة بترف حكامها ، وإمعانهم فى البذخ . . وقد تكون اللغة دليلاً على تفشى الاستبداد بما تحويه من ألفاظ التعظيم والتفخيم وعبارات الخضوع والمذلة كاللغة الفارسية .

ويرى الكواكبى أن الاستبداد لا يكون مقصورا على الحاكم الفرد ، ولكنه يتفرع منه إلى المستويات الدنيا : إلى الشرطى . . إلى الكناس . . إلى الفراش . . ولا يكون كل صنف من هؤلاء إلا من أسفل طبقته ، لأنه لا يهمهم الترفع باستجلاب محبة الناس ، إنما يهمهم اكتساب ثقة رئيسهم المستبد . . والوزير فى الحكومة الاستبدادية هو وزير المستبد الأعظم ، لا وزير الأمة ، وكذلك من تحته من أعوانه . . فالهيئة كلها شركاء فى جريمة الضغط على الأمة وظلمها وقتل روح الإباء والعزة فيها ، وخلق نوع من السيادة الكاذبة ، وتجعل أولى الأمر سلسلة تبدأ من المستبد الأعظم إلى الشرطى فى الشارع ، كل يخضع لمن فوقه ، ويستبد بمن تحته . . وعلى العكس من ذلك الحكومة الديمقراطية ، فهى تشعر كل شخص فى الدولة بالعزة التى يحميها العدل ، وبأن له نصيبا فى حكم بلاده ، وصوتا مسموعا فيما يجب أن يعمل ، وما يجب أن يترك ، وأن حكومته ليست قائمة إلا برأيه ورأى أمثاله . إن شعروا يوما بجورها أسقطوها ، سلطة الرأى العام فيها فوق سلطان الحكومة والبرلمان وكل سلطان .

وعرض الكواكبى بعد ذلك لأثر الاستبداد فى فساد الأخلاق . . فالاستبداد يضعف الأخلاق الفاضلة ويفسدها ، لأنه يفقد الإنسان عاطفة الحب ، فهو لا يحب قومه لأنهم عون الاستبداد عليه ، ولا يحب وطنه لأنه يشقى فيه . وهو ضعيف الحب لأسرته لأنه ليس سعيدا فيها ، وهو لا يركن إلى صديقه ، لأنه قد يأتى عليه يوم يكون فيه عونا على الاستبداد ومصدر شر له .

الإنسان فى ظل الاستبداد لا ينعم بلذة العزة والشمم والرجولة ، فلا يذوق إلا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها . . والاستبداد يقلب الأخلاق ، فيحيل النصح تطاولا ، والشهامة تجبرا ، والحمية تطرفا وطيشا ، والإنسانية حمقا ، والرحمة ضعفا والنفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفا ، والبذاءة دماثة وظرفا .

والاستبداد أفسد عقول المؤرخين ؛ فسموا الجبابرة الطغاة عظماء أجلاء . . كما أفسد أخلاق الناس ؛ فأرغمهم على ألفة الرياء والنفاق . . وأعان الأشرار على فجورهم ، وجعلهم فى مأمن حتى من الانتقاد والفضيحة . . ولأن معظم أعمالهم تظل مستورة ، لا يجرؤ الناس على قول أمامهم خوف العقاب .

ثم عرض الكواكبى لأثر الاستبداد فى تربية الأمم والأفراد . . فالحكومة العادلة تعنى بتربية الفرد منذ كونه جنينا . وذلك بسن قوانين للزواج الصالح ثم بالعناية الصحية للطفولة ، ثم بإنشاء المدارس وتسهيل الاجتماعات والاهتمام بالقدرات الجسمانية والنفسية والعقلية للأفراد . وفى ظلها يعيش الإنسان حرا نشيطا يسره النجاح ولا تحزنه الخيبة ، وفى الحكومة المستبدة يعيش طفلا خامدا ضائع القصد حائرا . . ويصير كالأسير المعذب يسلى نفسه بالسعادة الأخروية ، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة ، وقد جنى على المسلمين علماؤهم فأفهموهم أن الدنيا سجن المؤمن ، وأن المؤمن مصاب ، وإذا أحب الله عبدا ابتلاه ، وهكذا مما ابتدعوه ويتغافلون عن الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » ، وحديث « إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم غرسة فليغرسها » وكان من أثر هذه المثبطات أن حولت الأذهان من معرفة أسباب الشقاء إلى إلقائها على عاتق القضاء والقدر ، وقد أحكموا هذه المكيدة باختراع الأحاديث التى تجعل الخضوع للحاكم المستبد . . دينا ، وعلى الجملة فالتربية الصحيحة عند الكواكبى لا تتحقق فى ظل الاستبداد .

ولا يقف هذا المفكر الجليل عند حد تشريح طبائع الاستبداد ، إنما يرشدنا إلى سبيل الخلاص من هذا الداء الوبيل ، فيرى أن الاستبداد لا يقاوم بالقوة ، إنما يقاوم باللين ، وبالتدريج ، ببث الشعور بالظلم ، وهذا بالتعليم والوعى ، ذلك لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات : قوة الجند ، وقوة المال ، وقوة رجال الدين ، وقوة الأغنياء ، فإذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصد الناس ، وإنما الواجب المقاومة بالحكمة فى توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة ، والاستبداد مع اعتماده على هذه القوات كلها يضعف أمام الوسائل المحكمة فى قلبه ، كما قيل : كم من جبار عنيد صرعه مظلوم صغير . . !!

ويجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة البديل ، ومعرفة الغاية معرفة دقيقة واضحة

ومتى وضحت الغاية المرسومة يجب السعى فى إقناع الناس بها واستجلاب رضاهم عنها وحملهم على النداء بها ، ويجب أن ينشر ذلك فى كل الطبقات حتى يصبح عقيدة فيتلهفوا جميعا على نيل الحرية وتحقيق المثل الذى ينشدونه . . عندئذ لا يسع المستبد إلا الإجابة طوعا أو كرها .

هذا مجمل لأفكار الكواكبى حاول أن يوقظ بها قلوبا غلفا . . وأسماعا صما . . وليس من شك فى أنها آتت ثمارها فأزالت أصناما وأطاحت بطواغيت . . ورسخت معانى الحرية والكرامة فى نفوس أبناء الشرق .

يابهيـة وخـبرينـى .. !

انتشرت فى أرجـاء مصر ، فى بداية هذا القرن ، أسطـورة (ياسين وبهية) وشاعت على ألسنة الجماهير أغنية : يابهية وخبرينى . . عاللى قتل ياسين . . ! حتى باتت جزءا من التراث الشعبى كسيرة أبى زيد الهلالى وأدهم الشرقاوى وحسن ونعيمة . . يتغنى بها شاعر الربابة فى المقاهى الشعبية ، وفى حلقات السمر التى يقيمها الفلاحون فى جرن القرية خلال أمسيات الصيف الندية ، وتتملكهم النشوة وهم يتابعون بطولات ياسين وأعماله الخـارقة من أجل مقاومة الظلم ونصرة البؤساء ثم يخيم عليهم الحزن حين يفجعون بمصرعه على أيدى « السودانية من فوق ظهر الهجين » .

وظلت أسطورة ياسين وبهية مجالا خصبا لخيال المؤلفين عبر الأجيال . . كل جيل يضيف إليها ما يوافق ظروفه السياسية والاجتماعية ، ويحقق حلم الشعب فى ظهور البطل حتى لو كانت القصة الأصلية خالية من كل عناصر البطولة والشرف . . وقد يدهش أصدقاء ياسين ، إذا عرفوا أن بطلهم الأسطورى لم يكن سوى مجرم سفاح يحترف مهنة القتل بالأجر ، ويتعيش من دماء الضحايا والأبرياء . . وسوف تزداد دهشتهم ، إذا عرفوا أن قاتل ياسين هو المجاهد الإسلامى المعروف اللواء محمد صالح حرب باشا وزير الحربية ورئيس جمعية الشبان المسلمين ، يرحمه الله .

وقبل الحديث عن القتيل . . نتحدث عن القاتل .

ولد اللواء محمد صالح حرب ، فى إحدى قرى (دراو) بمديرية أسوان ، من أب كان يعمل مديرا للجبخانة (مخزن السلاح) فى أسوان ، وينحدر من أصل سودانى من دنقلة . ودخل الصبى المدرسة الابتدائية فى أسوان . وكان زميله فى الفصل الكاتب العملاق عباس محمود العقاد . . وبعد حصولهما على الشهادة الإبتدائية عام

١٩٠٣ ، انطلق العقاد ، نحو العاصمة ، باحثا عن المجد فى عالم الأدب والصحافة . أما صالح حرب فقد آثر الجيش ليحقق أمنيته فى أن يكون قائدا مرموقا فالتحق بمدرسة خفر السواحل . وبعد تخرجه فيها اشتغل فى الصحراء الغربية وذاق الأمرين من صلف الضباط الإنجليز الذين كانت لهم السيادة الكلية على الجيش ، مما غرس فى نفس الضابط الشاب بذور الكراهية للاستعمار ، خصوصا بعد قيام الحرب العالمية الأولى . . وفى عام ١٩١٥ ظهرت الحركة السنوسية فى ليبيا بقيادة أحمد الشريف السنوسى لمقاومة الاحتلال الإيطالى ، ففر صالح حرب إلى بنى غازى واندمج فى الثورة السنوسية ، حتى أصبح قائدًا لجيوشها فحكمت عليه السلطات البريطانية فى مصر بالإعدام . . وكانت الخلافة العثمانية فى ذلك الوقت تعانى سكرة الاحتضار فى مواجهة قوات الحلفاء ، وأصبحت فى حاجة إلى مساندة الحركات الإسلامية الفتية ، فبعث الخليفة وحيد الدين غواصة تركية حملت الشريف السنوسى وصالح حرب وأعوانهما إلى إستانبول . . ولكن الأحداث تلاحقت بسرعة رهيبة فانهارت المقاومة العثمانية ودخلت جيوش الحلفاء عاصمة الخلافة ، ففر السنوسى وصالح حرب إلى الأناضول ، وعملا مع قوات كمال أتاتورك فى مقاومة الاحتلال البريطانى ، وظل صالح حرب ـ وكان له من اسمه نصيب كبير ـ يحارب فى صفوف الثورة الكمالية حتى تم لها النصر على الحلفاء وأطاحت بالخلافة المزيلة . . وفى تلك الأثناء كانت ثورة مصر ١٩١٩ قد آتت ثمارها ، وشكل سعد زغلول أول وزارة وطنية، وكان من أوائل أعماله إصدار مرسوم بالعفو عن السياسيين المسجونين والمنفيين ، فعاد صالح حرب إلى وطنه ، وانضم إلى صفوف الوفد ورشحه سعد زغلول فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٦ فى مسقط رأسه أسوان ، فنجح واستطاع أن يحصل لأبناء دائرته على مرسوم بمجانية التعليم . . وبعد حل المجلس عين وكيلا لمصلحة السجون ، ثم مديرا لخفر السواحل ، ثم وزيرا للحربية فى حكومة على ماهر التى تشكلت عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية . . ثم اختتم حياته العامة رئيسا لجمعية الشبان المسلمين ، التى تحولت فى عهده إلى بؤرة للإشعاع الدينى والثقافى ، حتى لقى وجه ربه فى عام ١٩٦٨ فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد ضد الاستعمار والكفاح من أجل رفعة الإسلام .

أما عن قصة الرجل مع ياسين ، فقد تضمنتها مذكراته التى نشرها الدكتور محمود

دياب فى كتابه (أبطال الكفاح الإسلامى المعاصر) وقد وقعت أحداثها حين كان صالح حرب فى بداية حياته العملية بالجيش ، وذهب إلى وادى حلفا ضمن بعثة عسكرية لشراء سرب من الجمال للخدمة فى سلاح الهجانة . وفى أثناء عودة الضابط الشاب على رأس قطيع الجمال تسامع عن قصة ياسين . . أعنف شقى وأجرأ مجرم مشى على أرض مصر فى زمنه؛ فقد اتخذ القتل حرفة، وإزهاق الأرواح تسلية . . وكان يطرب كل الطرب عندما يسمع اسمه يردده الناس فى خوف وفزع وهلع ويتمنى أن يكون مثل أبى زيد الهلالى . وامتد نشاطه الإجرامى على طول مديريتى قنا وأسوان . . وفشلت جميع الحملات التى أوفدتها الحكومة للقبض على ياسين حيا أو ميتا .

وبينما كان الضابط الشاب صالح حرب ، يستريح مع قطيعه من الجمال فى بعض الأودية المتاخمة لجبال أسوان ، أبلغه أحد أتباعه أنه رأى بدويا نائما على بطنه عند إحدى المغارات وفى يده بندقية ، فلما ذهب يستطلع الخبر فوجئ بوابل من الرصاص ينهمر من ناحية المغارة ، فأدرك على الفور أن القدر وضعه وجها لوجه أمام ياسين ، وأنه لن يخرج من المنطقة كما دخلها . . فإما قاتلا وإما قتيلا . . وخطرت للضابط الشاب فكرة جريئة . . فاستدار نحو قمة التل الذى يعلو فتحة المغارة وأسقط حبلا تتدلى منه حزمة من البوص المشتعل ، وحملت الريح الدخان إلى فوهة المغارة وشعر ياسين بالاختناق ، فاضطر إلى الخروج منها ، ودارت معركة حامية الوطيس . . « وكان سلاح الهجانة فى ذلك الوقت سلاحا بارعا فى التنشين الماهر وإصابة الهدف . فإذا أربع رصاصات فى المليان . . ورأينا الشقى يلقى بسلاحه فجرينا نحوه ، فإذا به قد انتهى بعد أن استقرت إحدى الرصاصات فى قلبه . . ودخلنا المغارة المظلمة على أعواد الثقاب . . ففوجئنا بامرأة تصرخ ومعها طفل يولول . . فأخرجناهما ، واتضح أن المرأة المسكينة زوجة الشقى ، والولد ابنه ، فلما علمت الزوجة بمقتل ياسين اندفعت تزغرد وتقول فى حماس : بركة لى . . بركة لى . . وحسبت أنها تتصنع الفرح خوفا منا . . ولكنى علمت أنها جادة لأنها كانت تعيش معه فى خوف وبلاء . . » .

وانتهت حياة ياسين . . السفاح المحترف . . وبقيت أسطورته فى وجدان الجماهير التى تبحث دائما عن بطل يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، فإذا لم تجده فى الحقيقة . . صنعته فى الخيال .

أولاد تيمـــور

عجيب أمر العائلة التيمورية . . ! لم يكن يجرى فى عروق أبنائها قطرة دماء مصرية . ومع ذلك أحبوا مصر حبا صادقا ، وارتبطوا بشعبها ارتباطها وثيقا . خالطوا أولاد الحوارى فى حى الأزهر ، وعايشوا الفلاحين فى عين شمس . وتشربوا الروح المصرية الخالصة ، ثم عبروا عنها بأرقى وسائل التعبير : الفن والأدب . ولا عجب أن تصدر أول صيحة لإبداع أدب مصرى صميم فى مطلع القرن من الأخوين : محمد ومحمود تيمور .

بم نفسر هذه الظاهرة : توهج العاطفة الوطنية عند بعض الأتراك المتمصرين . شريف باشا والبارودى وشوقى وقاسم أمين وأولاد تيمور ؟ أديبنا الكبير يحيى حقى يفسرها بأن العرق الحديث أشد العروق اهتزازًا بحب الوطن الجديد وانتباها لفضله وجماله . . فليست العبرة فى أن يولد الكاتب فى أحضان الطبقات الشعبية ، بل فى قدرته على الإحساس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى .

وهذا على أى حال تفسير مقبول . وتشهد على صحته حوادث التاريخ . وينطبق على الأستاذ يحيى حقى نفسه صاحب قنديل أم هاشم ، والبوسطجى وخليها على الله . وغيرها من الأعمال الأدبية ذات النكهة الشعبية .

* * *

أما رأس الأسرة التيمورية ـ محمد تيمور كاشف ـ فقد هبط مصر ضمن الحملة العثمانية ، التى جاءت لتهدئة الأحوال بعد خروج الحملة الفرنسية . وكان بين أفرادها محمد على . وكان تيمور أحد الأعمدة التى ساندت محمد على فى تأسيس ملكه ، وتولى بعض الوظائف الإدارية الكبرى ، وبنى لنفسه قصرًا منيفا فى درب

سعادة . وأنجب ولدا وحيدا اسمه إسماعيل ، لم يسلك نهج أبيه فى حقل الإدارة العليا . فقد شغله العلم عن وهج السلطة ، وجعل من قصره مجمعا للعلماء والأدباء والفقهاء . وفى هذا المناخ الأدبى تفتحت مدارك ابنته عائشة ، فأصبحت شاعرة مرموقة . وابنه أحمد باشا تيمور ، الذى لم يعرف تاريخ مصر الحديث نظيرا له فى حب العلم ، وعشق البحث ، واقتناء المخطوطات النادرة ، وتحقيقها ، حتى بلغ مجموع نفائسه ٧١٣٤ مجلدا ، بين مطبوع ومخطوط أهداها كلها إلى دار الكتب . . كما خلف للأدب والفن ولديه الأديبين الكبيرين محمد ومحمود .

فى هذا القصر الذى يشبه دار الحكمة فى عصر المأمون ، تنفس الصبيان عبيرا ثقافيا معتقا . . وجالسا زمرة عجيبة من البشر الذين لا يمتون بصلة إلى الطبقة الأرستقراطية التى ينتمى إليها صاحب البيت ، وإنما هم خليط من رجال العلم والفقه والأدب . ومعظمهم من الفقراء وكلهم من طبقة الشعب . فلم تكن مجالس أحمد تيمور باشا ـ فيما يسجل الناقد الكبير عباس خضر ـ تضم أبناء الذوات ، بل كان روادها ممن تجمعهم بصاحب البيت الصلات الفكرية المشتركة . ومن هذا العالم السحرى الأصيل ، انطلق الصبى محمد تيمور لايلوى على شىء . ولا على أحد من طبقته الأرستقراطية ، فينزل من قصره يبحث عن الأدباء والفنانين ويذهب محمد تيمور إلى باريس لينهل من علمها وثقافتها كعادة أبناء الذوات فى ذلك العصر. ولكن مصر لا تفارق خياله . فلا يكف عن المقارنة بين حال مصر وحال باريس . ثم يعود من هناك وقد تشبعت نفسه بمشاعر التمرد على القديم والرغبة فى التجديد . ويقود نهضة أدبية قوامها إبراز الشخصية المصرية المستقلة عن الشرق والغرب . . وإيجاد فن شعبى صادق الإحساس وهو يعبر عن أفكاره عن طريق المقالة الصحفية والمسرحية الاجتماعية ، بل يقف على خشبة الأوبرا يمثل فيراه السلطان حسين فيعجب بشجاعته وتمرده ، ويأمر بتعيينه أمينا فى القصر . وهى وظيفة يتمناها أبناء الذوات . ولكن فتانا يضيق بها ويراها قفصا من ذهب . فما أن يموت السلطان حتى يستقيل تيمور ويتحرر من رق الوظيفة ، ويعود إلى عمله الرحب المنطلق . ويتسلطن فؤاد ، وقد أتى به الإنجليز من الكباريه إلى العرش فيستقبله تيمور وسيد درويش بمسرحية « العشرة الطيبة » التى يسخر فيها تيمور من

فساد الحكم ، ويوجه إلى السلطان رسالة على لسان الأغوات يقول فيها : عشان مانعلى ونعلى . . لازم نطاطى نطـاطى . . نطاطى . . ويفهم فؤاد الإشارة فيوعز بوقف المسرحية . . ولا يمضى تيمور فى مشوار التمرد . . فقد اختطفه الموت وهو فى شرخ الشباب . . وودع الحياة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره . .

العفـريت .. !

فى اليوم الأول من أغسطس ١٨٩٦ ، خلت بيوت القاهرة من سكانها . وهرع الناس ـ رجالا ونساء وأطفالا إلى الشوارع . واحتشدوا على طول الطريق الممتد من بولاق إلى القلعة عبر ميدان العتبة الخضراء ، ليشهدوا مخلوقا غريبا يزحف على قضبان ملساء . والأولاد من خلفه يركضون ويتصايحون العفريت . . العفريت !!

ولم يكن ذلك العفريت ، سوى أول عربة ترام تشق شوارع القاهرة ، فى أول رحلة تجريبية ، لهذا الكائن الحضارى الذى سيغير وجه المجتمع القاهرى تغييرا شاملا . . وفى العربة كان يجلس ناظر (وزير) الأشغال حسين فخرى باشا ، ومعه كبار موظفيه . وقد تملكهم الزهو والخيلاء . وكانت المركبة ـ كما وصفها مندوب «المقطم» : « تسرع حتى تسابق الرياح متى خلت لها الطريق ، وتارة تسير رويدا رويدا ، أو تقف بغتة عند أعتراض الأولاد والسابلة طريقها . وقد وقف سائقها ووضع يده على ميزان تسييرها وإيقافها ، ويصل بينها وبين السلك فوقها عمود من الحديد لإتمام الدورة الكهربائية .

وبعد أيام من تلك المرحلة التجريبية المثيرة ، احتفلت الشركة البلجيكية رسميا بتسيير الترام على الخطوط الثمانية ، التى كانت تتجمع فى ميدان « العتبة » وتمتد إلى أطراف القاهرة . ووصفت الصحف هذا الحادث الفريد بقولها : شهد أهل العاصمة أمس مشهدًا قلما شهد مثله أهالى المشرق ، ولم يخطر على قلب بشر منذ مائة عام وهو أن تجرى مركبات كبيرة تقل المئات من الناس ، لا بقوة الخيل ولا بقوة البخار بل بقوة الطبيعة التى تسبب البروق . هذا هو الترامواى الكهربائى .

وفى الكتاب البديع الذى وضعه محمد سيد كيلانى عن « ترام القاهرة » معلومات

طريفة عن عملية تنظيم ركوب الترام . « فقد كان يحظر ركوبه على كل محدث غوغاء أو سكران . أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس ، ولا يجوز تسلق العواميد المعدة للحركة الكهربائية ، أو تعليق شيء عليها أو إقامة إشارات كاذبة .

ونستخلص من دراسة محمد سيد كيلانى أن تسيير الترام كان حدا فاصلا فى تاريخ المجتمع القاهرى . انتقل فيه من طور البداوة والتأخر ، الذى يتمثل فى استخدام الحمير والبغال . إلى طور الحضارة والمدنية الذى يتمثل فى استخدام القوة الكهربية ، وكان سواد الشعب فى القاهرة يعانى مشقات هائلة فى الانتقال من جراء استبداد أصحاب الحمير والعربات وتحكمهم فى الناس ، وما يوجهونه إلى الجمهور من ألفاظ نابية ، فلما أنشئ الترام ، حدثت ثورة هائلة فى جميع نواحى الحياة القاهرية فتلاشت العزلة بين أحياء المدينة . وسهلت عملية الانتقال وطاب السهر ، وأصبح فى متناول الشبان قضاء الليل فى الملاهى والمراقص ، وبدأت الروابط العائلية فى التفكك ، وضعفت رقابة الآباء على الأبناء . كما ساعد وجود الترام على اتساع حركة العمران ، ونشطت الحركة التجارية ، ونشأت المحلات الكبرى فى منطقة العتبة . ولما سهل على الناس الانتقال ، عظم امتزاجهم واشتد اختلاطهم ، وبدأ الرأى العام يتبلور ويصبح خطرا على الجهات الحاكمة . وكثرت الأندية الثقافية والرياضية والصحف والمجلات . . . وكان من الطبيعى أن ينعكس هذا كله على الأدب . . فظهر « الأدب الترامى . . » الذى يسجل معالم الحياة الجديدة بما فيها من خير وشر وخلاعة ومجون . وتقدم وتأخر . . وخصوصا بعد أن أصبح الترام سببا فى وقوع حوادث لم يألفها جمهور القاهرة من قبل . . وفى ذلك يقول شاعر خفيف الظل اسمه إلياس حنيكاتى .

إن الترامواى على القاهرة مصيبة ياقومنا قاهرة
فكم قلوب هالها رهبة وكم نفوس غالها طاهرة
يجرى وعزرائيل من خلفه يمد للقبض يدا غادرة
فيارجال الضبط ما ضبطكم وأين الأعين الساهرة

وبمرور السنين ، يضحى الترام وسيلة متخلفة بالقياس إلى وسائل النقل الأكثر حداثة وسرعة ، وانطبقت عليه سنة الحياة التى لا ترحم العاجزين عن مواكبة إيقاع

العصر . . فكاد يختفى من شوارع العاصمة ، ترى . . ماذا سيقول سكان القاهرة بعد عامين عندما يشاهدون مركبات المترو وهى تشق بطن الأرض ؟؟ وهل سيصيحون كما صاح أسلافهم : العفريت . . العفريت ؟؟ أغلب الظن أنهم لن يفعلوا . . لأن كلمة عفريت نفسها قد اختفت من قاموس الألفاظ الدارجة عند أطفالنا .

تحــرير المــرأة المصــرية

كان صدور كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين بمثابة إلقاء حجر فى بركة راكدة فتحركت مياهها الآسنة واهتزت أمواجها ، وتطاير رذاذها لينال من سمعة الرجل وكرامته ، حتى أن الخديو عباس الثانى أمر بوضع اسمه على قائمة الممنوعين من دخول قصر عابدين ، بالرغم من مركزه القضائى الرفيع . . وبعدها انهال الطاعنون يسلقون الرجل بألسنة حداد . . ويرمونه بأبشع التهم التى بلغت حد الإلحاد والمروق من الدين .

انظر إلى هذه الصورة الوصفية التى يسجلها الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته عن الزوبعة التى صاحبت ظهور الكتاب : فى سنة ١٩٠١ وقع حادث لفت أنظار الناس جميعا ، وأثار ضجة كبرى ، ذلك أن قاسم بك أمين المستشار بمحكمة الاستئناف ، نشر كتابا عنوانه « تحرير المرأة » طلب فيه تعليم المرأة ورفع الحجاب عنها ، وكان تعليم المرأة يومئذ أمرا إدا ، لا يقوم عليه رجل حريص على احترام الجمهور المصرى له ، أما رفع الحجاب وخروج المرأة سافرة إلى المجتمعات ، فكان القول بهما أدنى الأشياء إلى تحليل ما حرم الله إن لم يكن الشرك بالله (!!) فقد كانت المرأة يومئذ محكومًا عليها بألا تتعلم وألا تخرج من بيتها إلا لضرورة ملحة ، وإلا محجوبة الوجه . . والمرأة المصرية التى كان يجرى عليها هذا الحكم لم تكن المرأة الفلاحة المضطرة بحكم الحياة إلى مشاركة زوجها فى عمله ، بل المرأة التى يستطيع زوجها أو أهلها أن يعفوها من مشقة الخروج من البيت . فكان ظهور هذا الكتاب حادثا ـ بل حادثا خطيرًا ـ اضطربت له آراء الهيئات الدينية واضطرب له كثير من المتعلمين أنفسهم .

وإذا كان قاسم أمين قد دخل تاريخ مصر الاجتماعى ، على أنه محرر المرأة ، حتى

أطلق اسمه على كثير من مدارس البنات ، إلا أن الدراسات الحديثة تكشف عن أن قاسم أمين لم يكن أول الرواد الذين ارتادوا هذا الحقل الملىء بالألغام . . وإنما سبقته جهود حثيثة قام بها آباء الاستنارة الفكرية الذين وضعوا اللبنات الأولى فى صرح المجتمع المصرى الحديث وهو يعانى آلام المخاض . . ويشق طريقه بصعوبة من خبايا العصر التركى إلى مشارف العصور الحديثة . وكان على رأس هؤلاء جميعا ، أبو الرواد رفاعة رافع الطهطاوى ، الذى حمل راية التنوير فى شجاعة وثبات ، ودعا إلى تعليم المرأة وإتاحة الفرصة أمامها لتعمل إلى جانب الرجل ، ورأى فى تعليمها وعملها تكريما لها ورفعا لمكانتها .

يقول الدكتور محمد كمال يحيى فى كتابه (الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث) : إن قضية تعليم المرأة لم يكن مقيضا لها النجاح ، لو لم يتصد لها المفكرون والكتاب من عامة المصريين ومثقفيهم بالتحليل والإقناع ، ويأتى على رأس هؤلاء رفاعة الطهطاوى الذى طالب فى كتابه (تخليص الإبريز) بتعليم المرأة قائلاً : لقد اقتضت التجربة فى كثير من البلدان أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره . . بل لا ضرر فيه أصلا . . ودخول البنات والغلمان للمدارس واجب قانونا فى جرمانيا – بل إن أوربا كلها تعلم البنات والبنين على قدم المساواة ، وإن لم يكن ذلك بقانون – وهذا هو السر فى أن بلادهم الآن هى أقوى البلدن .

ولم تكن دعوة الطهطاوى إلى عمل المرأة صادرة عن رؤية خيالية أو شطحة فكرية ، بل عن إيمان عميق بهذه القضية ، خاصة عندما أكد فى كتاب له بعنوان (المرشد الأمين للبنات والبنين) وخصص فيه فصلا كاملا عن « تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان » . وإذا كانت دعوة الطهطاوى إلى تعليم المرأة قد لقيت استجابة محدودة من جانب مؤسس مصر الحديثة ، وإذا كانت مصر قد شهدت فى عهد محمد على أول نواة لتعليم البنات . فإن أفكار الطهطاوى وجدت صداها العميق عند إسماعيل ، ذلك العاهل المستنير الذى قاد النهضة الثقافية والعلمية بلا منازع ، وفى عهده انتشرت مدارس تعليم البنات بمعاونة رشيدة من رائد آخر هو على باشا مبارك الذى كان يرى أن من حق الفتاة أن تتبحر فى العلم إلى غايته . وكان يرى أن الحياة بين الزوجين شركة يتعاونان فيها على العيش بالعمل والكسب ، فقرر بهذا حقها فى التعليم ، ثم فى العمل الذى تقدر عليه . وحين يتعرض

على مبارك لقضية الحجاب والسفور ينتهى فيها إلى أن القدوة الصالحة والنصح الرشيد هما منبع الخير وأصل الفضيلة ، وكان فى نفس الوقت يميل إلى سفورها وإن لم يصرح بذلك ، وترك لغيره بعده أن يجهر به ، فلم يمض ربع قرن حتى قام قاسم أمين يدعو إلى « تحرير المرأة من وقر الحجاب وقيوده التى تعزل المرأة عن الحياة العامة، وتحول بينها وبين أن تكون عونا لزوجها وشريكا له فى مواجهة الحياة .

ويقدم لنا الدكتور كمال يحيى رائدًا ثالثًا من رواد تحرير المرأة فى القرن التاسع عشر، هو عبد الله النديم ، مما يدل على أن قضية المرأة كانت هدفا من أهداف إصلاح المجتمع فى مفهومه العام . ولم يتخلف النديم عن مفكرى عصره فى تأييد تعليم البنات . ومع أنه كان من مؤيدى سياسة الحجاب والتمسك به ، فقد أيد تعليم البنات أمور الدين وشئون الأسرة وأصول الحياة الزوجية والتدبير المنزلى وعارض تعليمهن الموسيقى والرقص واللغات الأجنبية .

إن الحديث عن موقف رائد الرواد رفاعة الطهطاوى من قضية المرأة يتطلب إلقاء الضوء على تلك الوثيقة الهامة التى تكشف بوضوح عن الارتباط العميق بين أفكار رفاعة وسلوكه الشخصى . لقد كان الرجل يكن احتراما عميقا للمرأة ويؤمن بحقها فى المساواة والعدل ، فلما تزوج بنت خاله حرر لها هذه الوثيقة الموجودة فى دار المحفوظات ونصها كما يلى :

« التزم كاتب هذه الأحرف رفاعة بدوى رافع ـ لبنت خاله المصونة ، الحاجة كريمة ، بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلى الأنصارى أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من نساء أو تمتع بجارية أخرى ـ فإن تزوج بزوجة أيا كانت ـ تكون بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة ـ وكذلك إذا تمتع بجارية ملك اليمين . ولكنه وعدها وعدا صحيحا لا ينقض ولا يحل أنها ما دامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها ولأولادها ولخدمها وجواريها ، ساكنة معه فى محل سكناه ، لا يتزوج بغيرها أصلا ، ولا يتمتع بجوار أصلا ، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدهما بقضاه » .

وهذه الوثيقة واضحة الدلالة على أن الطهطاوى لم يكن من أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون .

عبيد وجوار

كان الرقيق يشكل عنصرًا أساسيًا فى كيان البيت المصرى خلال القرن التاسع عشر ، وقلما كان بيت ارستقراطى يخلو من العبيد والجوارى الذين يتناسب عددهم مع ثراء رب البيت ، وقدرته على دفع أثمانهم والإنفاق عليهم ما داموا ملك يمينه . . فثمن الصبى أو البنت السوداء كان لا يزيد على ١٢ جنيها ، أما الرقيق الحبشى فأغلى درجة ، إذ يتراوح ثمن الصبى بين ٢٠ و ٣٠ جنيها ، وثمن الفتاة الحبشية تحت سن ١٨ يصل إلى مائة جنيه . وأما الرقيق الأبيض من الجوارى الشركسيات الجميلات فكن باهظات الثمن ، إذ يختلف ثمن الجارية بين ٢٠٠ و ٥٠٠ جنيه ويصل فى حالة جمالها الأخاذ إلى ألف جنيه ، فلا يقدر على اقتنائهن سوى غلاة الموسرين كالأمراء ومن يلوذ بهم من الشرائح العليا فى المجتمع .

وقد وجد بين المصريين من كان لديه القدرة على تملك مئات الجوارى من شتى الأصناف والألوان والأجناس ، مثل إسماعيل صديق باشا « المفتش » الصعلوك الذى رفعته الأقدار من حضيض الفاقة إلى مجتمع الملوك ، فعاش عيشة البذخ والسفه ونسى حياة الحوارى والجحور ، فلما انقلب عليه الخديو إسماعيل ، أخوه من الرضاعة ، وقتله غيلة ، وجدوا بين تركته الأسطورية سبعمائة جارية « . . ما بين حورية شركسية بيضاء ذات ثمن يفوق كل تقدير ، وخمرية مسكرة ، وسمراء غانجة، وحبشية شعرية ذات عين بقرية ، وبرونزية موشومة ذات نهود سفرجلية وسودانية فحماء « متقدة الدم » على حد وصف المؤرخ إلياس الأيوبى ، وقد أشرف الخديو إسماعيل بنفسه على توزيع هذا القطيع الأنثوى ، فاختار أجملهن خلقا وأخفهن دما ، وأمهرهن صناعة وألحقهن بالحريم الخاص بالخديو ، وأهدى بعضهن

إلى أصفيائه من كبار ضباط الجيش وكبار رجال الدولة ، « إما لكى تقع نقطة من دم صديق على كل منهم ، وإما ـ وهو الأقرب إلى المعقول فى رأى الأيوبى ـ لكيلا يفوت البغاث شىء من فضلات النسر » . أما الباقيات ، فقد عرضن للبيع فى سوق النخاسة ليشتريهن من يريد أن يقتنى أثرًا من آثار فرعون الصغير . أما الخديو نفسه فكانت قصوره تحوى حوالى ألفين من الجوارى الحسان .

وكان لتجارة الرقيق تنظيم محلى فى مصر ، على ما يذكر الدكتور محمد كمال يحيى . . وكان معظم هؤلاء التجار من أبناء مصر العليا أو السودانيين المقيمين فى مصر ، وفى القاهرة بصفة خاصة . . كما كان هناك بدو وقرويون من مديرية البحيرة ومغاربة اشتغلوا بهذه التجارة . . وفى بعض الأحيان اجتذبت هذه التجارة بعض النساء فاحترفنها ـ وكان تجار الرقيق الأسود يختلفون عن مستوى زملائهم تجار الرقيق الأبيض ، فالأولون كانوا ينتمون إلى مجموعة من طوائف الحرب ذات الوضع الاجتماعى المنخفض ، بينما كان المشتغلون بتجارة البيض من تجار خان الخليلى .

وكان جلب الرقيق الأسود ، يجرى عن طريق القنص والخطف بواسطة عصابات تقوم بهذا العمل الإجرامى فى حملات شبه عسكرية ، ثم تبيع إيرادها إلى شركات تجارية تتولى حمل الرقيق عن طريق النيل فى مراكب ترفع رايات دول أجنبية لكى تحتمى بامتيازاتها ، أو عن طريق الصحراء إلى أسيوط ، ومنها إلى القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى . . أما جلب الجوارى البيض ، فكان فى معظمه يتم بالتراضى ، عن طريق الشراء من الآباء الذين يعرضون أولادهم وبناتهم للبيع تخلصا من نفقاتهم ، وعلى أمل أن تتاح لهم فرص الحياة الرغدة فى قصور السلاطين والأمراء ، فلربما بلغ أحدهم مركزًا مرموقا فى وظائف الدولة ، ولربما أصبحت إحداهن السيدة الأولى فى قصر سيدها إذا نجحت فى الاستئثار بقلبه وأضحت محظيته المفضلة ، أو زوجته إذا أنجبت فاعتقت .

وكان هنا صنف ثالث من الرقيق ، لا هو من العبيد ولا من الجوارى . . أولئك هم (الخصيان) الذين كان الأمراء يعهدون إليهم بخدمة « الحريم » دون خوف على أعراضهن بعد أن أزيلت من أجسام الصبية أعضاء التناسل . وكانت عملية الخصى البشعة تجرى داخل بعض الأديرة فى صعيد أسيوط . يقوم بها الرهبان المتمرسون

مقابل أجر كبير يتناسب مع خطورة هذه العملية التى كانت تنتهى غالبا بوفاة الصبى ، فمن نجا منهم من الموت سيق إلى سوق النخاسة ليباع بسعر يفوق سعر غيره من أصناف الرقيق .

أما الجارية البيضاء فكانت تخضع داخل بيت النخاس لبرنامج طويل المدى تلقن أثناءه مبادئ الدين والقراءة والحساب . ثم تتعلم شئون التدبير المنزلى كالطهى والحياكة وأصول التعامل مع السادة ، فإذا كانت تتمتع بموهبة خاصة كالصوت الجميل جاءوا لها بمعلمين متخصصين يدربونها على الغناء والعزف على العود ، وكل إضافة إلى قدراتها ترفع من سعرها ، فإذا انتهت مرحلة التدريب والإعداد يبدأ عرضها على سماسرة يبحثون عن هذا النوع المتميز لتحتل مكانها فى قصور العلية الموسرين .

أما بقية الجوارى اللاتى لا يتمتعن بمواهب خاصة ، فكان يعهد إليهن بالأعمال التـافهة وفق تقاليد العصر ، فواحدة وظيفتها « قهوجى كالفـه » لتقديم القهوة وأخرى لحمل الملابس على اليد ، وثالثة لتقديم الشراب ، ورابعة وظيفتها « سفرجى كالفه » أى إعداد المائدة للطعام ، وهناك « شمورجى كالفه » ووظيفتها تحضير الملابس للسيد .

وكان اقتناء الرقيق فى البيت المصرى ، من مظاهر الأبهة والفخفخة والرغبة السقيمة فى تقاليد الأرستقراطية التركية . . فتحول البيت المصرى إلى مسخ من الحريم التركى يموج بألوان من الجوارى والعبيد والخصيان لمجرد التشبه بالسادة الترك دون أن تكون هناك حاجة عملية لحشد هذا الكرنفال المتعدد الألوان ، إذ كان رب البيت لا يعرف فى الغالب أسماء جواريه ولا يعيرهن التفاتا ، خاصة إذا كانت سيدة البيت من الحرائر ، فلا تسمح لزوجها بأن يلعب بذيله مع هذه الفراشات الجميلة . ولذلك كانت الزوجة تتفانى فى إرضاء زوجها وتقوم على خدمته بنفسها دون جواريها حتى لا تسمح لواحدة منهن بإغرائه والاستحواذ على قلبه .

فلما أوشك القرن التاسع عشر على الغروب ، كانت الدعوة إلى عتق الرقيق قد أصبحت مطلبا إنسانيا تردد فى كل أنحاء العالم الذى كان يعترف بالرق ووصل صداه إلى مصر . . واستجابت الدولة لدواعى العصر فأصدرت التشريعات التى تحرم جلب الرقيق . . وقامت الحملات لمطاردة النخاسين ، وأنشأ الخديو إسماعيل

مدرسة خاصة لتعليم عدد من الفتيات الريفيات الفقيرات شئون الخدمة المنزلية ليكن بديلات عن الجوارى المرغوب فى عتقهن ، وبدأ المجتمع المصرى يجد فى التخلص من الرقيق . . ولكن المشكلة التى لم يفكر فيها أحد هى : أين تذهب الجوارى بعد عتقهن ، وليس لهن جذور فى المجتمع ولا يعرفن لهن آباء ولا أمهات ولا إخوة ؟؟ وكانت النتيجة المؤسفة هى اضطرار معظم الجوارى إلى احتراف البغاء !!

نفس المأزق الذى وقع فيه سبارتاكوس قبل ١٧ قرنا عندما قاد ثورة تحرير العبيد دون أن يفكر فى مصيرهم بعد التحرير !! فعادوا إلى الرق مرغمين . . !!

غرام الشيوخ

أصبح من الواجب أن نتحدث عن الشيخ على يوسف ، وقد انتقل الوفد ـ حزبًا وجريدة ـ إلى المقر الجديد الذى يقع فى شارع يحمل اسم هذا العلم الذى خفق فى سماء مصر فى مطلع القرن ، فكان ملء الأسماع والأبصار . والبطل المغوار فى حقل السياسة والأدب والصحافة ، والنجم الساطع فى دنيا العشق والغرام . . واكتسب من كل أولئك مجدًا رفعه إلى مصاف العلية المرموقين . . وحقق ما كان يصبو إليه من جاه وثراء ونفوذ . . ثم إذا به ـ فجأة ـ يبدد كل هذا المجد ، ويعتزل الأضواء والشهرة والصخب ، ويسعى إلى وظيفة شيخ طريقة صوفية !! فكان مثله كمثل الرابح الذى خسر كل شيء وهو لم يزل فى حلبة الصراع ، فيلقى سلاحه وهو فى أوج انتصاره ويدير ظهره إلى خصومه قبل أن ينقشع غبار المعارك ، ثم يتركهم وهم فى ذهول من أمره ليأوى إلى ركن ظليل فى تكية صوفية متعلقا بأهداب الانتساب إلى بيت من بيوت السادة الأشراف . . عساه يجد فى الشرف المصطنع ما يرضى كبرياءه الجريح ويعالج العقدة التى دمرت سعادته ونغصت حياته ـ عقدة النسب الوضيع ـ وحرمته لذة الاستمتاع بثمار النصر التى اجتناها بأظافره فى مجتمع كان يقيم اعتبارًا كبيرًا لعوامل الحسب والنسب .

* * *

جاء على يوسف من أعماق الصعيد شابا يافعا إلى رحاب الأزهر مثل ملايين من أبناء الفقراء سبقوه على الدرب بحثا عن أثاره من علم تؤهلهم لشغل وظيفة متواضعة العائد . . ولكن شيخنا الشاب كان يحمل بين جنبيه روحا وثابة ، وهمة عالية وإرادة حديدية وعنادًا فطريًا ضد عناصر المقاومة التى تحول بينه وبين ما يريد . .

كانت نفسه تجيش برغبة عارمة فى أن يكون شيئًا مذكورًا . . فكان عليه أن يقتحم العالم الفوقى الذى يمسك فى يده زمام السلطة والنفوذ والجاه والثراء . . ولم يكن شيخنا يملك المفاتيح التى تمكنه من دخول ذاك العالم الصاخب ، ولكنه كان يملك من القدرات الذاتية والملكات العقلية والخلقية ما يعوضه عن عراقة النسب وفخامة الحسب . . وكان عليه أن يوظف هذه القدرات ليصل إلى مبتغاة . . فكان ذئبا بين الذئاب يناطح أضرابه المتكالبين على مائدة السلطان وكل يحاول الزلفى إلى صاحب العرش . . وكان عليه أن يكون ثعلبا شديد الدهاء . يراوغ ويناور حتى يفوز بقلب الأمير . . وكان ما أراد ، فإذا به بين عشية وضحاها جليس الخديو ونديمه ومكمن سره ولسانه الناطق . . وأصبحت صحيفته (المؤيد) ، كبرى صحف الشرق فى أخريات القرن الماضى ، هى صوت السلطة الشرعية فى مقابل (المقطم) صوت السلطة الفعلية والناطقة باسم الاحتلال ، وفى مواجهة (اللواء) صوت الشعب النابض بالحرارة الوطنية .

وتنشأ بين الصحف الثلاث أو قل بين السلطات الثلاث معارك طاحنة يخوضها الشيخ شاهرًا قلمه الفتاك فى وجه خصوم الخديو غير عابئ بسخط الجماهير عليه وعلى سيده . . وكان يردد : والله ما يعنينى أن يكون الناس جميعا فى صف واحد وأنا والحق الذى أعتقده بإزائهم فى صف واحد .

* * *

وتشهد الحياة السياسية المصرية فى مطلع القرن طفرة انتقالية تتمخض عن ظهور الأحزاب السياسية لأول مرة فى تاريخ البلاد . . ولم يكن من الغريب ، أن تولد هذه الأحزاب فى حجر الصحافة ، التى كان لها دور الريادة فى إيقاظ الحس الوطنى وتحريك الجماهير ، بعد فترة الركود التى رانت على مصر ، منذ ابتليت بالاحتلال البريطانى . . ففى أحضان (اللواء) ولد الحزب الوطنى بين يدى زعيمه الشاب مصطفى كامل ، وهو يومئذ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة . . وفى أحضان (الجريدة) ولد حزب الأمة ليعبر عن مصالح أثرياء مصر فى مواجهة فلول التركية البائدة والعائدة فى شخص عباس الثانى . . وينهض الفيلسوف أحمد لطفى السيد ليتكلم باسم (أصحاب المصالح الحقيقية) وينشر بذور الفكر الليبرالى على

صفحات الجريدة ، ومن حوله الجناح المثقف فى معسكر الأرستقراطية المصرية الناشئة .

ولم يكن للخديو الشاب أن يقف متفرجا فى الساحة التى تفور بالأفكار والمصالح المتضاربة ، كان عليه أن ينشئ حزبا يتحدث باسمه ويدافع عن مبادئه التى تقف عند الحد الفاصل بين وطنية مصطفى كامل الجامحة . وعقلانية أحمد لطفى السيد المتهادنة مع الاحتلال . . وكان على الشيخ على يوسف أن يلبى رغبة الأمير ويصنع له حزبا . . أسماه حزب (الإصلاح على المبادئ الدستورية) . وكأى حزب يولد فى حجر السلطة ، فيكتب شهادة وفاته مع شهادة ميلاده . كان مصير هذا الحزب الأميرى ، فكان معدوم التأثير والفعالية فى الشارع المصرى . . بينما ظل صوت (المؤيد) أقوى تأثيرا وأكثر فعالية حتى خلع البعض على صاحبه لقب (أعظم صحفى فى العالم) ، ووصفوا صحيفته بأنها (تايمز الشرق) ومع ذلك لم تشبع هذه الأمجاد طموحات على يوسف . . فراح يبحث عن المجد فى دنيا الحب . . فلم يجد إلا الجحود والعذاب والحرمان .

عاشقان جريئان

كان مكتب الشيخ على باشا يوسف فى صحيفة « المؤيد » أشبه بمنتدى فكرى يتردد عليه وجوه القوم من رجال الدين والسياسة والأدب . « وكان من أبرز هؤلاء : السيد عبد الخالق السادات عميد بيت السادة الوفائية . وهو من أعرق البيوت المصرية وينتهى نسبهم إلى الحسن السبط ابن الإمام على كرم الله وجهه . . واعتاد السادات أن يصحب معه إلى المؤيد صغرى كريماته (صفية) . . وكانت صبية مليحة . على شىء من البدانة التى كانت من سمات الجمال فى ذلك العصر . . وراقت الصبية فى عين الشيخ على ، وصادفت من نفسه هوى . . فخطبها من أبيها الذى رحب بمصاهرة رجل ذائع الصيت ، كبير الجاه لقرب موقعه من الخديو عباس ، وتجاهل الأب فرق السن بين الشيخ والفتاة ، كما تجاهل انعدام الكفاءة الاجتماعية بين رجل مجهول النسب ، وأسرة تحظى بشرف الانتساب إلى البيت النبوى . . وقبض الأب مهر ابنته وسافر الجميع لقضاء الصيف فى ربوع تركيا كعادة الوجهاء فى ذلك العصر ، على أن يتم الزواج بعد العودة إلى مصر . . ولكن . .

بعد العودة شعر الشيخ على يوسف بأن السادات يماطل فى إتمام العقد . بل صرح بأنه لن يصاهر رجلا لا يضارعه حسبا ونسبا ، ولما كان الشيخ العاشق واثقا من تعلق الصبية به . واستعدادها لإتمام الزواج رغم معارضة أبيها ـ فقد أقدم العاشقان على خطوة جريئة فى عرف العصر . وهى إبرام عقد القران فى بيت آخر خارج بيت الوالى الشرعى ، ووقع اختيارهما على سراى البكرى بالخرنفش محلا مختارًا لإتمام العقد .

وكان السيد توفيق البكرى ـ نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ـ على

رأس البيت الآخر من بيوت العلية الأشراف ، هو بيت السادة البكريين الذين ينتهى نسبهم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان البيتان الكريمان ـ البكرى والوفائى ـ يتناوبان زعامة نقابة الأشراف ، وهو منصب كان له جليل الخطر وعظيم الأثر فى نفوس المصريين ، لما عرف عنهم من تعظيم وإجلال لكل من ينتمى لأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار .

وأراد السيد توفيق البكرى أن يجمع البيتين تحت لواء واحد عن طريق النسب حتى تظل له نقابة الأشراف ، خاصة أن السيد عبد الخالق السادات لم ينجب غير ثلاث بنات ، فتزوج توفيق من كبراهن (حفيظة) ، وزوج الوسطى (أسماء) من ابن أخيه عبد الحميد البكرى ، حتى تتوفر له وراثة الزعامة إذا حرم العم من إنجاب الولد وبقيت الصغيرة (صفية) لتكون من نصيب على يوسف ، ولتكون بطلة هذه القصة التى هزت المجتمع المصرى من أعماقه ، وانقسم بسببها الرأى العام بين مناصر للتقاليد والآداب الاجتماعية ، ومؤيد للتحرر والخروج على الأعراف الموروثة . . ولم يكن غريبًا أن تكون هذه القصة مجالا للصراع بين القوى السياسية الكبرى : المعتمد البريطانى كرومر ، والخديو عباس ، والزعيم الشاب مصطفى كامل ، وكل الأحزاب السياسية ، فضلاً عن المؤسسات الدينية التى هبت للدفاع عن حرمة الشرع .

* * *

لقد فوجئ السيد توفيق البكرى ، بصديقه الحميم على يوسف باشا وشقيقة زوجته ـ صفية ـ يدقان عليه باب قصره المنيف بالخرنفش ـ الذى كان يوما مقرًا وسكنا لوالى مصر عباس الأول ومن بعده سعيد باشا ـ ويضعانه أمام الأمر الواقع ، ويطلبان منه إتمام عقد الزواج على سنة الله ورسوله . . وأسقط فى يد الرجل . . فقد كان يعلم جيدًا مخاطر هذا التصرف الذى يتنافى مع تقاليد السادة الأشراف ، فضلا عن منافاته للآداب العامة التى لا تقبل بحال أن تعقد فتاة زواجها دون رغبة أبيها . . ولكنه وجد نفسه أمام عاشقين مصممين على تنفيذ عزمهما ، ويهددان بتنفيذ غرضهما فى مكان آخر إذا أصر على الرفض . . فما كان منه إلا الخضوع والاستسلام . . وبعث يستدعى الشيخ حسن السقا إمام وخطيب الجامع الأزهر فتولى الوكالة عن الفتاة

وشهد على العقد زوجا أختيها توفيق وعبد الحميد البكرى وشرب الجميع الشربات . .

* * *

وبعد ٤٨ ساعة . وفى يوم السبت ١٦ يوليه ١٩٠٤ خرجت صحيفة (المقطم) تزف إلى قرائها نبأ « عقد قران السيد على يوسف ، على إحدى كريمات السيد عبد الخالق السادات فى حفلة ضمت الكثير من العلماء . . ثم قصدت العروس بعد ذلك إلى المنزل الذى أعده لها بناحية الظاهر ، وتعمدت المقطم إغفال ذكر المكان الذى عقد فيه القران إمعانا فى تضليل الأب الذى جرح فى كرامته أمام اتباعه ومريديه وإذلاله أمام الرأى العام الذى يضع بيت السادات حيث هو من التكريم . . وبعث السادات بخطاب إلى الصحف ينفى فيه علمه بالزواج ، ويؤكد أن الزواج ـ إن وقع ـ فعلى غير رضاه ، وأنه أبلغ الأمر إلى جهات الاختصاص . وكان من الطبيعى أن تمتنع (المؤيد) عن نشر الرسالة . ولكن المريب كان امتناع (المقطم) عن نشرها بعد أن نشرت الخبر . . وخرجت (اللواء) وفى صدر صفحتها الأولى رسالة الأب الجريح . . فكانت أشبه بقنبلة انفجرت فتطايرت شظاياها فى رقعة واسعة من الأرض . . هى كل أرض مصر .

أبو خطوة يقلب المائدة

بعد عشرة أيام فقط ، من إعلان زواج الشيخ على يوسف وصفية السادات . بدأت محكمة مصر الشرعية فى نظر الدعوى التى رفعها السيد عبد الخالق السادات طالبا فسخ العقد لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين . . واستند الأب إلى أن الشيخ على يوسف ـ وإن كان صحفيا مرموقا ، وأديبا مشهورًا ، وزعيما لحزب سياسى وأحد المقربين من أمير البلاد ـ فإنه يفتقر إلى النسب الرفيع الذى يؤهله للزواج من إحدى سليلات البيت النبوى . . فكل هذه المكتسبات مستحدثة ولا تغير من الواقع شيئًا . وهو أن الشيخ على من « العامة » الذين لا يحق لهم التطلع إلى مصاهرة الأشراف .

وفى يوم نظر القضية ، غصت ساحة المحكمة الشرعية بباب الخلق بأشتات من البشر من شتى الطبقات والثقافات . . جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا وقائع هذه القضية التى تمس بعض مقدسات المصريين فى احترام العلاقات الأسرية ، ومراعاة الآداب الاجتماعية والتقاليد الموروثة . . وكانت الكثرة الغالبة من الرأى العام تقف فى صف الأب المنكوب ضد الشيخ الذى أغوى فتاة شريفة ، وحرضها على التمرد والخروج على الآداب ، فتزوجت بغير رضاء والدها ، بينما كانت القلة المثقفة المتحررة من التقاليد تناصر الشيخ على يوسف الذى صنع مجدًا لم يستمده من عراقة الحسب والنسب ، ولكن من شرف العمل والجهد والكفاح . . ولا ترى هذه الفئة عيبا فى خروج فتاة عن ولاية أبيها لتتزوج الرجل الذى أحبته .

* * *

تلك كانت عناصر الصراع بين جبهة التقاليد والأخلاق ، وجبهة التحرر

والانفلات ، ولكن هذا التمايز الأخلاقي الظاهرى كان يخفى وراءه صراعا أشد وأعتى بين القوى السياسية الجبارة التي وقفت وراء الكواليس ، كل منها تؤيد طرفا من أطراف القضية ، وتسعى لتصفية حسابات سياسية لا علاقة لها بجوهر القضية . . فمصطفى كامل وجدها فرصة ذهبية للانتقام من غريمه اللدود على يوسف . الذى كان دائم التهجم على الزعيم الشاب واتهامه بالرعونة والتطرف . . وانهالت معاول مصطفى كامل فى (اللواء) على رأس صاحب (المؤيد) وزعيم حزب الإصلاح . . ولكنه فى الحقيقة كان يقصد رأس الأفعى ـ عباس الثانى ـ الذى نفض يده من معسكر الحركة الوطنية ، وانحاز نهائيًا إلى صف الاحتلال بعد توقيع الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا فى إبريل ١٩٠٤ ، أى قبل أربعة شهور فقط من انفجار قضية الزوجية .

وكان عباس يعى جيدا أبعاد الهجوم الشرس الذى شنه مصطفى كامل على نديمه على يوسف . . ويعرف أنه المقصود بالهجوم ، حتى لو تذرع صاحب اللواء بحجة الدفاع عن آداب الشرع وحرمة التقاليد . . ووجد الخديو نفسه مضطرا إلى الوقوف إلى جانب رجله فى محنته ، ومحاولة إنقاذه من الورطة الغرامية التى تطورت إلى محنة سياسية ، وضعت القصر فى دائرة الاتهام . . فعباس نفسه كان متهما بأنه هو الذى أوحى إلى الشيخ على بفكرة الزواج من بنت السادات ، وانتحل له نسبا شريفا مزيفا حتى تتاح له فرصة رئاسة مشيخة السادات الوفائية ، فيضمن ولاء هذه الفرقة الدينية الثرية بوضعها تحت رئاسة أحد رجاله الأصفياء . . وكان عباس يسعى دائما للاستيلاء على مناصب الرئاسات الدينية فى مصر ، ولاسيما الرئاسات التى لها إشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ذات الإيراد المالى الوفير . . وكانت هذه الرغبة محلا لصراع تاريخى معروف بين الأمير ومفتى الديار الإمام العظيم محمده عبد الذى رفض بإباء وضع الأوقاف الخيرية تحت سيطرة الخديو .

* * *

ولم يتخلف جبار الاحتلال ـ اللورد كرومر ـ عن المشاركة فى إذكاء حمى الصراع بين أطراف قضية الزوجية ، فاختار الوقوف إلى جانب على يوسف تسديدًا لحسابات قديمة اتخذ فيها الشيخ موقف المؤيد للإنجليز ، وليقطع بينه وبين الحركة الوطنية

التى اتخذت موقف الشماتة من الشيخ العاشق ، ولتكون مناصرة الإنجليز لرجل القصر القوى أولى ثمار المصالحة بين كرومر وعباس . وإغراء الأمير بمزيد من التورط فى مهادنة الاحتلال . .

تلك كانت طبيعة القوى العظمى التى تخفت وراء القوى الصغرى استعدادًا للجولة الحاسمة فى ساحة القضاء . وكانت كل منها تظن أنها سوف تكسب الجولة ولم يخطر ببال هذه القوى الجبارة أن كل ما حاكته من مؤامرات وحيل سوف ينهار أمام جبروت شيخ أزهرى ضئيل الحجم قوى الشكيمة صلب الرأى . . لا يكاد يظهر من خلف منصة القضاء التى يجلس عليها . . اسمه الشيخ أحمد أبو خطوة . . فلم يكد ينفرج الستار عن الفصل الأول من القضية حتى اهتزت مصر من أقصاها إلى أقصاها بسبب الحكم الذى أصدره . . وقلب به المائدة على رءوس أصحابها .

إضراب القضاة

كان نظر قضية الزوجية ، امتحانا رائعا لاستقلال القضاء الشرعى ، فالسلطة ممثلة فى الخديو عباس واللورد كرومر - كانت تساند الشيخ على يوسف وتسعى جهدها لكى يصدر الحكم فى مصلحته . ويرد له اعتباره الذى أطاح به تهجم صحف الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل . . وكان الرأى العام الذى يقدس التقاليد والآداب الاجتماعية يساند السيد عبد الخالق السادات والد الفتاة التى هجرت بيت أبيها لتعيش تحت سقف واحد مع زوجها على سنة الله ورسوله . . إلا أن هذا الزوج كان فى رأى الناس مغتصبًا ، أغار على النسب الأنجب . . !

وفى الجلسة الأولى لنظر القضية أمام محكمة مصر الشرعية ، طلب محامى الزوج حسن صبرى باشا (رئيس الوزراء فيما بعد والذى مات أثناء إلقائه خطاب العرش سنة ١٩٤٠) ، التأجيل حتى يتمكن من الاطلاع على جوانب القضية . . فانبرى له الشيخ عثمان الفندى محامى السادات قائلاً : إذا رأت المحكمة التأجيل ، فلتأمر بالحيلولة بين الزوجين ، إلى أن يبدأ النظر فى الموضوع . فما كان من القاضى الشيخ أحمد أبو خطوة إلا أن أمر بإقامة الحيلولة بين الزوجين ، وإخراج السيدة صفية من بيت زوجها بالقوة الجبرية وإعادتها إلى بيت أبيها . . ومعنى ذلك أنه أخذ بوجهة النظر التى ترى أن الزواج قام على أساس باطل ، وأن استمرار العشرة بينهما هو اعتراف بدوام الخطيئة بينهما . الأمر الذى يستوجب التفريق بينهما لحين البت فى الطلب الأصلى وهو فسخ عقد الزواج .

وتقبلت الجماهير المكتظة فى ساحة المحكمة قرار القاضى بالهتاف والتهليل . . أما الشيخ على يوسف ، فقد وقع عليه القرار وقوع الصاعقة ، وسافر لتوه إلى

الإسكندرية ليدبر الأمر مع ولاة الأمر الذين كانوا يقضون هناك شهور الصيف لعلهم يساعدونه فى الخروج من هذه المحنة ، خاصة أن زوجته أخبرته بأنها لن تعود إلى بيت والدها إلا جثة هامدة . . وساعد على تأزم الموقف أن صحيفة (المقطم) الناطقة باسم الاحتلال ، قالت بعد اجتماع الشيخ على مع بطرس غالى باشا وزير الحقانية (العدل) إن أمر الحيلولة لن ينفذ . . فانبرت لها (اللواء) بسيل من المقالات تحذر فيها من تدخل السلطات فى شئون القضاء ، وتستنفر الرأى العام للدفاع عن حرمة الشرع وكرامة التقاليد واستقلال القضاء .

* * *

وفى الساعة السابعة من صباح ٢٧ يوليو ١٩٠٤ ، اتصل الشيخ عبد الرحمن الأفندى ، قاضى قضاة مصر بمحافظ القاهرة . وسأله عما تم بشأن تنفيذ أمر الحيلولة ؟ فأجابه المحافظ بأن الأوراق لا تزال معروضة على رئيس الوزراء ووزير الداخلية ـ مصطفى باشا فهمى ـ بالإسكندرية . . عندئذ أدرك قاضى القضاة أن الحكومة ماضية فى تعويق أحكام القضاء ، وتعطيل قرار الحيلولة . فاتصل على الفور بالقاضى الشيخ أحمد أبو خطوة ، وطلب منه أن يذهب إلى قاعة المحكمة ، وينتظر منه كتابا يقرؤه فى الجلسة عند افتتاحها . . واتفق الرجلان على أن يتخذا مع الحكومة إجراء يهذبها ويعلمها أن حكم القاضى واجب الاحترام . وأن القضاء يجب أن يكون بمنأى عن تدخلات السياسة وشئون الحكم .

وعند بدء الجلسة اتخذ الشيخ أبو خطوة موقعه على المنصة دون أن يتكلم . .

وظلت الجماهير تترقب بلهفة انجلاء الموقف . . ولم يكن يسمع سوى وجيب القلوب يتردد فى القاعة ، وقد خيم عليها صمت رهيب . . ومرت فترة كأنها دهر حتى تلقى الشيخ أبو خطوة ظرفا يحتوى على رسالة قاضى القضاة ففض الظرف وقرأ الرسالة على الجمهور . . وكانت تتضمن قرارًا صريحا بأن تتوقف جميع محاكم مصر الشرعية ، عن نظر القضايا المعروضة عليها ، إذا لم تلتزم الحكومة بتنفيذ حكم القضاء واحترام قراراته . . فكانت أول دعوة إلى الإضراب العام فى تاريخ القضاء المصرى . . ولم يكد الشيخ أبو خطوة يعلن قرار الإضراب العام . حتى ضجت القاعة بالهتاف بحياة القضاء واستقلاله . . وخرجت الجماهير إلى ميدان باب الخلق

وقد اشتعلت حماستها ، فأحاطت بمبنى المحافظة الملاصق لمبنى المحكمة تعبيرًا عن سخطها ، لتدخل السلطات الحاكمة فى شئون القضاء . . وطيرت وكالات الأنباء الخبر إلى كل أركان الدنيا . . وتكهرب الجو فى جميع أنحاء مصر . . ودب الفزع إلى نفس الخديو عباس حلمى الثانى ومعه اللورد كرومر . . واجتمع مجلس الوزراء على الفور ، وأصدر بيانا أعلن فيه التزامه بتنفيذ قرار الحيلولة . . واضطرت الدولة بكل هيلمانها إلى أن تتراجع أمام سطوة شيخين أزهريين ، لا يملكان من مظاهر القوة سوى شجاعة القلب . ويقظة الضمير . واحترام النفس ، والترفع عن تملق الحكومة ، والتمسك بكرامة القضاء .

وبعدها دخلت قضية الزوجية منعطفًا جديدًا .

نهـاية المأسـاة

أصرت السيدة صفية السادات ، على عدم العودة إلى بيت أبيها تنفيذًا لقرار المحكمة الشرعية بإقامة الحيلولة وعدم المخالطة بينها وبني زوجها الشيخ على يوسف إلى أن تفرغ المحكمة من البت فى الموضوع الأصلى ، وهو طلب فسخ عقد الزواج لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين . . وإزاء إصرار الشيخ أبى خطوة على تنفيذ أمر الحيلولة ، تم الاتفاق على أن تغادر صفية بيت الزوجية لتقيم عند رجل مشهود له بالتقوى والصلاح وحسن السيرة ، هو الشيخ الرافعى ، وقبلت صفية هذا الحل وانتقلت بالفعل إلى بيت الرافعى ، ولكنها لم تنفذ أمر الحيلولة بالدقة التى ينتظرها الشيخ أبو خطوة ، فقد ظلت الاتصالات مستمرة بينها وبين زوجها عبر رسائل تفوح عشقا وهياما . . وتصرخ بلوعة الحبيبين اللذين فرقت بينهما التقاليد العاتية ، بعد أن جمعت بينهما الشريعة السمحاء .

وكانت لدى الشيخ على خادمة أوربية تتولى نقل الرسائل بين الزوجين العاشقين . . وتسربت أنباء الخادمة والرسائل إلى الصحف المعادية للشيخ على ، فلم تتحرج من نشرها فى إطار الحملة المسعورة لتجريح الزوجين وإحراج الشيخ الرافعى . . وزادت الصحف بأن الشيخ على نفسه يتسلل فى الهزيع الأخير من الليل إلى بيت الرافعى ويختلى بزوجته صفية ، ثم ينسحب عائدًا إلى بيته قبل أن يبزغ الفجر. وثار الشيخ الرافعى لهذه الأنباء المثيرة التى تمس كرامته ، وتهز أمانته كحارس على الزوجة ومنع أى مخالطة بينها وبين زوجها ، حتى لو كانت مخالطة شاعرية عبر رسائل الغرام الملتهبة . . وكتب الشيخ الرافعى إلى قاضى القضاة طالبا إخراج صفية من بيته وإيداعها بيت مفتى الديار المصرية الشيخ حسونة النواوى ـ والد الأستاذ

عبد الخالق حسونة الأمين العام السابق للجامعة العربية ـ الذى أسقط فى يده خوفا من أن تنتقل المشكلة إلى بيته ، فتدخل بين الأطراف المتنازعة وتمكن من إعادة الأمور إلى نصابها بعد أن تعهدت صفية بعدم استقبال الخادمة الأوربية وتعهد الشيخ على بالكف عن بث هيامه عن طريق الرسائل .

وبدأت المحكمة فى نظر الدعوى ، وتحدث الشيخ الفندى محامى السادات فطالب ببطلان الزواج على أساس أن الزوج كان فى شبابه من الفقراء ، ومن غمار الناس الذين لا يعرف لهم نسب رفيع ، يؤهله لمصاهرة بيوت الأشراف . . وكانت «تهمة » النسب الوضيع هى التهمة الأولى فى حق الرجل ، أما التهمة الثانية فكانت . . حرفته . . إذ قال المحامى إن الشيخ على يحترف « مهنة دنيئة » هى مهنة الصحافة التى تقوم على التجسس والتلصص على أسرار الناس . . وهى أمور ينهى عنها الشرع !! .

واستمعت المحكمة إلى أقوال الشهود الذين جاءوا ليقرءوا عن ظهر قلب شجرة الأسرة التى ينتمى إليها السادات ، والتى تنتهى إلى الدوحة النبوية ، فإذا سئلوا عن نسب الشيخ على قالوا إنهم لا يعرفون له أصلا ! وكانت الصحف خارج أسوار المحكمة تردد نفس الدعاوى التى ترد على ألسنة الشهود . . ويعترف الأستاذ عباس محمود العقاد بأنه لفق للشيخ على لقبا حقيرا مستمدا من حساب الحروف والطوالع فاختار له لقب (نورى) الذى يعرف به الغجر وشذاذ الآفاق . ويبرر ذلك بأن الشيخ على كان متهما بالانتساب إلى هذه الطائفة ، كما كان يقال بأنه من (المسلمانية) الدخلاء على الإسلام من ناحية جده الأول .

إلى هذا الحد بلغت قسوة المثقفين فى الطعن على الرجل لأنه خرج على التقاليد . ولم يشفع له عندهم أنه صنع مجده بيده ، وشق طريقه فى الصخر ، وتربع على القمة التى ترنو إليها الأبصار دون اعتماد على الحسب الموروث . . ولكنها طبيعة المناخ الذى كان يسود الحياة الاجتماعية والثقافية فى أخريات القرن الماضى وبدايات القرن العشرين . . وكان الشيخ أبو خطوة من أشد القضاة تزمتا ومغالاة فى الحرص على التقاليد ومقاومة نزعات التحرر التى بزغت ريحها فى كتابات قاسم أمين ولطفى السيد ومحمد حسين هيكل ، وغيرهم من دعاة الحرية والمساواة . . وبعد الفراغ من

التحقق من نسب الطرفين ، انتقلت المحكمة للتحقيق فى « شرف » المهنة التى ينتمى إليها الشيخ على . فإذا بالشيخ الفندى يصول ويجول طعنا وتحقيراً من شأن الصحافة . . وانتهى إلى أن الشيخ على يوسف ـ صاحب أكبر جريدة فى الشرق ليس مشتغلا بالصحافة . قائماً بها . . وإنما هو مشتغل بشىء يشبهها لأغراضه . وهذا اشتغال بأخس الحرف وأدنئها » . .

وعبثا حاول « المتهم » أن يدفع عن نفسه ما لحق به من عار وشنار . . وبعد الفراغ من نظر وقائع الدعوى ، اعتكف الشيخ أبو خطوة عن الناس لإعداد الحكم الذى أعلنه وسط تهليل العامة وتصفيقهم ويقضى بفسخ عقد الزواج . . ونظر الناس إلى هذا الحكم على أنه انتصار للأخلاق والتقاليد وهزيمة للتبرج والفساد . . أما رجال السياسة فقد اعتبروه انتصارا للحركة الوطنية ، وهزيمة للخديو عباس واللورد كرومر . . وهكذا نظر كل منهم بالمنظار الذى يخصه . . أما أبطال القصة الأصليون فقد انسحبوا خلف الكواليس بعد أن انفض السامر وانصرف الجمهور . . وعكفوا على معالجة قضيتهم بعيدًا عن صخب العامة وضجيج السياسة وتزمت القضاة . . وتدخل أهل الخير ودعاة الصلح بين الطرفين . . فوافق الشيخ السادات على تزويج ابنته ممن أحبت بعقد جديد . . وظن الشيخ العاشق أنه قد بلغ المرام بهذا الاعتراف ، وأنه سينهل من بحر العسل فى عش الزوجية الجديد . . ولكن حياته انقلبت جحيما على يد زوجته الشابة التى كانت فى سن إحدى بناته . . واضطر الشيخ وهو فى سن الكهولة إلى أن يهرب من البيت ، لينسى همومه فى دوامة العمل فكان يقضى معظم ساعات النهار والليل داخل (المؤيد) يصول ويجول فى دنيا السياسة بعد أن خسر معركة الحب . . حتى إذا بلغ قمة المجد الصحفى والسياسى خرج على الناس بقرار غريب ، هو اعتزال الصحافة والسياسة معا ليتفرغ لوظيفة شيخ الطريقة الوفائية الصوفية . . عساه أن يؤاسى الجرح الذى حطم كبرياءه وينتسب ـ ولو زورا وبهتانا ـ إلى الشجرة التى لفظته وهو فى قمة المجد والسؤدد . . وما هى إلا سنوات قليلة ، حتى ودع الشيخ على يوسف باشا الدنيا بعد أن أنهكه المرض وهدته معارك الحب والحرب . . وخلف وراءه زوجة شابة لم تحقق له ما كان يطمح إليه من سعادة زوجية . . ولقد عبر شاعر النيل حافظ إبراهيم عن مأساة

الشيخ على يوسف ضمن قصيدته الرائعة التى انتقد فيها علل المجتمع المصرى فى ذلك العصر ومطلعها :

حطمت اليراع فلا تعجبى وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يامصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب
وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب

* * *

وقال (المؤيد) فى غمرة رماه بها الطمع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهول فجن جنونا ببنت النبى
فنادى رجال بإسقاطه وقالوا تلون فى المشرب
وزكى (أبو خطوة) قولهم بحكم أشد من المضرب

* * *

فيا أمة ضاق عن وصفها جنان المفوه والأخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم ويكرم فينا الجهول الغبى

محتـويـات

رقم الإيداع ٢٤٤٣ / ٩٤
I.S.B.N : 977 - 09 - 0199 - 7

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

مصر
من نافذة التاريخ
كان وأخواتها

يعرض هذا الكتاب مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث . . وإذا كان تاريخ مصر يمتد في القدم إلى عصور سحيقة ، فإن الحلقة الحديثة هي أقربها إلى عصرنا ، وهي أكثرها تأثيرا في حياتنا . . ولاتزال شخوص هذا العصر ماثلة في الوجدان المصري .

وقد نجح مؤلف هذا الكتاب - جمال بدوي - في أن يبعث الحياة في هذه الأحداث ، فإذا بنا أمام شريط حافل بالحركة ، وإذا بالأبطال الذين طواهم الثرى قد نهضوا من سباتهم ليتكلمون ويحكون لنا ماذا جرى ، وماذا حدث لمصر خلال هذه الحقبة الهامة من تاريخها .

لقد صاغ المؤلف مادته التاريخية في اسلوب أدبي أخاذ لإيمانه بأن التاريخ ليس مجرد أحداث جامدة ، أو آثار حجرية ، أو نقوش على جدران المعابد ، ولكنه حياة متدفقة حافلة بالنبض .

